

طبعة ثالثة

المسيحية والعرب

رفہ

پین

الرصافة

حماة

الرصافة

الله

طاطية

بيت عربايبا

بيت لحم

إهداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قنري مأمود حفني
جمهورية مصر العربية

المسيحية والعرب

الكتاب: المسيحية والعرب
تأليف: نقولا زيادة
تصميم الغلاف: نبيل المالح
إخراج: مؤسسة سندباد
الطبعة الثالثة: 2001 م
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

قذموس للنشر والتوزيع
دار المهندسين (0905) - الفردوس
ص.ب: 6177
دمشق، سورية
هاتف: 222 9836 (11-963+)
براق: 224 7226 - 442 7393 (11-963+)
بريد إلكتروني: cadmus@net.sy

التوزيع خارج سورية:
شركة قذموس للنشر والتوزيع (ش.م.م)
ص.ب: 113/6435
شارع البصرة (بناء قرطاس) - الحمرا
بيروت، لبنان
هاتف: 750 054 (1-961+). براق: 750 053 (1-961+)
بريد إلكتروني: alfurat@inco.com.lb

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها في صفحة الدار على (الشبكة):
www.cadmus-books.com
ولا يتباع إصدارات الدار على الشبكة انظر: www.alfurat.com

تأشيرة الرقابة: 45460 تاريخ 22/8/1999 م

نقولا زيادة

المسيحية والعرب

المحتوى

تمهيد	9
الفصل الأول: إطار المكان وخلفية الزمان	11
1) المنطقة	13
2) التاريخ في نشوئه	19
3) بعد الإسكندر	27
4) التجربة السلوقية	35
5) الإمبراطورية الرومانية - الوعاء المكاني والزمني للمسيحية ...	43
6) المجتمع الذي تلقى المسيحية	51
الفصل الثاني: المسيحية إلى حوالي عام (300) للميلاد	59
1) فلسطين وبيت المقدس	61
2) العهد الجديد - كتاب المسيحية	69
3) المسيحيون الأوائل	77
4) طلائع المفكرين المسيحيين	85
الفصل الثالث: القرن الرابع الميلادي	95
1) النيقاوية	97
2) يوحنا الذهبي الفم	107
3) الرهبنة (أ)	117

125	(4) الرهينة (ب)
133	الفصل الرابع: المسيحية حتى الفتوح العربية الإسلامية
135	(1) القرن الخامس
145	(2) القرن السادس
155	(3) الخلافت
165	(4) في الجزيرة
177	الفصل الخامس: من دولة الخلافة إلى الحروب الصليبية
179	(1) وأخيراً
183	(2) المسيحيون في دولة الخلافة
183	أ) الكنيسة القبطية
193	(3) المسيحيون في دولة الخلافة
193	ب) من القدس إلى بغداد
200	ج) النساطرة
202	د) الموارنة
205	(4) الحروب الصليبية
219	الفصل السادس: وكانت المشكلة
221	(1) غبار العصور الوسطى
233	(2) وجاء العثمانيون والمبشرون
241	(3) ترابط وتقاطع
253	الخاتمة
258	الهوامش

ثبت الخرائط(*)

- 1) الفرتيون والرومان 259
- 2) النبطيون والرومان في شمالي الحجاز وبلاد الشام 260
- 3) مراكز المسيحية في فلسطين 261
- 4) الديارات الصحراوية الواقعة بين القدس والبحر الميت 262
- 5) القبائل العربية المسيحية الشمالية ومراكزها 263
- 6) سورية في عصر الملكة ماوية 264
- 7) المراكز المسيحية الأولى في العراق 265
- 8) المسيحية في اليمن 266
- 9) إقليم (بلاد العرب) الروماني 267
- 10) القبائل العربية في شمالي الحجاز وبلاد الشام 268
- 11) التقسيم الإداري البيزنطي للمشرق العربي 269
- 12) تخوم التحالفات القبلية العربية (القرن السادس للميلاد) ... 270

(*) - الخرائط كافة من رسم زياد منى اعتماداً على الكتاب التالي (J. Spencer)

Trimingham, *Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*.

(London 1979).

تمهيد

قبل سنوات طلب مني الصديق جهاد الخازن، وكان يومها رئيس تحرير (الحياة) أن أضع بحثاً عن المسيحية والعرب، تلبية لرغبة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، أمير الرياض. لبيتُ الطلب، لكن البحث انتهى إلى كتاب، أرسل في وقته إلى سمو الأمير. وقد أُجزتُ عليه. احتفظت من الكتاب بنسخة في أدراجي. وقد قرأه عدد لا يستهان به من أصدقائي، وفي ظني أن بعضهم صوّره. وكان كل من هؤلاء يلح عليّ بنشره لتعم الفائدة من جهة، وكى يطلع عليه أهل المعرفة، فيصوّبون أخطاء قد أكون وقعت فيها.

في نهاية الأمر عدت إلى المخطوطة فأجريت فيها بعض التبديل والتصحيح مما استطعت إليه سبيلاً، ودفعت بها إلى دار قدّمس للنشر والتوزيع في دمشق، وأنا أطمع في أن يتناوله أصحاب المعرفة بالموضوع لإرشادي إلى أي نقص أصابه أو خطأ وقعت فيه.

إنني أرفع هذا الكتاب إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، فهو الذي دعاني إلى وضعه، وأنا بذلك أهدي الصنيع إلى صاحب الفضل فيه، راجياً من سموه أن يتفضل بقبوله، ولسموه شكري واحترامي.

نقولا زيادة

بيروت - أيار (مايو) 2000

الفصل الأول

إطار المكان وخلفية الزمان

(1) المنطقة

تشغل المنطقة التي ستكون موضوع بحثنا في هذا الكتاب رقعة واسعة. فهي تمتد من جبال زغروس والخليج العربي شرقاً إلى الصحراء الغربية المصرية في الغرب؛ ومن جبال طوروس وجبال أرمينية شمالاً إلى البحر العربي وأواسط السودان جنوباً. وهي، فضلاً عن سعتها، فإنها تحتوي من التضاريس الأرضية أكثرها تنوعاً، ومن طبيعة التربة أكثرها تبايناً، ومن المناخات أكثرها اختلافاً وتبدلاً.

فنحن إذا بدأنا منها في الجهة الشمالية الشرقية امتدت أمامنا سهول أرض الرافدين في الجنوب، ومرتفعات شمال العراق على نحو لا يلفت النظر فحسب، بل يثير العجب. من المرتفعات الشمالية ينبع نهرا دجلة والفرات، ومن ثم فإن انحدار هذه الجبال يحمل مياه النهرين، وخاصة مياه دجلة، على الركض، إذا جاز التعبير؛ فإذا وصل النهران إلى السهول الجنوبية، على مقربة من هيت شمالي بغداد، خفّت حدة السير في المياه، وترهّل النهران وهما يقطعان تلك السهول الفسيحة. وقد عثرا على أماكن هي منخفضة عن مجراهما، فملأها بالماء، فكانت الأهوار الواسعة التي توفر للبعض عيشاً يبلغ حد الكفاف، لكنها كانت، في الأزمنة المختلفة، توفر للعصاة أماكن تصلح للاختفاء.

ودجلة والفرات يقتربان، واحدهما من الآخر، حول موقع بغداد، حيث كانت ثمة قناة تصل الواحد بالآخر فيما مضى من الزمن. ثم يتعدان كي يلتقيا معاً فيكونان شط العرب ويصبان في الخليج العربي وقد امتزجت المياه

والدماء فيهما معاً.

وفي الجهة المقابلة، الجنوبية الغربية، يقع الواحد منا على وادي النيل، الذي يفيد شمال السودان ومصر. والذي كان، إلى قبل بضعة عقود من السنين، يفيض كل سنة على أرض مصر، فتكسو مياهه الأرض بطبقة من الغرين تكون لها غذاء، إذ ينثر الناس بعدها الحب ويرجون الغوث من الرب. وكان الفيضان يأتي في فصل الصيف - في أيام التحريق - ومن هنا فقد كانت أرض مصر تعطي موسمين في السنة الواحدة، بل إن أجزاء من الوادي كانت تزرع ثلاثة مواسم في السنة الواحدة.

والنيل يجتاز مصر من الجنوب إلى الشمال، حاملاً مياه النيل الأبيض والنيل الأزرق ونهر سوبات ونهر عطبرة. ويجري في واد ضيق، حتى إذا بلغ أرباض القاهرة انتشر يمينه ويسرة، فكان منه فرعان رئيسيان: فرع رشيد وفرع دمياط، اللذان كانا يمدان الدلتا بالماء.

وبين أرض الرافدين ووادي النيل شريط من الأرض غريب في تكوينه هو أشبه بالهلال شكلاً إذ يصل بين الأولى والثانية، على أنه كي يكون له شأن خاص انتهى في طرفيه ببادية في الشرق هي بادية الشام، وصحراء في الغرب هي صحراء سيناء.

لكن هذا الهلال - وقد أطلق عليه المؤرخ جيمس برستد اسم الهلال الخصيب - له على الطبيعة دالة خاصة، تتمثل في موانئه على البحر المتوسط، وسلاسل جباله التي تمتد من الشمال إلى الجنوب في توازٍ لطيف، والتي تبلغ السماء أنفة، وتقتنص من الغيوم مطراً يحيي الزرع والضرع.

في جهته الغربية تقع سلسلة من الجيوب الساحلية التي تدور حول واحدة أو أخرى من المدن/ الموانئ التي تزين شاطئه. تبدأ هذه حول الإسكندرونة بجيب ضيقة، لكن جيب السويدية (ميناء أنطاكية) أوسع قليلاً. وتكاد تحسب أنك مقبل على سهل إذ تصل أطراف منطقة اللاذقية،

لكنك لا تلبث أن تكتشف أنك في جيب فضفاضة بعض الشيء. ومثل هذا يحدث لك حول طرابلس لكنك لن تفتش عنه في بيروت. ويعجبك جيباً صيداً وصور، وتستمتع بالصورة الفنية عند جيب (سهل) عكا. فإذا وصلت جبل الكرمل رأيت نفسك تدور به نحو الجنوب في سهل لا يتجاوز عرضه مئتي متر. لكن هذا يكون آخر معاناتك. فإلى الجنوب من جبل النبي إلياس يأخذ السهل بتكوين نفسه متسعاً في اتجاهه جنوباً حتى يبلغ نحو ثلاثين كيلومتراً عند غزة.

ويصاقب هذه الجيوب الساحلية سلسلة جبال تبدأ في أمانوس في شمال بلاد الشام، ثم جبال اللاذقية وبعدها، جنوباً، جبال لبنان وفلسطين التي تنتهي عند جبال الخليل. وهي سلسلة مستمرة لكنها لا تكون حاجزاً بين المدن/ الموانئ والمدن الداخلية، لأن ممرات تقطع هذه السلاسل فتربط الساحل بالداخل: السويدية وأنطاكية بحلب، اللاذقية بحماة وما إليها، طرابلس بحمص، بيروت بالبقاع ودمشق، صيدا بدمشق وهوران وعكا بوادي الأردن، ويافا بالقدس، وغزة بالداخل (وحتى المدى البعيد في أزمنة مختلفة).

وثمة سلاسل جبال أخرى موازية للأولى وتقع إلى الشرق منها، لكنها متقطعة. وأكبرها أثراً هو جبل الشيخ. وبين السلسلتين تقع سهول حلب وحماة وحمص والبقاع ووادي (غور) الأردن الذي ينتهي بالبحر الميت، أكثر المياه انخفاضاً عن سطح البحر (394 متراً).

وإذا انتهيت من سلاسل الجبال الشرقية وجدت نفسك في بادية الشام، كما تجد نفسك في صحراء سيناء عندما تنتقل من غزة جنوباً في غرب. لكن الصحراء والبادية كانت دوماً سبيل اتصال لا حاجز انفصال.

ونحن عندما ننتهي من زيارتنا لأرض الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام، يترتب علينا أن نتوجه نحو الجنوب كي نلقي نظرة، عن طريق الخريطة، على الجزيرة العربية التي هي أغرب وأعجب بكثير من الأجزاء التي

ألقينا عليها النظرة. فهي أولاً أرض واسعة جداً؛ وهي محاطة بالبحار من جهات ثلاث: الخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر. وهي صحار في صحار. فإذا أتيت لك أن تتصور نفسك على قمم جبال الحجاز، واستطعت عندها أن توجه وجهك في اتجاه شمالي شرقي، وجدت أن الأرض تتجه منخفضة من حيث أنت إلى الخليج العربي وجنوب أرض الرافدين. والإنخفاض تدريجي، وكل ما تفعله هو أنك تقطع، متخيلاً ذلك، صحراء بعد صحراء، بعضها صخري حماد، وبعضها الآخر رملي. وسواء قيل لك إنها النفوذ أو الدهناء، فهي أرض جافة. ستطالعك فيها واحات، تكبر أو تصغر، وهذه الواحات يتجمع حولها الناس. فينعمون بمائها، ويختصمون بسببه. نعم، أمامك حائل والرياض. ثم عندما تصل إلى الأحساء يتبدل الوضع. فالماء غزير والأرض معطاء والرفش والمعول عاملان فيها بجدة. وأنا لا أتحدث هنا عن ضخ المياه عبر أقنية تقنية على ما رأيت في زيارتي للنفوف. إنما أنا أتخيل ما كان يدور الناس فيه وحوله أيام كان الشادوف والسطل والناعورة والرفش والمعول والمحراث العادي عدة الفلاح أو مستثمر الأرض.

ونعود لنقف على مرتفعات الحجاز، ونوجه نظركم الآن في اتجاه جنوبي شرقي فنقطع الربع الخالي، الذي لم يكن دوماً خالياً (على ما يكشفه التنقيب الأثري سنة بعد سنة) ويمتد نظركم، متخيلين الأمر طبعاً، حتى نصل عُمان - جبالها وساحلها، وخاصة جبلها الأخضر. ثم نعود مرة ثانية إلى منطقة تقتنص الأمطار الموسمية وتفيد منها أنياً، وتختزن بعضها لحين الحاجة. والساحل هنا، مثل سواحل الخليج العربي، غنية أجزاؤه بالموانئ التي كان لها، عبر تاريخها الطويل، تجارب تجارية مع أقطار نائية: الهند وجنوب الصين وإندونيسيا.

فإذا درنا بعمان في حركة يمينية وأسعفتنا الرياح مررنا بعدد من الموانئ لعل من أهمها الشحر وقنا (عش الغراب). وكل واحدة من الموانئ الواقعة

على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية لها مع التجار والتجارة والبحار والبحارة قصة لها في الواقع أصل، لكن الخيلة وسعت دائرتها والقصة/ الأسطورة زخرفتها فكانت لطيفة، تعجب أنت بها وأنت تعرف أن الأيام قد أوسعت جلدها فوسع ما لم يكن يتسع له من قبل.

لا. لن نحاول أن ننظر من الحجاز إلى الجنوب، فهذا أولى أن نتقل إليه. لكن لنوجه وجهنا غرباً لنرى ما الذي تقع عليه العين. انحدار شديد من المدينة المنورة إلى ينبع، ومن مكة المكرمة إلى جدة، ومن عسير إلى الساحل. انحدار نحو البحر الأحمر. جميل أن ينحدر المرء نحو الساحل، وأجمل منه أن يتصور ما يمكن أن تقدمه الموانئ هنا من خيارات عبر الأزمنة المتفاوتة والمتابعة. والبحر الأحمر فيه عائقان يجعلان الاتجار فيه ومعه صعباً: الأول أن الشواطئ المرجانية كثيرة فيه، حيث يصبح الخطر على السفن كبيراً. فضلاً عن ذلك فإنه - مثل الخليج العربي - مستقر للقرصان. وهذا ينتعش فيه عندما تضعف الدول المحيطة به. أما إذا قويت وانتظم أمرها وقوي أسطولها خرج القرصان يبحث عن ملاجئ غير شواطئ هذا البحر.

والمرء ينتظر أن يكون البحر مصدراً كبيراً للأمطار، ولكن البحر الأحمر يخيب الأمل في غالب الأحيان. فهو بحر ضيق والأرض الواقعة إلى الغرب منه صحراء تبدأ عند سواحله وتنتهي عند المحيط الأطلسي. ويجب أن نذكر أيضاً أنه يقع في منطقة حارة أصلاً. لكن البحر لا ييخل بالبخر يحمل إلى جبال الحجاز، فيسقط مطراً غزيراً مفاجئاً ثم هو يتدحرج مسرعاً نحو البحر بسبب هذا الانخفاض الشديد الذي أشرنا إليه.

نحن نسير، مستفيدين من الخريطة، وكم كنت أود لو أنني أتقل فعلاً، نحو اليمن البلاد الجبلية فعلاً، التي تقتعد هذا الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة. في الجبال مناخ جيد، وفي السواحل - الحديدة وعدن - حر لافح. لكن اليمن مثل عمان، تقتنص الأمطار الموسمية وبكمية أكبر على ما يبدو.

لذلك كانت اليمن الجزء الوحيد من الجزيرة الذي قامت فيه حضارة مدن، وتنظيمات سياسية بالمدينة أخرى، وبنيت فيه السدود، لجمع المياه خلفها، وتقنين توزيعها والإفادة منها حين الحاجة.

هذه الرقعة الواسعة التي حاولت أن أضع لها إطاراً طبيعياً بشكل مقتضب هي التي نريد أن نتحدث عن بعض التطورات فيها، وخاصة تلك التي بدأت في مطلع القرن الأول للميلاد، والتي استمرت، مع تقلبات الأزمنة وتبدل الدول وتطور الجماعات، حتى يوم الناس هذا.

هذه المنطقة قامت فيها أشكال من الحياة خلال أزمنة التاريخ، لست أنوي التحدث عنها بتفصيل الآن. لكن لا بد من القول، أولاً وقبل كل شيء، إن السكان الذين عمروا هذه الأرض، وخاصة في مطلع الفترة التي ننوي التحدث عنها، كانوا على ثلاثة أصناف: فهناك فئات من البدو موغلة في البداوة؛ وهناك جماعات بدوية لكنها، بسبب المناطق التي كانت تقيم فيها، أصبحت بداوتها أقل عنفاً وأيسر حياة. ويظل عندنا سكان الريف الذين كانوا يفيدون من الأرض ويقطنون القرى والمزارع والبلدات، وسكان المدن الذين كانت لهم حياة فيها صناعة وفيها تجارة وفيها تنظيم. وكانوا يستمتعون بالتعلم والتعليم على اختلاف درجاته.

(2) التاريخ في نشوئه

هذه المنطقة التي وصفنا والتي جربنا جهدنا في تحديدها، عرفت عبر آلاف السنين السابقة لظهور المسيحية، نشوء جماعات بشرية أصيلة فيها، وهبوط فئات كبيرة جاءتها من الخارج. فوادي النيل، الذي كان فيه قدامى المصريين الذين ضربوا المعول الأول في الأرض لريها من مياه النيل، جاءهم، وفي موجات متعاقبة فئات من الجنوب من هذا العنصر الذي يسميه الباحثون، تجوّزاً وألفة، العنصر الحامي. كما هبط وادي النيل جماعة من الغرب من ليبيا، محتلة حيناً، ومهاجرة أحياناً، وباحثة عن قوت يوفره النهر الكريم. ولأن هؤلاء القادمين كانوا يصلون في أوقات مختلفة، وقد تكون متباعدة، فإنهم سرعان ما كانوا يمتزجون بالموجودين هناك. وقد تؤدي موجة عن هذه الموجات الجنوبية إلى انتعاش في الحياة السياسية وفي المجتمع بمصر، فتقوم دولة جديدة، على نحو ما حدث عند قيام الإمبراطورية في أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد أو قبيل ذلك.

وكثيراً ما كانت تقصد جماعات مضر من الشرق؛ من الجزيرة العربية مجتازة البحر الأحمر. لعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن مثل هذه الهجرات كانت كثيرة، ولو أنها لم تكن في حجم ما كان يأتي من الجنوب مثلاً. ولأن الهجرات من الجزيرة لم تؤدي إلى قيام دولة جديدة أو حركة سياسية خاصة، فإن صداها كان ضئيلاً، ولذلك ضاعت في متاهات التاريخ. ولعلّ أبقى أثر لها تأثيرها في اللغة المصرية القديمة من حيث الألفاظ وحتى التركيب اللغوي.

أما الجزء الآسيوي من هذه الرقعة فهو أوسع مدى، من الجهة الواحدة، وهو، من الجهة الثانية، وخاصة في الجزيرة بالذات، مركز توليد ودفع إلى الخارج. فالبلاد الشاسعة، التي تكسوها رمال الصحارى أو حمادها، كانت، بين الزمن والزمن، تنوء بحمل سكانها، فتدفع بهم، أو يدفعون هم بأنفسهم، إلى الجوار - إلى أرض الرافدين وبلاد الشام (الهلال الخصيب) وحتى مصر (على ما رأينا). وليس من قبيل الكلام فحسب، أن يقال في أرض الرافدين وفي هضاب نجد: «نجد أم والعراق داية». ويكاد يكون كل جزء في الجزيرة أمًا، ويتبع ذلك أن كل جوار لذلك الجزء هو داية - الأم تلد والداية تستقبل المولود.

وإذا صح ما ذهب إليه نفر لا يستهان به من الباحثين من أن هذه الموجات التي خرجت من الجزيرة كانت متشابهة في أمور كثيرة - عنصرياً (أو جينياً كما يقتضي القول اليوم) واجتماعياً ومعاشياً، فإنها لما استقرت في الجوار: في أرض الرافدين وبلاد الشام، نقلت معها صفاتها الجسدية والنفسية والاجتماعية ومفاهيمها المادية والمعنوية وعصبياتها القبلية (أو حتى العشائرية) ولغاتها. أم هل نقول، مع بعض القائلين، إنهم نقلوا معهم إلى الجوار لهجات اللغة أم واحدة أصلية؟ ومن هنا فقد ظلوا في مواطنهم الجديدة يتمتعون بروح حملت من الداخل إلى الخارج بكل ما فيها من خير وشر، ونشاط وكسل، ودفع وتقاعس.

على أن هذه الموجات الكبيرة تلك التي عرفنا عنها معرفة تاريخية دقيقة، وتلك التي نتقرى آثارها بلمس، وكذلك التي لا نتعرف إليها إلا على غبش لأنها تخص عصر الضباية التاريخي: هذه الموجات أطلقت عليها أسماء، قد لا نقرّها، لكنها تعيننا على تتبع التطور لها بعد استقرارها في مواطنها الجديدة. ونحن لا نبغي التأريخ لها هنا، ولكن لا بد لنا من ذكر أسمائها لأن هذه قد تعرض لنا في هذا الحديث، فليكن الأساس موجوداً. هذه الموجات هي الأكديّة (أو الأكادية) ولعلها الأقدم (إلى أرض الرافدين)

ويبدو أن الموجة الأمورية (العمورية) التي اتجهت نحو بلاد الشام جاءت بعدها، ولعلها كانت معاصرة للموجة البابلية ثم الآشورية وهاتان حملتا شعوبهما إلى أرض الرافدين. وعندنا الموجة الكنعانية (ويدخل في عدادها أو تحت جناحها الفينيقيون وكنعانيو فلسطين بالذات وغيرهم). وثمة الموجة الآرامية.

على أن هذه الموجات الكبيرة التي رنّ صداها في المجتمع والأدب وشؤون الدين لم تكن وحدها سبيل الانتقال من الجزيرة إلى الجوار. فانتقال الفئات الصغيرة من أرض رملية إلى أرض المدر المجاورة هو أمر عادي، يحدث دون توقيت أو أذن أو حرب. والذي أتيح لهم منا أن يتعرفوا على مناطق مجاورة للصحارى يعرفون ذلك حق المعرفة.

على أن أرض الرافدين وبلاد الشام تلقت فئات من شعوب جاءتها من خارج المنطقة بالذات. ومع أننا لا ننوي التأريخ لهذه الشعوب أيضاً، فإننا لا بد من أن نشير إلى بعضها. ولعلّ أقدمها السومريون مجهولو الأصل حتى اليوم (لأن هويتهم قيد الدرس!) هم أقدم شعب عرفنا عنه، فهم الذين وضعوا أسس الحضارة في أرض الرافدين حتى في الألف الرابع قبل الميلاد! وقد كانت المناطق الجبلية والهضاب القاحلة المحيطة بالمنطقة في الشمال خاصة، مورد شعوب تخلفها وراءها وترحل إلى الأرض الخصبة المعطاء.

الشعوب التي جاءت من الجزيرة أطلق عليها اسم الشعوب السامية، ولعل التسمية تقوم على أساس اللغة أكثر من أي شيء آخر. أما الشعوب التي هبطت من الشمال فبعضها من مجموعة الشعوب الهندية الأوروبية (أو الآرية اختصاراً) التي كان موطنها الأصلي في منطقة تحيط ببحر قزوين، ومنها رحلت جنوباً (في شرق إلى الهند، وغرباً (مع التشعبات) إلى آسية الصغرى وأوروبة. وكان حصّة منطقتنا الأصلية منها، مثلاً، الحثيين في القديم، والأرمن في الزمن الأحدث.

وهذه الجماعات كانت لها لغاتها الخاصة بها، ومفاهيمها النابعة من طبيعة مجتمعاتها، وقد احتفظت بكثير منها عبر القرون الطويلة.

لكن المهم بالنسبة إلى هذه الشعوب، السامي منها والآري، هو أنها عندما كانت تصل إلى أرض الرافدين أو بلاد الشام كانت، في أكثر الأحيان، تهدم بعض ما كان قائماً من ملك أو إمارة أو ما إلى ذلك. لكنها لا تلبث أن تقيم مكان ذلك ملكاً أو إمارة وتحيي ما كان أصلاً من حضارة في تلك الجهات، وتضيف إليه في الغالب. ومن هنا فلم تكن هذه الشعوب دوماً لعنة على البلاد.

ومن هذه الشعوب ما حمل إلى المنطقة شيئاً جديداً لم يكن معروفاً فيها قبلاً. إن المنطقة دجّنت الحمار (ثم الجمل في وقت لاحق) وذلك لنقل الناس والسلع. لكن الجماعة التي جاءت بلاد الشام في زمن يدور حول القرن السابع عشر قبل الميلاد، والتي هبطت من الشمال جاءت معها بالحصان والعربة ولعلها حملت معها الحديد (استعمالاً) أيضاً.

ولنذكر قبل كل شيء أن المدينة ظهرت، أول ما ظهرت، في ربوع هذه المنطقة. وقد تبين هذا للباحثين منذ زمن طويل، إذ كشفت أعمال الحفر والتنقيب التي قام بها علماء الآثار وهواتها أن أرض الرافدين ووادي النيل وضعت اللبنة الأولى للمدينة الإنسانية، من حيث تنظيم الدولة واستثمار الأرض وتنويع محاصيلها وتوزيع المياه فيها ووضع نظام للكتابة وبناء المدن بما فيها من هياكل وقصور، ومنازل ودور وصناعة الأشياء، وتبادل المتاجر والسلع وتنظيم القوافل وما قد ينسى أو يستهان به عندما نأخذ بتعداد الشؤون المدنية والتمدية.

وقد كان يحسب، إلى نحو ربع قرن من الزمان، أن بلاد الشام لم تكن سوى قنطرة عبر عليها متمدنو أرض الرافدين ومتحضر وادي النيل - فاتحين وتجاراً ورحالة - فخلفوا فيها من آثار مدنيتهما ما أحيا فيها الزرع والضرع،

وحمل الناس على الصناعة وبناء المدن، وتنظيم شؤون الدولة، واقتباس أنماط ونماذج للكتابة. ولكن الرفش والمعول اللذين نشطا نشاطاً يكاد يكون منقطع النظير في سورية ولبنان وفلسطين والأردن أظهرنا أن هذه الرقعة كانت لها من الأصل مشاركات أصلية وإسهامات أساسية في وضع أسس المدنية. كما اتضح للباحثين أن دور هذه البلاد الشامية لم يكن هامشياً قط. ولعل أعمال الحفر والتنقيب التي يقوم بها أهل المعرفة من أقطار أخرى تضمها منطقتنا ستكشف عن خبايا من الإنجازات الحضارية المهمة بالنسبة للتطور المدني في أسسه. ولعلّ تسلل الأقمار الصناعية إلى كشف المخبأ تحت رمال الصحاري سيكون له أثر في إزالة القناع عن الذي تم. فيتضح مع الوقت إن الجميع أسهموا في إنتاج هذه الحضارة.

ولسنا ننوي هنا أن نتحدث عن مآتي الشعوب المختلفة في المنطقة. لكننا أردنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الفكرة العامة تمهيداً لما نحن قادمون عليه من تفصيل ما كانت عليه المنطقة في القرن الأول قبل الميلاد. إذ هناك يبدأ عملنا.

والذي يجب ألا يغرب عن البال هو أن هذا التفاعل بين الإنسان والأرض، على تباين أنواعها، هو الذي تفتق عن المدينيات الأولى. لكن المنطقة، من حيث موقعها، تتوسط العالم القديم: شرقه وغربه، وشماله وجنوبه. وكانت معرفتها بالعالم تتسع مع اتساع الاتصال بينها وبين أجزائه. والتواصل مع الشعوب الأخرى كانت نتيجته تبادلاً في السلع والآراء وأصناف المعرفة ونظم الحكم. فكانت شعوب المنطقة تفيد وتستفيد. ولم يكن ذلك مجرد أخذ ما عند الآخرين وضمه إلى حصيلة الحياة المجدية فيها. كانت تأخذ من كل جهة وكانت تصهر هذا الذي أخذته حيث يصبح بعد حين جزءاً من حياتها. مثل هذا ينجزّ على الأساطير التي نقلت إليها من الشرق القصي ومن الغرب البعيد، فلم تلبث أن نمت هذه الأساطير وتطورت في أرجائها. فقد تكون الأسطورة هندية الأصل بحرّيته من المحيط

الهندي، الذي تعلو أمواجه وتتلاطم عواصفه. فإذا وصلت بلاد الشام وغطست في البحر المتوسط أو سبحت في دجلة أو الفرات أو النيل، لطفت حواشيتها وخفت صوتها. وقد تنتقل إلى مكان صحراوي وعندها قد يجف الدمع في مآقيها، وقد تصبح ابتسامتها قعقة مدوية كي تحملها الرياح إلى من يسمعا عبر الصحراء.

فضلاً عن ذلك فإن الحياة في المنطقة التي نحن معنيون بها الآن، بحكم ما فيها من خلاقات في تضاريس الأرض والحرارة وما إلى ذلك، قامت فيها نظم متباينة. فمع أن وادي النيل عرف في تاريخه الطويل الحكومة المركزية (التي قد تقوى كثيراً وقد تضعف أحياناً لكنها تعود إلى المركزية) بسبب نهر النيل وفيضانه المنتظم والحاجة إلى من يعنى بهذا وما يستتبعه. فإن بلاد الشام وأرض الرافدين عرفت حكومات المدن - الدول أو الدول - المدن نظاماً للحكم والإدارة. كان هذا هو الأصل؛ وقد تقوى مدينة فيقوم ملكها باحتلال المدن القريبة منه، أو حتى يطمع في فتح بلاد بعيدة، فتكون له إمبراطورية: (نارام سن وحمورابي وسواهما في أرض الرافدين) لكن المدينة - الدولة كانت هي القائمة على الحضارة وما ينبع عنها خلقاً وحماية وتطويراً.

على أننا يجب أن نذكر ما قلناه قبلاً أن هناك أجزاء من هذه المنطقة الواسعة ظل سكانها بدواً في غاية البداوة. هؤلاء كانت لهم قواعد خاصة للسلوك. وسرى الدور الذي قامت به هذه الشعوب في تطوير بعض المفاهيم الاجتماعية والأدبية والسلوكية.

ولنسمح لأنفسنا بأن نذكر أنفسنا بأن هذه الشعوب، المتحضر منها والوبري، كانت لها مشاركة كبيرة في خلق معتقدات وتنظيم طقوس، وترتيب عبادات للجماعات التي قامت فيها وبينها. فالإنسان، على ما يبدو، احتاج من أول الأمر إلى من يعبدته وإلى من يعتقد أنه أوجده. كما أنه

كان يطمح في الحصول على أمور ما يزال يطمح إليها اليوم. كان ذلك كله أسطورة في أول الأمر؛ ثم تبدلت الأسطورة واتخذت لها أشكالاً وصوراً متنوعة؛ ثم حلت الأديان مكان الأسطورة، فجاءت عبادة الآلهة، ثم توصل الناس إلى عبادة إله واحد ثم أوحى إليهم بذلك. وكانوا في كل دور وفي كل مكان وفي كل مجال يقبلون هذا الذي كان أمامهم وهو الذي نما وتطور. فكان عندنا أسطورة الخليقة البابلية ورواية سفر التكوين في العهد القديم؛ وكانت أسطورة غلغامش الآتية من الشرق، وكانت أناشيد الأسفار الروحية؛ وكانت الآلهة، إلى أن عُبدَ الله الذي لا إله إلا هو.

(3) بعد الإسكندر

أشرنا إلى الجماعات التي هبطت منطقتنا هذه من الشرق والشمال، لكننا لم نتحدث عن الموجات أو الجماعات التي جاءت من الغرب. ويبدو، مما حفظه التاريخ لنا، أن الموجة الكبيرة الأولى التي جاءتنا هي المعروفة باسم الشعوب البحرية. يروى أن هذه رُدت عن الوصول إلى مصر، لكنها استقرت في فلسطين، وخاصة في سهولها الجنوبية. وكان هذا الشعب الذي استقر هناك هو المعروف باسم الفلسطينيين (ومنه حصلت فلسطين على اسمها) وكان له أخوة وأبناء أعمام، لعلهم كانوا أصغر حجماً، فلم يخلفوا من الأثر ما خلفه الفلسطينيون.

وجاءت بعد ذلك فئات يونانية استقرت في المناطق الساحلية من نيوكراتس (غربي الدلتا المصرية) إلى الأجزاء الشمالية من الساحل الشامي. لكن هذه كانت جماعات صغيرة تعمل في التجارة والصناعة، شأنها في ذلك شأن الأقوام والجماعات التي ترحل عن أوطانها في طلب العيش. على أن الجماعات الأكبر عدداً والأبعد أثراً كانت تلك التي أنشأت في المهاجر مدناً على غرار المدن اليونانية. هذه عرفت مصر وليبيا وشواطئ البحر الأسود وشواطئ البحر المتوسط الغربية. لكن يبدو أن الساحل الشامي كان مكتظاً بالسكان أيام هذا الاندفاع اليوناني (بين السنين 750 و500 ق. م). فلم يجد المهاجرون لهم فيه مستقراً. هذا مع العلم بأن عدداً لا يستهان به من سكان بلاد اليونان عمل مرتزقة في الجيوش المشرقية حتى في أيام الكلدانيين والفرس.

على أن الذي لم يتم على أيدي مهاجرة اليونان من قبل تمّ على أيدي الإسكندر وخلفائه في القرون الثلاثة السابقة للميلاد، وهذه الفترة هي التي يسميها المؤرخون: العصر الهلنستي. وهذا كان زمن التبدل الاجتماعي والفكري في منطقتنا (باستثناء الجزيرة العربية التي لم يحتلها الإسكندر).

شملت فتوح الإسكندر آسية الصغرى وبلاد الشام ومصر وأرض الرافدين وإيران (وقضى على الدولة الفارسية القديمة) وسار شرقاً حتى وصل حوض السند وسمرقند وأجزاء أخرى من أواسط آسية. وعاد إلى بابل وكان يخطط لاحتلال الجزيرة العربية (ولو سواحلها على الأقل) لما حتمّ ومات (323 ق. م).

كانت الإمبراطورية التي أنشأها الإسكندر أوسع ما عرفه التاريخ إلى أيامه. ولما توفي فجأة انصرف كبار قواده للنظر في مستقبل الإمبراطورية. وكان الاتجاه، على الأقل ظاهرياً، نحو المحافظة على وحدتها، لكنهم اختلفوا فيمن يتولى الحفاظ عليها، وكل له مطمع ومطمح. وتولى سلوقس شؤون القسم الآسيوي (باستثناء آسية الصغرى) وأطبق بطليموس على مصر وفلسطين (وبعض جوارها شمالاً) وكان هناك من احتضن آسية الصغرى ثم من احتضنته اليونان.

ودارت حروب طويلة ثم اتضح للجميع بعد معركة إيسوس (301 ق. م) أن الاحتفاظ بالوحدة أمر مستحيل وأن تقسيم وتوزيع الإمبراطورية أمر حتمي، فجرب كل توسيع منطقة نفوذه. والذي يعيننا في هذه المناسبة الملك السلوقي والملك البطلمي. والأول انتهى أمره بأن حكم بلاد الشام (إلا فلسطين لم يضمها إلا في القرن الثاني قبل الميلاد) لأن الأجزاء الشرقية استقلت جميعها تدريجاً. أما الملك البطلمي فقد اضطر في نهاية المطاف أن يتخلى عن فلسطين (حرباً) وأن يكتفي بمصر.

ونحسب أنه من الضروري لمن يريد أن يتعرف إلى نشوء المسيحية وبدء

انتشارها في بلاد الشام ومصر أن يتعرف إلى التجربة التاريخية الخاصة والمهمة التي مر بها هذان القطران في العصر الهلينستي. وهنا يجدر بنا أن نضع أمام أعيننا بضع ملحوظات عامة تتعلق بالدولتين.

كان السلوقيون يعدون أنفسهم ورثة الإسكندر في برنامج الذي كان يرمي من ورائه إلى توحيد العالم بأكمله عن طريق نشر الحضارة الهلينية (الإغريقية) بين سكان الإمبراطورية أجمعين. ومن هنا كان أتباعهم مخططة المتعلق بإنشاء مدن يونانية تصبح مراكز إشعاع فكري وحضاري لسكان البلاد أجمعين. ولم يكن البطالمة يعنون بهذه الناحية بما فيه الكفاية. ومن هنا نجد أن هؤلاء اهتموا في مصر بمدينة واحدة هي الإسكندرية، وهي التي أنشأها الإسكندر، فيما بنى السلوقيون عدداً كبيراً من المدن.

وكان السلوقيون، مثل أباطرة فارس من قبل، يطلقون لسكان البلاد الحرية الدينية، وقد ينفقون على بناء المعابد والهيكل للفئات المختلفة من شعوب دولتهم. فإذا وقعوا في ضائقة مالية لم يكونوا يتورعون عن مصادرة أملاك هذه الهيكل وأموالها. أما البطالمة فكانوا يضيفون إلى الحرية الدينية مراقبة أماكن العبادة.

ويتفق السلوقيون والبطالمة على اعتبار أرض المملكة بأجمعها ملكاً خاصاً بالملك. وعندما تقام مدينة فالملك هو الذي يمنح الأرض اللازمة للبناء وغير ذلك من المنافع. وكان كل العاملين في الأراضي الملكية نوعاً من (الأقنان).

وقد يكون هذان الأمران من الأشياء العادية في الشرق القديم، لكن تبني السلوقيين والبطالمة لهما هو أمر له دلالة من حيث هذا التزاوج الذي نشهده في السلوك السياسي الرسمي وفي الفكر السياسي.

فالنظام السياسي الذي عرفه الشرق منذ أن قام السومريون ببناء مدنهم (في الألف الرابع قبل الميلاد) ومنذ أن نظم الفراعنة شؤون دولتهم (حول 3000 ق. م) وبقطع النظر عن سعة الدولة أو صغرها، كان أساسه أن

الحاكم كان دوماً (ملكاً). وهذه الملكية التي ورثها الشرق عبر القرون العديدة كانت لها صفتان متلازمتان: الأولى أنها (إلهية)، الأصل والثانية أنها (أوتوقراطية). فالملك كان مندوباً عن الإله أو نائباً له على الأرض في عرف الحضارات البابلية؛ أما في مصر فكان الفرعون هو الإله متجسداً. والقانون الذي تسير عليه الدولة هو سماوي (إلهي). لكن في بابل كان الملك يتلقى القانون من الإله (حمورابي يتلقى القانون من الإله على ما صورته الفنون القديمة) أما في مصر فلا حاجة لتلقي القانون: إن الملك/ الإله هو الذي يشرع رأساً. وفي فارس، وقد كان لها أثر في منطقتنا، كان الملك يرث العرش (وقد يغتصبه) لكن شعاره كما عبر عنه دارا الكبير: «إنني أملك بنعمة، وأهورا موزدا هو الذي أعطاني المملكة».

لكن اليونان، باستثناء المقدونيين، كانت لهم تجربة من نوع آخر: هي تجربة (المدينة/ الدولة) (ولكن بدون الملكية الشرقية). وحكم المدينة كان يركز إلى مؤسسات يختارها السكان الأحرار في انتخابات ديمقراطية. وحتى في فترة التوسع اليوناني (نحو 700 - 500 ق. م) نقلت المدن التي بنيت في المستوطنات الجديدة نظام الحكم الديمقراطي.

ومعنى هذا كله أن السلوقيين، مثلاً والبطالمة كذلك، كانوا ورثة نوعين من الحكم بينهما فروق شاسعة. ولنضيف أمراً جديداً تم على يد الإسكندر بالذات: الإسكندر سليل أسرة ملكية في مقدونية، لذلك كان أقرب إلى قبول الوضع الملكي. فضلاً عن ذلك فقد كان الإسكندر يعتبر نفسه ملكاً ولا كالمملوك. وإذن فكيف يعامل؟

لما زار الإسكندر واحة سيوة حيث يقوم هيكل الإله آمون، حيّاه الكاهن على أنه ابن آمون. وهذا معناه أنه أصبح ملك مصر لأن كل ملك مصري هو ابن لآمون. وكان الإسكندر يعتقد أنه متحدر من الإله زفس، كبير الآلهة اليونانية. والآن أصبح الابن الأصيل لزفس - آمون. وأضيف

على أعماله ومخططاته رسالة إلهية، أي أنه أصبح، مثله مثل أي فرعون سابق، ملكاً/ إلهاً. أما في إيران فقد أصبح (بعد مقتل دارا) ملكاً حاكماً مطلقاً، لكنه لم يكن إلهاً لأن الديانة الزرواسترية (الزرادشتية) لا تعتبر ملوك الفرس آلهة. لكن رسوم القصر الفارسي كانت تحتم على كل من يقترب من الملك أن يسجد له. وقد سار الإسكندر على هذا النهج كي يعتبره الفرس ملكهم. وكان سكان المدن اليونانية في العهود الملكية السابقة يؤلهون الملوك بعد وفاتهم. ولكن اليونان الذين استقروا في المدن اليونانية رأوا في الإسكندر رجلاً حراً بالتأليه في حياته، فحصل منهم على ذلك (324 ق. م).

والذين خلفوا الإسكندر في إمبراطوريته، على الأقل بين السلوقيين والبطالمة، اعتبروا كما اعتبر هو، لكن كل في دائرته. ذلك بأن دائرة الإسكندر كانت أوسع.

ومما يجب أن يذكر هو أن البلاد التي احتلها الإسكندر كانت فيها مدن كثيرة. فهو لم يبدأ العملية البنائية من الصفر. لكنه بنى مدناً (يعزى إليه أسطورياً بناء نحو 75 مدينة!) ولا بد من التساؤل عن السبب في بناء العدد الكبير من المدن أيام الإسكندر؟

نحسب أن الإسكندر أراد أن يخفف من الضغط (التفجر) السكاني والضائقة المالية الذين كانت بلاد اليونان تتعرض لهما.

فالمدن الجديدة أصبحت مساكن للمقدونيين واليونان الآخرين، فكانت مشروعاً اجتماعياً اقتصادياً. وأدرك الإسكندر الحاجة إلى إنشاء ثكنات عسكرية لحراسة الطرق التجارية وضبط الأمن ومقاومة الحركات الوطنية المحلية (إذا قامت).

وإذا كان لابد لنا من الأخذ بالرأي القائل إن الإسكندر كان ينوي توحيد العالم، فإنه، تبعاً لذلك، كان لابد أن يقيم مراكز للحضارة اليونانية

كي تشع منها إلى محيطها الجديد كما أشرنا. فالحضارة اليونانية كانت، في رأيه، العلاج الناجع لإصلاح المجتمع البشري.

وقد أصبحت المدينة أيام السلوقيين - وقد كانوا بناء مدن من الصنف الممتاز - مستوطنة عسكرية، ولم يعد إنشاء المدينة بمعنى (بوليس) اليونانية. ذلك أن إنشاء المدينة كان عملاً ضخماً، يتطلب نفقات كبيرة، وتترتب عليه مسؤوليات ملكية أكبر. فالمستوطنة العسكرية كانت تكلف أكثر بسبب بناء الأسوار والأبراج، أما عدا ذلك فالامتيازات التي تحصل عليها كانت أقل مما تُمنَّحُه المدينة.

لسنا ننوي أن نتحدث عن المدن الهلينستية بأجمعها؛ ولكننا سنعدد بعضها، خاصة وأن هذه سترد أسماؤها فيما سنتناوله من أحاديث هنا وفيما بعد.

كان سلوقس (الأول) نيكاتور (حكم بين السنين 312 - 280 ق. م) المسمى المستعمر الكبير، أول من عني ببناء المدن بعد الإسكندر. وقد أنشأ أنطاكية (عاصمة إمبراطوريته السلوقية) التي غلب على سكانها، فضلاً عن اهتمامهم بالتجارة، حياة السرور والمرح، وخاصة في ضاحيتها الغناء ذُفنة. ومعروف أن هذا الملك بنى ثلاث مدن أخرى هي: سلوقية على مقربة من مصب نهر العاصي، وهي السويدية الآن، وكانت المركز الرئيسي للتجار مع الغرب؛ واللاذقية، وهي ثاني الموانئ البحرية المهمة في شمال الشاطئ الشامي وكانت تجارتها، فضلاً عن توجهها غرباً، تتجه نحو مصر؛ وأفامية (وهي اليوم خربة) التي كانت تتوسط سهل الغاب. وكانت أفامية المعسكر الرئيسي للإمبراطورية في شمال سورية. وقد كانت تربي فيها الخيول للجيش وتحفظ الفيلة فيها. وقد بنى هذا الملك (سلوقية) أخرى على نهر دجلة (على مقربة من موقع بغداد الحالية) وكانت هذه أول عاصمة له قبل أن تبدو له أهمية بلاد الشام للملكه. وهذه المدينة كانت مركزاً للتجار مع الشرق.

ومن المدن الأخرى التي بناها السلوقيون أو جددوها تجديداً يكاد يكون تاماً، وأسكنوا فيها مقدونيين ويونانيين: بعلبك (هليوبوليس) وحلب (بورية) ومنبج (هيرابوليس) وعنجر (خلقيس) ودورا - أوروبس وأمفيبوليس وأنطاكية - نصيبين وأنطاكية - إدسا (وقد غلب على الاسمين الجزء الثاني مع مرور الزمن) وإيفانية (حماة) وبيروت وأنطاكية (على بحيرة طبرية). ولما استولى السلوقيون على فلسطين جددوا نشاط المدن الساحلية من صيدا إلى غزة عبر صور وعكا ويافا وأرسوف. وقد بنيت (أو جددت) ثلاث مدن في جنوب أرض الرافدين.

إذا كان الإسكندر أمّل في أن يوحد الشعوب في البلاد التي احتلها - والبلاد واسعة والشعوب متنوعة متباينة في جميع أمورها وشؤونها؛ وإذا كان يرى أن الحضارة الهلينية (الإغريقية/ اليونانية) هي العلاج الناجع لذلك، فإن حياته كانت قصيرة حيث أنه لم يفعل أكثر من أنه ألقى بآرائه، ولعل وقته لم يتسع حتى لرسم مخطط واف لها. ومع ذلك فقد أوقد شعلة، وقد ظلت هذه ملتهبة بعض الوقت. لكن خلفاءه، وخاصة السلوقيين والبطالمة، لم يلبثوا، شأن غيرهم ممن تولى جزءاً من الإمبراطورية الواسعة، أن انصرفوا إلى تثبيت ملكهم وتوطيد نفوذهم. فأخذوا من برنامج الإسكندر آراءه المتعلقة بإنشاء المدن والمستعمرات العسكرية المزودة بالسكان من اليونان، فيكون هؤلاء عصب الدولة والحكومة، وتكون المدن مراكز تجارية على الطرق العالمية.

وما الذي جرى فيما يتعلق بنشر الحضارة الهلينية؟

بعد أن انقطع سيل اليونانيين لملء الفراغ في المدن المنشأة حديثاً، لجأ الحكام إلى السكان الأصليين ليقموا فيها، وقد ازداد العدد مع الزمن، خاصة منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الثاني قبل الميلاد. ولكن هؤلاء الوطنيين من السكان لم يعاملوا كمواطنين في المدن، بل كانوا يقيمون في

بوليتيمات (تجمعات) في أجزاء من المدينة، وقد كان لهذه التجمعات موظفون مختصون بقضاياها. لكن التمويل والشؤون الصحية والنواحي القانونية كانت في أيدي اليونانيين.

ومن هنا فلم يكن ثمة سياسية سلوقية أو بطلمية لنشر الهلينية بين السكان. والذي تم - من انتشارها، وقد كان كثيراً، قد جاء بحكم التمازج التي تم بين سكان المدن أولاً (عندما تم الخلط بينهم) ثم ما حدث من اتصال بين المدن والقصبات ومجاوريتها. أما سكان الريف فقد ظلوا، إلى درجة كبيرة، محرومين نفحات هذه الحضارة، باستثناء بعض المظاهر الاجتماعية البسيطة التي وصلت إلى قرى أكرمت بسبب رئيس أو حاكم. وهذه كانت تشمل الألعاب الرياضية والحفلات المرتبطة بها، والمشاركة في بعض الاحتفالات الدينية، حيث امتزج الأصلي باليوناني المستورد.

4) التجربة السلوقية

كان المجتمع السلوقي في مجمله يتكون من فئات متفاوتة من حيث المقام والعدد. فقد كان أعضاء البيت المال يتصدرون قائمة الشرف، وهؤلاء كانوا يتألفون من الأسرة والأقارب والحاشية القرية. وكان يتبع هؤلاء العاملون الأحرار وجماعات كبيرة من الرقيق. فالأمر لم يكن قضية أسرة مالكة فحسب، بل ملحقات هذه الأسرة.

وكان الموظفون في العاصمة وفي مراكز الولايات الإدارية يكوّنون الفئة الثانية. وكان الغالب على هؤلاء أن يملكوا ثروة طائلة. وكان ينضم إلى هؤلاء أسر ثرية جاءت ثروتها من التجارة، ولكنها خارج نطاق الحكم والإدارة. هذه الفئة: (كبار الموظفين وكبار التجار) كان أفرادها هم جماع الأرستقراطية الجديدة في الدولة؛ هي جديدة لأنها نشأت مع نشوء الدولة وتطورت مع تطور المدن والتجارة. وهؤلاء كانوا، إلا قلة، من الأجانب (اليونان).

وتلي ذلك الفئة الثالثة وهي جماعة الجند، وفي مقدمتهم الضباط الذين يقيمون في المدن المعسكرات الرئيسية مثل أنطاكية وأفامية وسلوقية (على دجلة) وغيرها من المدن وفي المستوطنات العسكرية. وكان هؤلاء يتقاضون مرتبات كبيرة، كما كانوا يتلقون الهدايا. ومن ثم فقد كانوا - أفراداً - يقتربون من الأرستقراطية الجديدة دون أن يعدّوا بين أفرادها.

أما الفئة الرابعة وهي تتكون من جماعات وصلت البلاد في فترات متلاحقة لتعمل في وظائف الدولة (من الدرجات السفلى) أو التزام

(ضمانة) الضرائب أو كي تحصل على أرض تعهد إلى الأقنان بالعمل فيها. يضاف إلى هؤلاء أصحاب المهن الحرة من أطباء ومحامين ومعلمين وفنانين وصناع مهرة وتجار صغار. وهذه لم يكن لها امتيازات إلا أنها كانت من العنصر اليوناني.

وفي مقابل هذه الفئات الأجنبية (اليونانية) كان هناك فئات وطنية موازية لها، باستثناء الأولى أي البيت المالك وأتباعه. فقد كانت هناك أسر حاكمة وأمراء لمناطق معروفة وزعماء لقبائل عديدة منتشرة في ربوع الشام. هذه كانت لها كياناتها وكان لها حضورها ووجودها.

وقد قدر عدد سكان الإمبراطورية السلوقية (قبل تقلصها) بنحو 20 إلى 25 مليون نسمة، ولاشك أن اليونان منهم كانوا قلة، لكنهم كانوا أصحاب السلطة. أما سلوقية الشامية فلم يكن سكانها يتجاوزون الملايين الخمسة.

ولم يكن ثمة ما يمنع الاختلاط بين الجماعات المقيمة في المدن والقصبات من الفريقين - الأصلي والطارئ - لكن ذلك كان يتم على المستويات ذاتها، فالأرستقراطية الجديدة (اليونانية) يكون اتصالها بأعضاء الأسر الحاكمة والأمراء وزعماء القبائل مثلاً، إلا إذا كان أحد هؤلاء يتمتع بمركز خاص فيكون اتصاله مع الفئة الأولى.

وقد كان ثمة سبيلان أو عاملان يتعامل الناس بوسطتهما وكانا سبيل التواصل الحضاري وانتشار الهلينية بين أهل البلاد، وهما: القانون اليوناني واللغة اليونانية.

القانون اليوناني كان يطبق على جميع اليونان وعلى البولتيماث (تجمعات أهل البلاد في المدن) وحتى على فئات أخرى تتعامل بشكل خاص مع اليونان. والأحكام في القانون (أو القوانين على الأصح) كانت منتزعة من تشريعات يونانية متعددة متنوعة، إذ كانت أجزاء من القوانين منتقاة من مدينة يونانية (في بلاد اليونان) فيما تكون أجزاء أخرى مأخوذة

من قوانين مدن أخرى وأنظمتها. فالقانون المتعلق بالإرث الذي كان معمولاً به في دورا - أوروبس كان أثينياً في مجمله، لكنه طعم بعناصر قانونية مأخوذة من مصادر إضافية وهناك عقود ووثائق عشر عليها في مدن نائية وضعت تبعاً لأحكام كان يعرفها الموثق، وقد يكون هناك موثق من كورنث وآخر من إيونيا!

أما فيما يتعلق باللغة فيجب أن نذكر أن اليونانية كانت لغة الدولة الرسمية، كما كانت لغة العلم والفلسفة والأدب التي جاءت البلاد من اليونان أصلاً. فتعلمها كان في مصلحة أبناء البلاد الذين ينوون الحصول على وظائف حكومية أو ما يشبه ذلك مهما كانت هذه الوظائف صغيرة. كذلك كان يحتاج إليها أولئك الذين يعتزمون مزاولة التجارة. وكانت لغة المجتمع اليوناني، فالذي يشعر أنه يمكنه أن يطل على هذا المجتمع فقد كان يحتاج إلى لغته. وكل من تعلم اليونانية كان يستطيع أن ينفذ إلى ناحية من نواحي الفكر اليوناني (الهليني).

ومن الطريف أن الرقيق الذي كان يعمل في منازل الأرستقراطية اليونانية انتهى به الأمر إلى تعلم هذه اللغة وحتى إتقانها. لكن المشكلة كانت تتعلق بأهل الريف والقرى النائية خاصة.

وعلى كل فإن توزع اليونان في المدن الكبيرة والصغيرة وتعدد الموظفين والحكام المحليين أتاح لليونانية انتشاراً في بلاد الشام أوسع منه في مصر. فالبطالة لم ينشئوا مدناً سوى الإسكندرية وبطليمائوس (في الجنوب). واليونان الذين هبطوا مصر، ولم يقيموا في المدينتين، انتشروا في أنحاء البلاد إذ أقطعوا الأراضي لاستثمارها. وبسبب إقامتهم في الريف لم يلبثوا أن اختلطوا بالسكان من المصريين وتزوج الفريقان، وتمثل القادمون الكثير من عناصر الحضارة المصرية، وخاصة فيما يتعلق بشؤون الدين، واهتموا بتعلم اللغة المصرية. وقد ورد في رسالة تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد عن

أم أنها تقول إن ابنها (اليوناني) يتعلم اللغة الوطنية لأن هذا يتيح له مجال العمل في الحكومة أو التجارة فيحسن وضعه المالي.

والذي نود أن نخلص إليه هو أن انتشار الحضارة اليونانية أي انتشار الهلينية لم يكن عاماً. لقد كانت ثمة مراكز امتازت بتقبل الآراء الجديدة لأنه أتيح لها أن تفهمها، ولكن الذي ظل معزولاً لغوياً لم تتمكن الأفكار الهلينية من الوصول إليه.

بل هناك ما هو أهم من ذلك؛ إن رجال الأدب والشعراء والمؤرخين الذين ظهوروا في بلاد الشام ومصر في العصر الهلينيستي، وهم من أبناء البلاد، كتبوا باليونانية. فقد كانت هذه لغة الفكر.

وقد كان الدور الذي قامت به الإسكندرية كبيراً، بوصفها مدينة العلم الأولى في ذلك الوقت. فالبطالة جعلوا من تلك المدينة، في المتحف والمكتبة، مركزاً للعلم. وأغدقوا عليها الأموال الجزيلة حيث كان العلماء يقصدونها للتعلم والتعليم. ويكفي أن نتذكر أن إقليدس (القرن الثالث ق. م) لم يجد مكاناً أصح من الإسكندرية ليقوم بأبحاثه حيث وضع كتابه: المبادئ (وهو الكتاب الذي ظل العمدة في تعليم الهندسة ودرسها إلى القرن التاسع عشر، وإن اختلف شكله). وفي الإسكندرية قام إراتوستينس العالم الرياضي القوريني (البرقاوي) الأصل (275 - 200 ق. م) بقياس محيط الأرض، وكان الرقم الذي توصل إليه ينقص بنحو (300) كلم عن القياس الحديث. وفي الإسكندرية عاش بطليموس قلودويوس (القرن الثاني للميلاد) الذي كان أكبر فلكي العصور القديمة. وجدول أسماء علماء الإسكندرية وأدبائها طويل، لذلك نكتفي هنا بهذا. (بعد انتشار المسيحية وقيام الخلاف بين الكنائس كان للاهوتيين المدينة دور كبير، سنعود إليه).

أما في بلاد الشام فعندنا أنتيباطر الصوري، وميلياغر الجداري الشاعر، وفيلوديموس الفيلسوف والشاعر، ونقولاوسن الدمشقي الذي وضع تاريخاً

للعالم في (144) كتاباً، وأرخيباس الأنطاكي الشاعر البلاغي المتجول، وبوزيدون الأفامي وأنطيوخوس العسقلاني، ويوسيفوس المؤرخ المقدسي. هؤلاء جميعهم كتبوا باليونانية.

لكن هناك من حمل التقليد العلمي ولكنه دَوّن باللاتينية بعد ذلك. منهم أندرونيكوس الفيلسوف، ويلوس الأنطاكي الأديب وبروبوس البيروتي النحوي.

والذي يذكره مؤرخو العصر الهلينستي هو أنه كان زمنٌ تخير وانتخاب فيما يتعلق بالفكر الفلسفي. ويرى الباحثون أن فلسفات العصر الهلينستي كان يعوزها الخلق والإبداع. ولعل من أطف ما روي أن بعض أهل الفكر في ذلك العصر الذين رجعوا إلى أفلاطون ليدرسوه لم يستطيعوا فهمه.

ولعلّه من البدهي أن يكون العصر زمن اختيار وانتخاب. فقد اجتمعت في رقعة واحدة لكنها متسعة ومقسمة تضاريساً وسطحاً ومناخاً، آثار شعوب متنوعة ذات خلفيات متباينة وتجارب قد تكون متنافرة. اخترقت هذه الرقعة يومها، كما اخترقتها فيما بعد وكما لا تزال تخترقها حتى اليوم، طرق تجتاز أقطاراً غربية عجيبة وبحاراً أعجب وأغرب، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، حتى تلتقي في هذه المنطقة. وكان لهذه المنطقة اختبارات روحية دينية موهلة في القدم بدأت بعبادات متعددة وانتهت إحداها بالوحدانية. عبد الناس فيها الملوك كما عبدوا الأصنام وسجدوا للشمس والقمر كما سجدوا للملوك الآلهة.

كانت المنطقة في العصر الهلينستي بوتقة كبيرة، فلم يكن بالإمكان أن تختلط فيها العناصر وتطبخ حيث تنتج فكراً واحداً. لكن الجو تهيأ في جزء من هذه المنطقة كي يظهر فيها السيد المسيح، كما تهيأ الجو في جزء آخر منها لظهور محمد بن عبد الله (ص).

وإذا نحن عدنا إلى المجال الفلسفي وجدنا أن المذهب الفلسفي الذي تفتقت عنه هذه الفترة هو الفلسفة الرواقية.

المدرسة الرواقية في الفلسفة يعود تنظيمها فكرياً إلى زينون، وهو فينيقي من مستعمرة كيتيون الفينيقية في قبرص. والمرجح أنه عاش بين حوالي عامي (334 و 262 ق. م). أي أنه عاصر فتوح الإسكندر ودويها الذي ملأ الأسماع، وبلغه خبر وفاته التي أثارت بين أتباعه الأطماع، وتتبع ما جرى بينهم من منافسة وخصام واقتتال واقتسام. هذه الحروب التي وصفها أرنولد توينبي أنها لم تنته بنتائج حاسمة، ولذلك فإنها أضعفت وأتلفت وأنهكت الدول والجيوش والناس عموماً. ولعل هنا يكمن السبب في أن العصر الهلينيستي لم يكن له وقت أو (حيل) أو همة للفكر النابض الجديد المتفتح، فانتهى أمره بأمور دون ما أمله منه الإسكندر وأشياعه.

والرواقية، من حيث نظرتها الفلسفية، كانت من الأصل هلينيستية. ولم يخطئ الأقدمون إذ نظروا إليها على أنها نتاج التفاعل الاجتماعي والتناقض السياسي الذي مر العالم الهلينيستي به. وقد نقل جورج ساين عن بلوتارخ ما معناه: إن الإسكندر أوجد الدولة التي اقترحها زينون.

من جهة ثانية دعت الرواقية إلى الوحدة الروحية، وهي الوحدة التي ينتفي فيها الفرق بين اليوناني وغيره من البشر. وهذه هي دعوة الإسكندر بالذات. ولذلك فإن الرواقية تبدو أنها تخطط لتحقيق آمال الشعوب في العالم الهلينيستي. هذه الآمال التي يهملها - بعد الحرية - الحصول على المساواة.

وفكرة الوحدة التي دعت الرواقية إليها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالملكية الهلينيستية. وفي هذا كانت الرواقية معاصرة للأحداث والأجواء التي نشأت فيها. ذلك بأن الفلسفة اليونانية (القديمة) كانت قد نضجت في عهد الحكومات الديمقراطية. لذلك لا نجد فيها إشارة إلى الملكية من حيث هي

نظام حكم. وأرسطو الذي كان، إلى جانب نواحي تفكيره الأخرى، مفكراً سياسياً لم يشر إلى الملكية قط. فقد كان عهدها قد انتهى قبل قرون بالنسبة إلى أثينا. أما الفلاسفة الرواقيون فقد عاشوا وعلموا وكتبوا في أيام الملكية التي كانت نظام الحكم في مقدونية وبرغاموس ودولة السلوقيين ومصر فضلاً عن مناطق شرقية بعيدة قامت على أنقاض إمبراطورية الإسكندر. لكن الأمر لم يقتصر على بحث طارئ للموضوع. بل كانت الملكية الهلنستية مدعوة للتوفيق (للتوحيد) بين اليونان والمشاركة. مثل هذا الأمر لا تقوم به إلا ملكية مطلقة التصرف. ومعنى هذا أن الملك لا يكفي أن يكون رأس الدولة فحسب؛ الملك يجب أن يكون هو الدولة نظراً وعملاً.

وكان الرواقيون يرون أن القانون الذي تدار شؤون الدولة على أساسه يجب أن يكون ذا شقين: الواحد يقوم على العرف والعادة وبعض تشريعات ذات قيمة محلية. أما الشق الآخر (أو الثاني) فيشمل القانون العام، القانون الذي تدار الدولة على أساسه، وهو قانون ملكي. وتطبيق هذا القانون يعطي الملك دوره الحقيقي في أنه رمز الوحدة والحكومة الصالحة.

وقد قبل العالم الهلنستي فكرة الملك المؤله (وهذه نقلت إلى الرومان فيما بعد). والملك المؤله أصبحت مؤسسة عالمية يومها. وهذا من شأنه تمهيد السبيل أمام الوحدة المطلوبة.

وإذا قبل القول بأن الملك الحق - كان إلهي الصفة، كان باستطاعته أن يعمم الوفاق بين الناس، على اعتبار أن الإله ينشر الوفاق في العالم.

وكل هذه الأمور كانت ترمي، في نظر المدرسة الرواقية، إلى التوصل إلى الغاية الأسمى وهي فكرة مدينة العالم، أي أن يصبح العالم بأجمعه جماعة واحدة تملأ حياتها المحبة والألفة. وعندها يترتب أن يعهد بالأشراف على العالم وإدارته لـ (دولة العالم) التي يكون فيها الآلهة والبشر مواطنين متساوين.

مرت ثلاثة قرون بين فتوح الإسكندر المشرق العربي وانتحار كليوباترة. وقد كانت هذه القرون الثلاثة فترة كانت فيها البشرية المقيمة بين اليونان ومصر غرباً وحوض السند وسمرقند شرقاً، تنبض بالحياة عامة. وقد كان لذلك كله أثر في تطور البشرية. وقد اقتصرنا في حديثنا هنا على القلب بالنسبة إلى هذه الرقعة لأننا في جزء من هذا القلب سنلقى قريباً حركة جديدة لم يسبق للتاريخ أن عثر على مثلها.

لعلّ القارئ يظن أننا تمسكنا بأقلية يونانية انتشرت في ربوع بلاد الشام ومصر وتخلينا عن بقية السكان، وهم الأكثرية، الذين شغلوا حتى الدولة السلوقية ورقعة الدولة البطلمية، فضلاً عن الأماكن التي لم يكن للهلينية فيها «قضية مباشرة» ولو أنها ما كانت لتبقى بعيدة عن ضجة تثار وأصوات ترتفع. فعلى الأقل كان هناك تجار يروون في الخانات والأسواق - وحتى في أثناء سير القافلة - أخباراً وقصصاً وروايات وأساطير وأشعاراً، يتندرون بها ويقطعون الوقت، لكنهم من حيث لا يدرون يحملون الكثير من الأفكار من مكان إلى مكان على نحو ما يحملون السلع من قطر إلى قطر ومن سوق إلى سوق.

ويظل عندنا شيء سميناه من قبل طبقات (الجيولوجية) الاجتماعية التي تنتقل عبرها الترسبات الاجتماعية لتصبح بدورها زاداً أو علاجاً أو سُمّاً للجديد. وعلى الجديد أن يعرف ما يمكث في الأرض وما يذهب جفاء.

5) الإمبراطورية الرومانية:

الوعاء المكاني والزمني للمسيحية

في القرن الثاني قبل الميلاد، وخاصة في نصفه الثاني، دب الضعف والاضطراب والفساد السياسي في الجسمين البطليمي والسلوقي. ففضلاً عن الحروب الخارجية التي خاض ملوك الفريقين غمارها مما أنهك المملكتين، كان هناك تنافس وخصومات داخلية. كان أذاها على المملكتين أشد فتكاً حتى من الحروب الخارجية، لأن هذه تنهك من الداخل وفي الداخل. وزادت المصيبة في فلسطين لأن المكابيين (الذين انتهى أمرهم إلى الأسيرة الحشمونية) دمروا وخربوا كثيراً، لا دفاعاً عن استقلالهم ضد السلوقيين، كما كانوا يدعون، بل تكالباً على السلطة الداخلية.

ولم يكن النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد خيراً من سابقه. فقد استمرت الحروب بين ورثة العرش ودعائه في مصر، وزادت شدة الحشمونيين في فلسطين. هذا فضلاً عن خصومة بين فريقين من الأسرة السلوقية، كما كان الأمر في مصر.

وكان نجم رومة يرتفع في الأفق الغربي. وقد تدخلت رومة في شؤون الدولتين اليونانيتين الأصل الشرقيتين الوجود: تدخلت رومة متبرعة مرة ومدعوة أخرى. فلما حمل أنطيوخس الرابع (175 - 164 ق. م) على مصر وكاد أن يستولي عليها تدخلت رومة وأمرته بالرجوع حفاظاً على دولة البطالمة. ولما ولي عرش السلوقيين طفل (164 ق. م) طلبت رومة من الوصي أن يدمر الأسطول السوري ويقتل الفيلة (التي كان مركزها أفامية) قام الوصي بذلك. فقد أصبحت رومة قوية وكان من الواجب أن تسمع كلمتها.

وقد عزل الإسكندريون ملكهم (163 ق. م) لكن رومة تدخلت في مصلحته، فانتهى الأمر بأن قسمت دولة البطالمة إلى قسمين بسبب النفوذ الروماني.

أما في القرن الأول فقد شجعت رومة الحروب بين أصحاب الحق في العرش البطلمي ومدعيه أو المطالبين به ثم جاء الانحياز التام، هنا وهناك، لما وصلنا إلى كليوباترة (51 - 30 ق. م). وكان أن أغرت هذه اثنين من كبار حكام رومة وسياسيها (أنطونيوس ويوليوس قيصر) وامتنع عنها الثالث (أغسطس) فانتحرت. وبذلك انتهت دولة البطالمة.

أما دولة السلوقيين فإنها، فضلاً عن الحروب الكثيرة التي أنهكتها، لجأت إلى منح المدن الكبيرة امتيازات مقابل مبالغ كبيرة من المال تدفع للملك. وفي الساحل السوري وحده كانت أرواد وصور طرابلس وعسقلان مثلاً تتمتع بامتيازات شملت التالي: 1 - الحرية في أتباع سياسة خاصة، قد تتعارض مع سياسة الدولة وحتى في بعض الشؤون الخارجية. 2 - حرية سك النقود الخاصة، ومعنى هذا استقلال مالي للمدينة. 3 - الحصانة المدنية، فقد كانت بعض المدن (والعدد تزايد مع الوقت) تُمنح حق «حصانة» تمنع الدولة من التدخل في شؤونها. وغالباً ما كان هذا كله ينتهي باستقلال المدينة، أو على الأقل إعلان ذلك. ثم يأتي دور الحرب الداخلية. فقد كانت المدن تعين وريثاً للعرش أو مدعياً بالحق بالعرش على أساس ما يمكن أن يزيد لها من الامتيازات أو من تعميق ما هو قائم.

في هذا الجو القلق المضطرب كان من البدهي أن تقدم رومة على عمل يتجاوز التدخل إلى الدخول. فكان أن يأتي بومبي إلى كيليكية وسورية وأن يحتل فلسطين ويدخل بيت المقدس (63 ق. م). ويخضع من تبقى من الحشمونيين ويزيل دولتهم ويعيدهم إلى دور الكاهن.

وانصرف بومبي سنتي (63 و 62 ق. م) إلى تنظيم المنطقة كأول قائد

روماني صاحب السلطان التام. ولعلّ الذي يهمننا مباشرة هنا (من حيث علاقته المقبلة بالمسيحية) هو أنه سمح لهركانوس الحشموني أن يبقى كاهناً وجرده من الملكية، وسمح للأنباط بأن تظل دمشق تحت نفوذهم. وأصبحت سورية، لا ولاية رومانية فحسب، بل محطة للجيش الروماني كي تتوسع شرقاً.

أما مصر فقد انتقلت إلى رومة (30 ق. م) ففي معركة أكثيوم (31 ق. م) غلب أنطونيوس وانتحر، وانتحرت كليوباترة، وأعلن أكتافيوس (أغسطس) مصر ولاية رومانية.

ومع أن مصر كان من الممكن أن تصبح محطة للقتال جنوباً وشرقاً في جنوب، فإن أغسطس جرب مرة إذ أرسل حملة ضد اليمن (24 ق. م) فأخفقت، فاكتمى بذلك. لكن مصر كانت حلقة مهمة في التجارة الرومانية (المتوسطة) مع المحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر.

■ يعود إلى أغسطس (حكم من سنة 27 ق. م إلى سنة 14 م) وضع القواعد والأسس التي قامت عليها الإمبراطورية الرومانية، عسكرياً وإدارياً وحدوداً ومالياً. وبذلك وضع حداً للفوضى التي شملت الدولة الرومانية من شرقها إلى غربها. والذي يهمننا ذكره هنا أن المسيح ولد في بيت لحم في أيام هذا الإمبراطور.

خلف أغسطس على عرش رومة ثلاث مجموعات من الأباطرة. الواحدة تشمل أباطرة الأسرة اليوليانية (نسبة إلى يوليوس قيصر ومنهم أغسطس نفسه) وهذه امتد حكمها من (14 - 69 م)؛ والثانية العائلة الفلافية (69 - 96 م). أما المجموعة الثالثة فهم المسمون: (أباطرة رومة الصالحون). وقد حكم هؤلاء من عام (96 - 180 م).

ومن المجموعة الأولى كان ثلاثة من الأباطرة معجبين بترتيبات مؤسس الإمبراطورية فساروا على خطاه باستثناء فتوح في جرمانية وفتح إنكلترا،

وذلك تثبيتاً للأمن كما ارتأى هؤلاء. وقد شذ من الباقيين كليغلا الذي كانت سياسته مزيجاً من السخف والهراء، ونيرون الذي قال عنه أبوه: «لاشك أنه يورث الدولة مصائب كثيرة». وفي زمنه احترقت رومة، وقد اتهم هو بحرقها كي يتفرج على ألسنة النيران تملأ الفضاء. ولما بحث نيرون نفسه عن مجرم سبب الحريق وقعت التهمة على المسيحيين، فأوقع هو بهم من أصناف الظلم والعسف والتنكيل والقتل والتشريد ما يصعب وصفه. وقد وصل بعض الاضطهاد حتى إلى الإسكندرية وغيرها من مدن المشرق.

وجاء دور العائلة الفلافية، ومؤسسها فسبسيان (تولى سنة 69 م) كان إيطالياً من عامة الشعب الروماني. وخلفه ابنه تيطس (69 - 81 م) وقد كان قائد الحملة على بيت المقدس لمعاينة الثوار اليهود، ولما تولى العرش استمرت الحملة، فاحتلت المدينة وهدمت أسوارها وهدم الهيكل. ووضعت في القدس حامية رومانية.

أما الأباطرة الخمسة الصالحون، فبينهم تراجان (98 - 117 م) وهديران (117 - 138 م).

في زمن تراجان احتل الرومان مدينة البتراء وأنشأ هو في منطقة الأنباط وبعض بلاد الأدوميين الولاية العربية التي أصبحت بُصرى عاصمتها. وتراجان اضطهد المسيحيين، ولكن اضطهاده لم يكن بمثل العنف الذي عرفوه أيام نيرون أو بمثل ما سيلقون فيما بعد.

وهديران قضى على ثورة قام بها اليهود بقيادة بار كوسبا، وبعد مناوشات جزئية أرسل الإمبراطور قائداً مجرباً فاستعاد منهم بيت المقدس ثم حصرهم في نواحي بتير (على مقربة من بيت المقدس) وتغلب عليهم وقتل زعيمهم عقيبة في سنة (135 م) ومنع الإمبراطور اليهود من سكنى بيت المقدس وحولها مدينة رومانية مظهراً وروحاً وتنظيماً وسماتها (إيليا كاييتولينا). وحدث اضطهاد للمسيحيين أيام هديران.

كما عرف المسيحيون اضطهاداً من آخر اثنين من الأباطرة الخمسة الصالحين، وهما أنطونيوس وأوريليوس.

بين سنتي (193 و 235 م) حكم الإمبراطورية رجال (وأولاد أحياناً) متحدرون من صلب سبتيموس سيفيروس الذي كان قائداً للجيش الروماني في الدانوب. ومع أنه كان له منافسون بين قواد الجيوش الرومانية الأخرى، فقد نجح هو في لبس الأرجوان وتوريثه لأفراد من أسرته. وفي زمن هذه الأسرة كانت هناك عناية بالجيش. وفي أيامها قضي على الدولة الفرثية⁽¹⁾ (226 م) على يد دولة فارسية جديدة هي الدولة الساسانية التي أثارت الحرب. جذعة من جديد لاستعادة ما كانت قد خسرتها الأولى للرومان. ومنح الأباطرة بعض البلدان الصغيرة والقرى الكبيرة في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية بما في ذلك مراكز في الجنوب الشرقي لبلاد الشام امتيازات. ولم يكن المقصود رفع مستوى هذه المجمعات السكنية، بقدر ما كان المقصود منه تحميلها نفقات إقامة الاحتفالات الرسمية الدينية وغيرها وترتيب المناسبات الرياضية والترفيهية. وفي سنة (212 م) منح الإمبراطور كركلاً الحقوق الرومانية لجميع السكان الأحرار في الإمبراطورية.

في أيام الغابلوس (218 - 222 م) شجع سكان الإمبراطورية على عبادة الإله الشمس، وذلك في سبيل توحيد السكان عن طريق توحيد الديانة، لكن النجاح في الغرب كان محدوداً جداً، أما في الشرق فقد كان الناس يعرفون عبادة الشمس من قبل.

بين سنتي (235 و 284 م) شهدت الإمبراطورية فترة فوضى سياسية، وتسلب الجند على شؤون الدولة وضعفاً في الحياة الاقتصادية. وكانت الفرقة الأنشط والأقوى من الجيش هي التي تختار قائدها، وتدور بين المتنافسين حروب دامية في جولات ودورات متعاقبة. وانتشرت القراصنة في أجزاء كثيرة من البحر المتوسط وغيره.

في أيام غالينوس ظهر في الأفق الشرقي في الإمبراطورية الرومانية أذينة أمير تدمر، الذي ولاه الإمبراطور منصب «دوق الشرق». ولما مات الأمير قامت زوجته زنوبيا بشؤون الدولة بعده، ثم قادت الجيوش ضد الإمبراطورية، فاحتلت بلاد الشام إلى أنطاكية وجنوب تلك البلاد ومصر. وأخيراً تغلب عليها الإمبراطور أورليان (270 - 275م) الذي هدم تدمر وقضى عليها دولة ومدينة هامة.

■ التوتر السياسي والعسكري والاقتصادي الذي شمل الإمبراطورية وشمل بعض نشاطها في القرن الثالث، عالجته ديوقلتيان (284 - 305 م) وقسطنطين (306 - 337 م) ولكن بأسلوبين مختلفين. الأول كان عسكرياً إدارياً منظماً، فوضع أسس التنظيم الإداري الجديد، الذي لا تهمنا تفاصيله، وضبط أمر الجيش في المركز والحدود، ووضع قواعد اقتصادية لضبط الأسعار والتقليل من النفقات غير النافعة. ولعل من خير ما فعله مالياً هو العودة إلى سك النقد الذهبي والفضي من جديد، فأعاد للسوق قيمتها داخلياً وخارجياً. وعمل قسطنطين على إتمام ما شرع به سلفه من محاولة لحياء نشاط الإمبراطورية الاقتصادية وتنشيط الحياة الاجتماعية.

ومن وجهة النظر التي نعى بها هنا فهناك خلاف رئيسي بين الاثنين فديوقلتيان اضطهد المسيحيين اضطهاداً قاسياً، أما قسطنطين فقد اعتنق المسيحية واعتبرها واحداً من أديان الإمبراطورية الرسمية (313 م) لكنه، على ما يبدو عاد في سنة (324 م) فاعتبرها ذات مكانة خاصة فاستوحى تعاليمها وآراءها في الكثير من التشريعات والأنظمة. لكن المسيحية لم تصبح دين الدولة الرسمي إلا سنة (380 م). لكن الشيء الواضح هو أنه أراد أن تكون المسيحية (والكنيسة بطبيعة الحال) تحت حمايته بشكل من الأشكال، على ما سنوضح ذلك فيما بعد.

وبنى قسطنطين مدينة جديدة هي القسطنطينية، مسيحية الطابع

والصورة حيث كانت تقوم بيزنطية، واتخذها عاصمة له. ولعلّ هذا هو نقطة الابتداء في تقسم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية.

لكن هذا تم سنة (395 م) إذ قسم ثيودوسيوس (379 - 395 م) الإمبراطورية بين ابنه فحكم هنوريوس الغرب من رومة، واستمر حكم أباطرة الغرب إلى (476 م) حين قضى البرابرة على الإمبراطورية الرومانية (الغربية) رسمياً.

أما في الشرق فقد تولى أركاديوس الحكم (395 - 408 م) وتبعه ملوك كثيرون على عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي يغلب عليها تسميتها بالإمبراطورية البيزنطية، ومن حيث علاقتنا المباشرة بها تعيننا الآن إلى نهاية حكم هرقل (610 - 641 م). لكن الإمبراطورية البيزنطية ظلت قائمة، مع صعاب متنوعة، حتى سنة (1453 م) حيث قضى عليها الأتراك العثمانيون.

ولنمر، في سبيل وضع أسماء الأباطرة الذين سيكون لهم نصيب في بحثنا، بشيء من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية السياسي. فمنهم يوليان، المعروف بالجاحد، لأنه بعد أن أصبح من المألوف أن يكون أباطرة بيزنطية مسيحيين، فقد أثر هذا أن يعود إلى الوثنية وأن يضطهد المسيحيين. قد حكم سنتين (361 - 363 م). ومنهم تيودوسيوس الذي قسم الإمبراطورية سنة (395 م) وهي تعتبر حداً فاصلاً في التطور السياسي: أولاً لأنها وضعت نهاية لهذه الميوعة السياسية التي كانت تعرض قسماً الإمبراطورية للحروب والمنازعات؛ وثانياً لأنها يسرت للدولة الشرقية أن تتفرغ لمقارعة الساسانيين جيرانها الشرقيين الجدد (226 - 641 م).

ومن الأباطرة زنون (474 - 491 م) وأثناسيوس (491 - 518 م) ويوستينوس الأول (518 - 527 م). والاثنان الأخيران كانا قويين مدركين معنى الحكم وأهميته وقيمه المدنية التي كانت العناية بها من واجبات الإمبراطور. فضلاً عن أن أثناسيوس أصلح النظام المالي بعض الشيء وخفف

الضرائب التي كانت تثقل كاهل المكلف. وقد يسر هذان الملكان ليوستينيان (527 - 565 م) أوضاعاً ملائمة للحكم الجيد فكان هناك ملك منظم وجيش معد إعداداً جيداً ومال مدّخر.

ومن الأمور التي افتخر بها يوستينيان ومحازبوه القدامى والمحدثون هو استعادته شمال إفريقية وجزءاً من إيطاليا (بقطع النظر عن التفاصيل) إلى حظيرة الإمبراطورية. أما نحن فنرى أن هذه الأعمال كانت شراً على الدولة. فقد استنزفت من مالها الكثير، فأفقرتها. وأنهكتها الحروب فلم تستطع أن تحافظ على الحدود الشرقية على النحو الصحيح. هذا مع العلم أن الرجل زين العاصمة بمبان جميلة لعل أفخمها كنيسة أبا صوفيا (القديسة صوفيا).

وبدت على الإمبراطورية البيزنطية، فيما تبقى من القرن السادس والسابع، أمارات الضعف والعجز بسبب الاضطراب المالي. ومع الاضطرابات الداخلية تمكن الساسانيون من الدولة حتى في أيام هرقل (610 - 641 م) وهو من أقدر من تولى الحكم لكنه جاء في الزمن الخطأ. قاتل خصوم الإمبراطورية في جهات مختلفة وعلى جبهات متعددة. لكن خصومته مع الساسانيين كانت الأشد. فتمكن هؤلاء من الاستيلاء على بلاد الشام ومصر. صحيح أن هرقل عاد فتغلب عليهم واستعاد الأرض المفقودة. لكنه لم يستطع أن يقاوم الجيوش العربية الإسلامية لما تقدمت في بلاد الشام بعد اليرموك (636 م) واتجهت بعدها نحو مصر فسقطت الإسكندرية بأيديها (641 م).

ولم يقف الساسانيون في مواجهة الجيوش نفسها. فاحتلت فارس، بعد أرض الرافدين، وقضت على الدولة في معركة نهاوند سنة (641 م). في سنة واحدة مات هرقل، وخسرت دولته بلاد الشام ومصر، وقضي على فارس!

6) المجتمع الذي تلقى المسيحية

■ ونحن نمنع النظر في خريطة المنطقة في القرن الأول قبل الميلاد، محاولين تقري التوزع العنصري، إذا صح التعبير أو جاز، فإننا نجد، على نحو ما مر بنا، أن العنصر السامي - الجزري (العربي) الأصل هو العنصر السائد في المنطقة. ولكن مع تبدل الأجواء الطبيعية على بعض هذه الجماعات، فقد تبدلت بعض الخصائص.

وعلى كل فإن مناطق محددة معينة كان يسيطر عليها العرب عنصراً أو لغة. وأولها بطبيعة الحال الجزيرة بأكملها، ولو أن بعض الفروق اللغوية بين الجنوب والشمال كانت بارزة. أما خارج الجزيرة فقد كان للعرب وجود قوي المعالم واضح الأثر في الأجزاء التالية.

كانت إديسا وما حولها في المنطقة المسماة أوزروني (أورهاي) تحت نفوذ عربي منذ القرن الثاني قبل الميلاد. وحري بالذكر أن هذه الإمارة ظلت قائمة حتى القرن الثالث بعد الميلاد. ويجدر بنا أن نتذكر أن هذه الجماعة كانت الأهم بين الجماعات التي وطدت نفوذها وسلطانها في أرض الرافدين عبر نهر الفرات. فضلاً عن ذلك فقد كانت واحداً من أكبر مراكز الثقافة الآرامية في المنطقة، وقد كان تأثيرها بالهلينية ضعيفاً.

ومثل ذلك يقال عن سلطة انتشرت إلى الجنوب من جبال طوروس في منطقة أنطاكية. هذه الجماعة العربية كان لها أمير يدعى عزيز. وقد لعب هذا دوراً مهماً في أيام السلوقيين الأخيرة.

وقد وردت أخبار موثوقة عن أمارات وزعامات عربية صغيرة إلى الشرق من إمارة عذير المذكورة.

وهل يمكن أن ننسى عرب تدمر والدور الذي مثله حتى قبل أيام الرومان. (وسنعود إلى تدمر والتدميرين فيما بعد).

وقد قامت في حوض العاصي في حمص وأرتوزا (الرستن) جماعة عربية كبيرة. هذه كانت حليفة الأمير عذير، الذي كانت جماعته تقوم إلى الشمال منها.

هذه الجماعات الخمس كانت ذات نفوذ كبير، وأربع منها كانت تسيطر على القسم الأكبر مما كان دولة السلوقيين السورية.

فضلاً عن هذه فقد كانت ثمة إمارات فيما كان من قبل جزءاً من دولة البطالمة إلى أن ضمه السلوقيون إلى دولتهم. ومن هذه الجماعات.

الإيطوريون الذين عُرفوا حتى قبل أيام الإسكندر، إذ كانوا حكام لبنان وأنتيلبنان (أي لبنان الداخلي). وقد توسعوا فيما بعد إلى البطنية وهوران.

وهل من الممكن أن ينسى واحدنا الأنباط وما كان لهم في البتراء ومدائن صالح وسواهما، (وسنعود إلى الأنباط فيما يلي).⁽²⁾

كان للأدوميين دولة في جنوب فلسطين إلى الغرب من البحر الميت، إذ أن الأنباط ضغطوا عليهم فأجلوهم عن أرضهم غرباً. وكان ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد.

وثمة العرب الذين كانوا قد أوجدوا لهم كيانات في الأرض الواقعة بين البحر الأحمر والنيل (وفي أيام البطالمة سميت المنطقة العربية) ثم في الفيوم عبر نهر النيل، وأخيراً في أرض طيبة.

فقد أقام العرب لهم وجوداً في مصر في أزمنة قديمة، ولا يقل وجودهم

في أرض الرافدين عن ذلك قدماً وأهمية. أما أرض الرافدين فقد غلب عليها العنصر العربي في الفترة التي تعيننا.

ولنعد إلى الأنباط والتدمريين بسبب الأهمية التي تعود إليهم. ففي القرن الثالث قبل الميلاد كان الأنباط «يعيشون في أرض غير ذات زرع؛ فالمنطقة جافة قاحلة، والماء قليل. ومن عاداتهم أن لا يزرعوا الحبوب ولا أن يغرّسوا الشجر ولا أن يبنوا بيوتاً... يقوم بعضهم بتربية الإبل ويعنى آخرون بالأغنام. ومع أن المنطقة تقطنها قبائل عربية غيرهم، فإن الأنباط يفوقونهم ثراءً، في حين أن عددهم لا يتجاوز عشرة آلاف (نسمة؟). فجماعة منهم ينقلون البخور وأنواعاً من التوابل والأفاوية - يأخذونها من الذين يحملونها من أقطار نائية ويقومون ببيعها في الموانئ البحرية».

أما في القرن الأول قبل الميلاد ومطلع القرن الأول بعده، فقد كتب عنهم إسترابون الجغرافي اليوناني (نقلاً عن صديقه أرثودوروس الذي كان قد قضى سنوات في البتراء) ما يأتي:

«عندما يترك المرء ولاية سورية فإن أول شعب يقابله، في المنطقة الواقعة إلى جنوبها، هم الأنباط. وقد جاء عليهم وقت كانوا فيه سادة دمشق وما والاها من سورية. ومدينتهم الكبرى هي البتراء (التي) تقع في منبسط من الأرض، لكنها محاطة من جميع جهاتها بالصخور الوعرة التي تنحدر نحو الخارج انحداراً شديداً. أما الجزء المنبسط (في الوسط) ففيه عيون وينابيع كثيرة. كما أن أهلها جاءوا بالماء من ينابيع مجاورة...».

ولسنا ننوي التحدث عن صناعة الأنباط وتجارتهم ونظام حكمهم، ولكننا نود أن نشير فقط إلى أن هذه المدينة العربية النائية، كما يبدو للناس، كانت قد امتصت كثيراً من مدنية الجوار اليونانية (والرومانية إلى درجة أقل فيما بعد) فكانت مدينة هلينستية في فيافي البادية الأردنية. وكان سكان البتراء، فضلاً عن أهلها العرب أصلاً، يشملون فئات تتكلم الآرامية واليونانية واللاتينية والعبرية.

وتدمر بلغت ذروة المجد في القرنين الثاني والثالث للميلاد، لكن الأصل في تقدم المدينة يعود إلى كونها محطة مهمة على طريق تجاري. وقد بدأت تجارة تدمر والتدمريين العرب تلفت الانتباه في الألف الأول قبل الميلاد (إن لم يكن ذلك في أواخر الألف الثاني ق. م) لكنها بدءاً من حوالي (300 ق. م) أصبحت جزءاً من إمبراطورية السلوقيين، وكان للسلوقيين مدينتان كبيرتان سلوقية على دجلة (عاصمة الإمبراطورية الأولى وظلت العاصمة الشرقية) وأنطاكية العاصمة الثانية والأساسية. وكانت تجارة الخليج العربي تتقوى تدريجاً. فأفادت تدمر وسكانها من هذه الأمور، ولمع اسمها وزادت ثروتها فبنت وقويت وسيطرت على الطرق والتجارة.

وفي مكان يبعد نحو (110) كلم عن الموصل جنوباً في غزب نشاهد آثار مدينة الحضر. وهي مدينة شيدت أبنيتها بالحجر المهندم وزخرفت بالتماثيل وغيرها. قامت الحضر في منطقة «بادية لا تتوافر فيها المياه الجارية ولا الزروع الوافرة. وشأنها في هذا شأن تدمر والبتراء وغيرهما من المدن الصحراوية التي نمت وازدهرت في ظرف خاص ملائم لوجودها في أماكن منعزلة...» وكانت الحضر عاصمة لمملكة عربية كانت حدودها دجلة غرباً والفرات شرقاً، وجبال سنجار شمالاً ومشارف المدائن جنوباً. إلا أن نفوذها امتد في الشمال إلى ما وراء سنجار فوصل إلى الخابور ونصيبين. وقد كانت هذه الدولة تتمتع بالاستقلال الذاتي في إطار دولة الفرثيين (البرثيين). وقد حكمت هذه الدولة بين سنتي (251 ق. م. و 226 م).

وهذه الدولة العربية التي تمحورت حول الحضر، مثل بقية الإمارات العربية والمشيكات والقبائل التي أشرنا إليها، لعلها تعود جميعها إلى واحدة من الموجات العربية التي خرجت من الجزيرة وانتشرت في بادية العراق الشمالية وامتدت شمالاً إلى نصيبين وديار بكر وإلى منطقة إديسا (الرها) وإلى سهل أنطاكية. وقد كان انتشار العنصر العربي وسيطرته قوية حتى أن

المنطقة أصبحت تعرف باسم عَرَبَايا في نقش بهستون وفي الكتابات والنقوش الآرامية والكلاسيكية فيما بعد.

وبسبب هذه الدفقة البشرية إلى تلك الجهات وسواها (في بلاد الشام) قامت هذه الإمارات التي أشرنا إليها.

هذه الخريطة التقريبية للتوزيع السكاني ومراكز التهلُّين في مصر وبلاد الشام، تقتضي، كي يتم توضيحها أن نتحدث قليلاً عن اللغات التي كانت شائعة في منطقتنا. ذلك بأن بعض أوجه الخلاف الذي ظهر في المسيحية فيما بعد كان مبعثه اللغة التي استعملت لتفسير الآراء اللاهوتية المسيحية على ما سيمر بنا.

ولعلنا لا نعدو جادة الصواب عندما نقرر أن الجزيرة كانت عربية اللغة حتى قبل المسيح. ذلك بأن هذه اللغة التي نظم بها الشعر العربي الرائع الذي ورثناه عن العصر الجاهلي، واللغة التي أوحى بها القرآن الكريم، لم تكن بنت فترة قصيرة في تطورها ونموها. فاللغة العربية هذه كانت لغة مرنها الناس وحذقها المتكلمون وطوّرها الخطباء وهذّب الشعراء حواشيها عبر زمن طويل. فاللغة العربية كانت اللغة الغالبة على الجزيرة وعلى المناطق التي سكنها العرب في أرض الرافدين وبلاد الشام ومناطق مصر في تلك الأزمنة السابقة للميلاد.

ومع أننا عثرنا على نقوش كثيرة في جنوب الجزيرة وعلى عدد أقل في جهات أخرى (حتى الآن) فإننا لم نقع بعد على ما يكفي للدلالة على مدى انتشار الكتابة. ولعلّ الأيام تكشف عن ذلك. عندما تمتد أعمال التنقيب الأثري إلى جهات لم يصل إليها رفش أو معول بعد.

ونحن لا نشك في أن العربية ظلت لغة الأسر الحاكمة والجماعات المحيطة بها في الجهات التي أنشأت لها فيها دولة وسلطان، لكن اللغة التي كانت قد انتشرت في أرض الرافدين وبلاد الشام، بدءاً من القرن الرابع

عشر قبل الميلاد وعلى مدى الزمن، هي اللغة الآرامية. وهي لغة سامية من الأسرة نفسها التي تنتمي لها اللغة العبرية. هذه اللغة أصبحت، في أزمنة متلاحقة، وبسبب تطور في الخط والكتابة يَسْتَرَا لها الانتشار، اللغة الرسمية في المنطقة بأسرها، بقطع النظر عن الدولة الحاكمة، كما حدث في أيام الكلدانيين والفرس القدامى. قد تجذرت مع الوقت حتى أصبحت لغة القوم في مجالات الحياة المختلفة. وقد وضع أدب كثير باللغة الآرامية لأنها كانت لغة التعبير الشعبي وغير الشعبي. حتى الجماعة اليهودية التي كانت تعيش في القدس وما حولها كانت تستعمل الآرامية في حياتها العادية.

أما اللغة العبرية فقد تقلص ظلها كثيراً في تلك الفترة، ومع أن بعض أسفار العهد القديم كتب ولاشك بالعبرية، فإن الآرامية وصلت، بين يهود جزيرة الفيلة في مصر، إلى الأدب الديني.

وقد مر بنا عن اللغة اليونانية من حيث أنها لغة الحكم والقانون والعلم والأدب، وأن أبناء البلاد كتبوا أدبهم بها ما يكفي، فلسنا بحاجة إلى التكرار.

بقي أن تنتقل إلى مصر لنرى ما الذي تم فيما يتعلق باللغة في الفترة السابقة للميلاد. أما فيما يتعلق باليونانية فالأمر لا يختلف عما كان عليه في بلاد الإمبراطورية السلوقية. بل هناك خبر حري بالإشارة إليه: وُجد أنه من المناسب، كي يستطيع يهود الإسكندرية (وغيرهم) من قراءة العهد القديم من الكتاب المقدس، أن يترجم هذا إلى اليونانية. وهذا ما حدث فعلاً.

أما اللغة التي كان المصريون يستعملونها ويكتبونها إلى ذلك الوقت فهي اللغة المصرية القديمة التي تطورت الكلمات والتركيبات اللغوية فيها كثيراً منذ أيام الفراعين، لكن التطور الأكبر هو الذي أصاب الكتابة.

فالكتابة الهيروغليفية القديمة، المبنية على الصور، كانت صعبة، ومن ثم فإن عدد الذين كانوا يتعاملون معها كان محدوداً. ولعلّ القائمين على أمرها

من الكهنة وأهل البلاط كانوا يرغبون في الحفاظ على هذه الصعوبة لأنها تسمح لهم بحكر ميادين المعرفة، مهما كان نوعها. وقد أصبحت هذه الكتابة، مع الزمن، كتابة مقدسة.

ومع أن الدور الثاني، إذا جاز التعبير، في تطور الكتابة المصرية هو الدور الهيراطيقي، كان أقل تعقيداً من الكتابة القديمة (الهيروغليفية) فقد استعمله الكهنة في تدوين الوثائق الرسمية والملكية، وانحصر استعماله، فيما بعد، في كتابة الصلوات والطقوس الدينية.

وقد اتضح، مع مرور الزمن، أن كلاً من نظامي الكتابة المذكورين صعب ومعقد، حيث أصبح من العسير على الرجل العادي أن يطابق بين التلفظ بالحروف والنطق بها. ثم جاء دور الكتابة الديموطيقية، وهي أقل صعوبة مما سبق.

ولما جاء اليونان إلى البلاد، وأخذت لغتهم تحظى بعناية مثقفي مصر، أصبح من الطبيعي أن تُطوّر الكتابة حيث يمكنها أن تفي بالحاجات الجديدة. وهنا اتضح أن الكتابة الديموطيقية، مع تخطيها الدور التصويري من الكتابة القديمة، ما تزال صعبة، فجرب الكتاب اللغة اليونانية (كتابة) ولكن تبين أن الألفباء اليونانية لا تكفي لكتابة النصوص المصرية. لذلك ضم الكتاب سبعة حروف من الكتابة الديموطيقية إلى الألفباء اليونانية لحل هذه المشكلة. ومن ثم فإنه يمكن القول بأن اللغة القبطية هي الدور الأخير من تطور الكتابة المصرية (أي الديموطيقية) حيث يمكن استعمالها إما لكتابة جديدة أو لنسخ كتابة قديمة.

ومع أن من الصعب تعيين الزمن الذي تم فيه هذا التغيير، فإنه من المفيد أن نتذكر أن أول وثيقة مصرية يعرف عنها أن نسخت باليونانية هذه قد كتبت قبل الميلاد بنحو قرن ونصف القرن. وأن التطور استمر بعد ذلك.

وهنا موضع للملاحظة مهمة. إن اللغة الآرامية التي انتشرت في الأصقاع

التي أشرنا إليها، هي، لما تنصرت، أصبحت تسمى السريانية (مع بعض خلاقات لغوية لا تمس الجوهر). ومن هنا نلاحظ الإشارة إلى السريانية كلغة تتعلق بالمسيحية، ويشار إليها، في كثير من الكتب الأجنبية على أنها (أي السريانية) هي اللغة التي استعملت في المناطق والجهات التي تغلب عليها الثقافة الآرامية مثلاً.

الفصل الثاني

المسيحية إلى حوالي عام (300) للميلاد

(1) فلسطين وبيت المقدس

عرفنا، مما مر بنا، أن الهليّة كانت أصلاً عمل تّمدّين. فقد قبس الناس في المدن، أساليب المعيشة اليونانية، وأصبحت اللغة اليونانية لغة أهل الثقافة. وقد وصلت هذه الأمور حتى إلى المدن التي كانت موجودة أصلاً أي المدن القديمة مثل مدن فينيقية وفلسطين بما في ذلك القدس.

وكانت القدس تعيش نشاطاً فكرياً قوامه ما يخص الدين اليهودي. فإن الاستقرار الذي عرفته فلسطين أيام البطالمة (في القرن الثالث قبل الميلاد) كان له أثر من حيث تأكيد أهمية التوراة على أنها المصدر الأصلي لجميع النواحي الشرعية والطقسية بالنسبة إلى اليهود. والتوراة المقصودة هي التي صيغت بشكلها النهائي (أو شبه النهائي) في أثناء الحكم الفارسي للبلاد. ومن هنا أصبح أي تبديل في مضمونها شراً لا يجوز السماح به. وقد تقوى بسبب ذلك مركز الكاهن الأعظم وخاصة لجهة الوراثة فيه. وبسبب ارتفاع أهمية المنصب، أصبح موضع منافسة قوية بين الطامعين في النفوذ بالنسبة إلى الجماعة الدينية اليهودية في بيت المقدس.

وكان من مظاهر النشاط الفكري (الديني) في المدينة المقدسة أن تؤوي عدداً من المدارس الحكيمية. وإذا كان بإمكان اليهود الاتصال بمن بقي منهم في بابل، ومن رحل إلى مصر ومن وجد في سورية، أخذت حركتهم تنشط بسبب هذا الاتصال، فضلاً عن أن اليهود كانوا يزورون القدس للحج والتبرك.

وقد كان من الممكن الإفادة من هذا الجو بأن يقوى ليتقبل العناصر الهلينية الأصلية، خصوصاً أن كثيرين من سكان القدس، ومن اليهود

بالذات، كانوا مستعدين لقبول هذه العناصر الحضارية الجديدة. فأهل الطبقة العليا في المدينة (وفي سواها) كانوا دائمي الاتصال بكبار الموظفين وأثرياء التجار الذين كانوا يمثلون المصالح البطلمية الرسمية والمالية.

لكن الإدارة السلوقية كانت لها نظرة مختلفة. إذ أن سلوقس الرابع (187 - 175 ق. م). اختصم مع الكاهن الأعظم حول فرض ضرائب جديدة. ولما تولى الحكم أنطيوخس الرابع (175 - 164 ق. م) اشتدت الخصومة مع الملك الكاهن الأعظم (منلاوس). وبدأت أصوات التذمر من مطالب أنطيوخس المالية الكثيرة تتصاعد، لا في بيت المقدس وحدها، ولكن حتى في عدد من مدن فينيقية الغنية.

وأرسل الملك أحد قواده إلى القدس لتهدئة الاضطراب فيها فاحتل المدينة، وعاقب المؤيدين للنقمة، وهدم الأسوار وبنى القلعة، ووضع فيها جنوداً للدفاع عن مصالح الدولة. أصبحت القدس مستعمرة عسكرية، وفيها كل مظاهر الهيمنة. ثم أقيم فيها هيكل لزفس الأولمبي.

وقامت ثورة المكابيين ضد الحكم السلوقي (167 ق. م). وقد كان الثوار بطاشين سفاكين للدماء، وكان العقاب الرسمي شديداً. لكن الذي ذاق الأمرين هو الشعب، ولم يكن كله يهودياً، فقد أتت المعارك المتعددة الضارية على الحرث والضرع. وزادت الصعوبات لما اشتد التنافس بين أفراد الأسرة الحشمونية (المكابية) ثم لما ثار الفريسيون على المكابيين بسبب تطرف هؤلاء، وأيد الفريسيين في حركتهم سكان المنطقة بقطع النظر عن العنصر أو الجهة أو الدين.

وظل هذا التقتيل والتدمير مستمراً حتى وصل بومبي الروماني في سنة (63 ق. م).

كان في القدس وفي أرباضها ثلاث جماعات أو فرق يهودية، هي التي تمخضت عنها الأحداث والفلسفات والتفسيرات الدينية وهي:

الصدوقيون والفريسيون والغلاة (أو الغيارى) وقد يسمون القانونيين أيضاً (والقانوني هي الكلمة الآرامية التي تعني المغالي والغيور).

الصدوقيون: كان هؤلاء يمثلون الشريحة الأعلى من الجماعة الدينية اليهودية، وكانوا يزون أنفسهم النخبة المختارة، ويمثلون حزب الأثرياء ومناصري الكاهن الأعظم والأسر النافذة في القدس والمنطقة المجاورة. ومنهم كان يختار الكاهن الأعظم.

كانوا نبلاء في الواقع، إذا كان ثمة نبلاء، وكانوا محافظين ومن ثم شديدي الحرص على الشريعة، كما كانوا خصوماً لكل تجديد مهما كان اتجاهه. وكانوا خصوماً أشداء لبعض من كان يدعي أن بعض نواحي التجديد هو نتيجة تفسير جديد للتوراة.

كان الصدوقيون أصحاب النفوذ السياسي والديني بين سنتي (134 و104 ق. م). واستمروا في ذلك فيما بعد حتى حول (65 م). ومن ثم فقد تزعموا الجماعة الدينية في بيت المقدس وأرباضها. ومع أنهم كانوا فرقة قوية، فإنه لم يكن لهم تنظيم سياسي معين يتناسب مع عملهم أو دورهم في السياسة وحتى القيادة. ولذلك نلاحظ أنهم قد كانوا ذابوا أو أوشكوا على ذلك في السنوات القريية من أيام المسيح.

الفريسيون: كان هؤلاء في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد فرقة أو جماعة لا يتجاوز عددها ستة آلاف نسمة. وكلمة فريسي مشتقة من كلمة بارش الآرامية التي تعني الشخص الذي يعتزل الآخرين، مما قد يدل على أن هذه الفرقة كانت جماعة دينية تحافظ على التقوى وتحرص على تطبيق أحكام الشريعة المتعلقة بالطعام والطهارة الطقسية بشكل خاص. وقد كانت الصفة الغالبة عليهم العلمانية لا الكهنوتية الرتبية المتزمتة. وكانوا أقوى وأبعد نفوذاً في المدن والبلدان منهم في الريف. بل إنهم كثيراً ما كانوا يعتبرون أنفسهم فئة خاصة تترفع عن أهل الريف والفلاحين.

ويرى بعض الباحثين أن الصدوقيين والفريسيين كانوا يشكلون حزبين سياسيين يطمح كل منهما في الحصول على السلطة والنفوذ. لكن يبدو أن أياً منهما لم يقم نظاماً يمكنه من الوصول إلى ما يريد، فأخذ نفسه بتأييد صاحب السلطة القوي الذي يعجبه. فالصدوقيون والفريسيون أيدوا ملوكاً مختلفين من الأسرة المكاية.

الغلاة أو الغيارى (أو القانونيون): كان هؤلاء أقل عدداً حتى من الفريسيين، ودامت حركتهم مدة أقصر. ويبدو أنهم كانوا من الجماعات التي تظهر عند أزمة معينة أو أحداث خاصة، ولكنها تذوب عند زوال الحاجة. وقد شغل هؤلاء بالاغتيال وما إليه دفاعاً عن الشريعة.

وقد أظهرت «مخطوطات البحر الميت» التي اكتشفت أول ما اكتشفت سنة (1947 م) واستمر الكشف عن مثيلاتها ودراستها حتى يومنا هذا، وجود جماعة سميت الأسينيين. هذه المخطوطات عثر عليها في قمران وبار كوسبا ومسادة (مسعدة) وغيرها في جهات البحر الميت. وأحسب أن تسميتها (مكتبة قمران) أمر فيه الكثير من الدقة.

ونحن لا نريد أن نتحدث هنا عن الأدب الديني والقانوني الذي أظهرته هذه المخطوطات، فذلك أمر لا يهمنا هنا. لكن مادماً قد أشرنا إلى الصدوقيين والفريسيين والغلاة الذين ظهروا في القدس وجوارها بسبب اتصالهم، ولو من بعيد، بظهور المسيحية، فإننا نرى أن نتحدث هنا عن الإسينيين إذ أن بعض آرائهم قد يكون له علاقة بالموضوع نفسه.

والأدب الذي عثر عليه في مكتبة قمران هذه يحتوي على قوانين هي التي كانت وجهات نظر هذه الجماعة؛ وفيه نصوص شعرية ابتهاالية وحكمية؛ وفيه تعليقات وهي تفسيرات لأسفار متعددة من العهد القديم؛ ثم هناك أشياء متفرقة كثيرة لعل تسميتها (المتنوعات) لا تؤذيها ولا تسيء إلى أحد.

وهذا الأدب، على ما يبدو، وضعه الإسينيون أنفسهم. والإسينيون اعتزلوا عالم الناس وأقاموا في شبه عزلة في منطقة تصاقب البحر الميت للجهة الشرقية. ويبدو أن هذه الجماعة أرادت أن تهتدي إلى (سبيل الكمال).

فهي، من الناحية الواحدة، تعتبر نفسها حامية للشرعية (الأصلية) ولذلك كانت تتشدد في قبول الأعضاء الجدد. وكانت ترى نفسها أنها (الجماعة القدسية) (أي الجماعة بالغة الكمال). وكان الكهنة فيها يتصدرون الجماعة (في المرتبة الأولى) وهؤلاء الكهنة متحدرون من آل صدوق. فهم كانوا فرقة دينية بالمعنى الصحيح. وبقطع النظر عن تقاليدهم ونظمهم، فإن السؤال الأساسي هو لماذا خرجت هذه الفئة إلى هذه المنطقة الصحراوية وعاشت بعيدة عن المجتمع؟

يبدو من إشارات في أجزاء من المخطوطات التي عثر عليها أن الجماعة أصابها يأس بسبب التصرفات السياسية الخاطئة التي ارتكبها المكابيون - زعماء الثورة ضد الفساد السلوقي. ولذلك كان خروجها احتجاجاً على أولئك الذين تصدروا للإصلاح فوقعوا في الشر.

فكان الأمر في رأي الجماعة، أن الشر قد عم وأن أنواع الظلم والتنكر للمبادئ انتصرت، وأن الناس ابتعدوا عن طريق الله الحق. وعادت إلى الجو فكرة المسيّا (المسيح) المخلص المنتظر. وجاء المعلم البارّ، الذي وعظ الناس بأن العالم قد اقتربت نهايته، وأنه يجب على الناس اعتزال العصابة الشريرة، وإعداد أنفسهم لليوم الأخير والقيام بعبادة الله عبادة صالحة منتظرين النهاية بقلوب مؤمنة.

انسحب الإسينيون إلى صحراء القدس - البحر الميت، وأقاموا هناك من حوالي سنة (150 ق. م) إلى حوالي سنة (66 م). وفي هذه الفترة دونوا هذه المكتبة الكبيرة التي لم نر نهايتها بعد.

يبدو أن الحركة الإسيانية لم تكن ذات صلة بالأحداث السياسية والعسكرية التي قامت في البلاد والتي لم يوافق الإسيانيون عليها، بل بالتطورات الفكرية الحضارية التي كانت آخذة برقاب البلاد يومها.

فقد كانت حركة التَّهْلُيْن، كما رأينا، قد قويت جذورها في ذلك الوقت، وفي القدس بالذات. كانت ثمة مقاومة لها، ثم عنفت المقاومة ولجأت إلى السلاح. والحركة الإسيانية كانت، في الأصل، نوعاً من المقاومة للحركة الهلينية. لكن أفرادها لم يكونوا إلى جانب العنف واستعمال السلاح للمقاومة. ولما أخفقت في نقل أفكارها وآرائها إلى الباقيين تاركة الحرب والعنف جانباً، خرجت محتجة معزلة. وفي عزلتها دونت ما يمكن أن يعتبر المقاومة السلمية الفكرية للهلينية.

في الصفحات السابقة رسمنا الإطار الجغرافي للمنطقة التي انتشرت فيها المسيحية في الفترة السابقة للإسلام، وحرصنا على تقصي، وبشكل مقتضب بطبيعة الحال، مَنْ عبرها ومن دخلها من الشعوب والأمم ومن أقام فيها من شعوب، والطريقة التي تعاملت هذه المنطقة، والآثار التي خلفتها، في اللغة وغيرها.

ولما شعرنا بأننا نقرب من زمن ظهور المسيحية، رأينا أن نولي العصر الهلينستي شيئاً من العناية تفوق ما أوليناه لغيره. وذلك لأسباب كثيرة: أولها أن وصول اليونان، مقدونيين وغيرهم، إلى المنطقة كان بأعداد كبيرة؛ وثانيها أن هذه الجماعات، باستثناء أعداد صغيرة، استقرت في البلاد وأصبحت جزءاً من السكان؛ وثالث هذه الأسباب هو أن الإسكندر، وهو الأصل في كل ما حدث، كانت له آراء تتعلق بنشر مدينة بلاده، وكان يرى فيها العلاج لجميع شرور البشرية، في البلاد التي فتحها وقد قبل بعض خلفائه على الأقل ببعض رأيه، ومن هنا كان إنشاء عدد من المدن اليونانية

الصبغة، الهلينية الحضارة لتكون مراكز نشر لهذه المدينة الجديدة. وقد فعلت الكثير في سبيل ذلك.

ومن هذه الأسباب أن العصر الهلينيستي كانت له مشاركة في الفكر السياسي وبعض الفلسفة السياسية الأمر الذي أخذناه بعين الاعتبار. ورأينا أن نغير اللغة والعنصر في بعض أجزاء من المنطقة اهتماماً خاصاً. وأخيراً تحدثنا عن القدس بشكل خاص وعن فلسطين بشكل أعم عشية ظهور المسيحية في تلك البلاد.

وهذه جميعها، فيما نرى، أمور ضرورية لفهم التطور الذي نحن مقبلون عليه. فالمسيحية لم تنشأ في فراغ، ولم تنتشر في فراغ. وإلا لما كانت ظهرت ولا تفرقت الآراء حول تفسيراتها اللاهوتية.

(2) العهد الجديد - كتاب المسيحية

الكتاب المقدس يقسم إلى قسمين: الأول العهد القديم والثاني العهد الجديد. والعهد القديم فيه أسفار تسمى تاريخية، وهي قد كتبت وحررت وأعيدت كتابتها غير مرة في سبيل إثبات أن الله عقد عهداً مع إسرائيل - أي العبرانيين - أي اليهود (لامع الدولة المعتدية الآن) حيث اختير هذا الشعب من قبل الله ليكون الشعب المختار. ولا نبالغ كثيراً عندما نقول إن هذه الناحية (التاريخية) هي في واقع الأمر (تزوير) على الله والناس.

أما العهد الجديد، الذي هو كتاب المسيحية بجميع نواحيها، فيتألف من أربعة أناجيل هي التي كتبها كل من متى ومرقس ولوقا ويوحنا. ولا نود الدخول هنا في تفاصيل تتعلق بأزمة وضع هذه الأناجيل، بل نكتفي بالقول بأن الثلاثة الأولى وضعت بين سنتي (65 و 90 م) وإن الإنجيل الرابع وضع بين سنتي (110 - 125 م).

فضلاً عن الأناجيل الأربعة فإن العهد الجديد يضم «أعمال الرسل» الذي دون في القرن الأول على الغالب، ففيه الأخبار عن الرسل الأوائل كما يحتوي على نصوص بعض الرسائل التي وجهت إلى المؤمنين في أماكن مختلفة.

ويلي ذلك في العهد الجديد مجموعة من الرسائل، أكثرها للرسول بولس، وبعضها لبطرس الرسول ثم هناك مجموعة من رسائل بعث بها رسل مختلفون إلى المؤمنين في نواح مختلفة من الإمبراطورية. وأخيراً فهناك يوحنا (اللاهوتي).

وقد تناول المعلمون الأوائل للمسيحية هذه الكتب، لما وصلتهم،

للحديث عن المسيحية. لكن الشعور بوجوب إنشاء مجموعة جديدة من الأسفار المقدسة تمثل الحياة الروحية الجديدة لم يبدأ إلا حول سنة (150 م). ولكن لما بدا الشعور بالحاجة إلى مثل هذه المجموعة لم يحتج القوم زمناً طويلاً للتأكد من تنفيذ المشروع. إذ أنه عند نهاية القرن الثاني كان الأمر قد وضع موضع التنفيذ، فيما يتعلق بالأنجيل الأربعة. لكن الشيء الذي احتاج إلى مدة طويلة هو الموافقة الرسمية - بقطع النظر عن الجهة أو الجهات التي يجب أن توافق - على القبول بالعهد الجديد (قانوناً) أي (قاعدة) للتاريخ المسيحي والعمل المسيحي والرأي المسيحي. ويبدو أن هذا لم يتم إلا في القرن الرابع، ولعل آخر القرن أقرب إلى الواقع التاريخي من أوله.

وكل أسفار العهد الجديد، من غير أن يستثنى واحد منها، كتب باليونانية. حتى عندما نمر بتعابير تبدو لنا آرامية (أو سريانية) فقد يكون هذا من أثر ترجمتها فيما بعد عن اليونانية.

(وهناك أكثر من خمسة آلاف كتاب خط بهذه اللغة. أقدمها كتب على أوراق البردي، وكتب سائرهما على الرق. وليس لدينا من البردي سوى أجزاء من العهد الجديد بعضها صغير. وأقدم الكتب الخط التي تحتوي معظم العهد الجديد أو نصه الكامل، كتابان مقدسان على الرق يعودان إلى القرن الرابع، وأجلهما (المجلد الفاتيكاني) سمي بذلك لأنه محفوظ في مكتبة الفاتيكان. وهذا المخطوط مجهول المصدر، وقد أصيب بأضرار لسوء الحظ، ولكنه يحوي العهد الجديد، ما عدا بعض الرسائل. والعهد الجديد كامل في الكتاب الخط الذي يقال له المجلد السينائي، لأنه عثر عليه في دير القديسة كاترينا... والمجلد السينائي محفوظ اليوم في المكتبة البريطانية «مكتبة المتحف البريطاني سابقاً» في لندن).

وقد جاء المسيح برسالة تلخص بأن ملكوت الله هو للبشر أجمعين وليس لشعب واحد خاص مختار. وإن هذا الملكوت تتم هبته للبشر بإرادة

الله. والحصول عليه يتم بالتوبة: الولادة الثانية - والتنازل عن متاع الدنيا. والوصول إلى هذا الملكوت هو أمر روحي داخلي ينمو في نفس المؤمن، ولا يتم بالانضمام إلى مملكة على هذه الأرض (كما كان اليهود يقولون بأن المسيا - المَشيح - المنتظر سيقم دولة على الأرض مواطنوها هم أفراد الشعب اليهودي).

والذي نعرفه من الكتب المقدسة المذكورة والمعروفة باسم العهد الجديد هو أن المسيح ولد في بيت لحم وذلك سنة (4 ق. م). وسبب هذا الذي يبدو خطأ يعود إلى الذي وضع أسس التأريخ من ميلاد المسيح وهو ديونيسيوس أكسيغوشس من أهل القرن السادس الميلادي (حوالي سنة 500 إلى سنة 560 م). قد كان عالماً رياضياً كبيراً ولاهوتياً مرموقاً، لكن ديونيسيوس لما حسب تاريخ ولادة المسيح ربط ذلك بالتاريخ التقليدي لإنشاء مدينة رومة وهو (753 ق. م). لكنه أخطأ في حسابه بهذه السنوات الأربع.

وقد جهد كثيرون من الكتاب والمؤرخين في سبيل التدليل على العناصر اليهودية في المسيحية. وليس من سبيل لإنكار الصلة بين الدينين. فقد قبلت المسيحية بعض الآراء اليهودية شكلاً. ولكن المهم، في النهاية، هو أن المسيحية كانت ثورة روحية على تقيد المجتمع اليهودي. فالمسيحية اهتمت بالطهارة القلبية والإيمان بالروح أكثر من الاهتمام بالطقوس. وقد أشار المسيح إلى ذلك مرات كثيرة في تعاليمه. والمسيحية اعتبرت الناس جميعاً سواء، بينما اقتصرَت اليهودية على (شعب مختار من الله). واهتمت اليهودية بالهيكل، بينما دعا المسيح إلى تنقية القلب وتطهيره حيث يصبح مكاناً لائقاً لأن يعبد الله فيه في كل مكان وزمان.

والذي عليه الباحثون هو أنه كان للمسيحية اتجاهان بعد انتشارها الأول المحدود في القدس والجوار. فقد كان هناك ما يسميه المؤرخون: المسيحية

اليهودية والمسيحية الهلينية. فقد كان المسيحيون، خاصة في بيت المقدس، يعدون فرقة يهودية جديدة. وكان المسيحيون هؤلاء يتبعون بعض الطقوس اليهودية ويؤمنون بأن المسيح المخلص هو المسيا (المسيح) المنتظر. وكانوا فعلاً يتوقعون المجيء الثاني للمسيح. ولأن اليهود لم يقبلوا المسيح على أنه المسيا (المسيح) فقد كانوا يعدون هؤلاء المسيحيين خوارج على الدين اليهودي، لذلك اضطهدوهم واعتدوا عليهم. لكن ذلك لم يفت في عضدهم. وهذه الجماعة المسيحية هي التي نظمت نفسها نسبياً في بيت المقدس ومنها خرج الكثيرون من الرسل والمبشرين الأوائل.

أما المسيحية الهلينية فقد بدأت في القدس أيضاً، لكن سرعان ما ظهرت خصائصها في أنطاكية (وفي هذه المدينة سمي المسيحيون بهذا الاسم للمرة الأولى). وأبرز ما في خصائص هؤلاء المسيحيين، إنهم لم يروا أنفسهم طائفة يهودية أو فئة يهودية. هذه المسيحية هي التي اعتبرت نفسها ديانة جامعة عامة. وقد تخلت عن الطقوس اليهودية من أول الأمر. ويعتبر بولس الرسول أكبر منظر لها.

والذي يجب أن يذكر أصلاً هو أن النوعين - المقدسي والأنطاكي - كانا متفقين حول الأصول وهي قبول المسيح الذي ولد من مريم العذراء و الصلب وقبر وقام من بين الأموات. واعترف الجميع بالروح القدس وقبلوا بالعماد وقبول العشاء السري المقدس (الذي تمثله الشركة) وهي تناول الخبز والخمر باعتبارهما ممثلين لجسد المسيح ودمه، وذلك في أثناء القداس الإلهي.

من المؤلف أن يشار إلى القرن الأول الميلادي، من حيث انتشار المسيحية، بأنه عصر الرسل، ذلك أن رسل المسيح أو تلاميذه كان لهم دور كبير مباشر في نشر المسيحية. وفي هذا الدور كانت بيت المقدس المركز الأول للمسيحية، هذا مع العلم بأن بلاد الجليل، شمالي فلسطين، كانت الأماكن الأولى التي انتشر فيها رسل المسيح وحيث قضى المسيح

أكثر أيامه بعد بدء دعوته. لكن ظلت الجماعة المنظمة في القدس هي الأهم. وهذه الجماعة لقيت كثيراً من العذاب والاضطهاد على أيدي اليهود الذين عُدُّوا المسيحيين الأوائِل خوارج على اليهودية فأذوهم. لكن ذلك لم يثبط عزيمة المؤمنين؛ فكان قادة هذه الجماعة أول من بشر بالمسيحية خارج القدس أولاً ثم خارج فلسطين. ومع ما كانت تلقاه من اضطهاد وضرر وأذى فإن الجماعة المسيحية في بيت المقدس كانت تنمو بسرعة، وكان أتباعها يزدادون دوماً. وقد وقع أول اضطهاد على هذه الجماعة المسيحية بعد صلب المسيح بوضع سنوات (34 م؟) وكان اسطفان أول شهيد للمسيحية، إذ رجم حتى فقد الحياة ثم أُلقي به من أسوار المدينة. وهذا الاضطهاد أدى إلى خروج جماعة من المؤمنين إلى فحل (بلا) ومنها نشروا المسيحية في أواسط شرق الأردن. وفي الوقت نفسه كانت المسيحية تنتشر في ربوع فلسطين في جوار القدس وفي أواسط البلاد وفي جنوبها. ولعل تلحوم (كفر ناحوم) على بحيرة طبرية كانت مركزاً من مراكز التبشير في شمال فلسطين. أما الساحل الفلسطيني فقد قام بالتبشير الأول فيه بطرس.

ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى كانت أنطاكية قد أصبحت أحد المراكز الرئيسية للكنيسة المسيحية. ومن المرجح أن بطرس هو الذي أسس الكنيسة في هذه المدينة المهمة التي كانت العاصمة الإدارية لبلاد الشام وكانت موطناً من مواطن الحضارة اليونانية والتَّهْلُيُّن والهَلَيْنَّة، فضلاً عن أنها كانت أكبر مدينة في المنطقة (إذ بلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة أو يزيد) كما كانت ثرية بسبب تجارتها واسعة النطاق.

وفي هذا الوقت عرفت دمشق المسيحية ومنها انتقلت إلى بلاد العرب القرية، ولعل الذي قصده مؤرخ المسيحية من بلاد العرب هنا حوران.

ومن أكبر الرسل أثراً في توجيه الجماعات المسيحية وبيان خصائص الدين الجديد هو بولس الذي تشغل آثاره جزءاً كبيراً من سفر (أعمال

الرسول) والذي يرجع إليه فضل كبير في تقوية كنيسة أنطاكية وإنشاء كنيسة أفسس ورومة.

وبولس، واسمه الأصلي شاول، مولود في طرسوس. كان يهودياً في معتقده رومانياً في هويته، واسع الاطلاع على الدين اليهودي والقانون الروماني بشكل خاص، عارفاً بالعبرية واليونانية واللاتينية (ولعله كان يعرف الأرمنية أيضاً). أرسل بولس إلى بيت المقدس ليتفقه في شريعة اليهود. وهناك تعرف إلى أول جماعة من المسيحيين. وبحكم تربيته ونزعاته ونشأته كان في مقدم من اضطهد المسيحيين الأوائل في المدينة المقدسة. واعتزم شاول على اضطهاد المسيحيين أنى كانوا. ومن أجل ذلك انتقل إلى دمشق ليقوم بواجبه هناك. لكن قبل أن يصل دمشق مر به اختبار روحي فتغيرت وجهة نظره. فقد روي أنه رأى المسيح نفسه يدعو إلى التخلي عن مناوآته. ومهما كانت قيمة هذا الاختبار فالمهم أن بولس آمن بالمسيح، وحمل على عاتقه عبء التبشير بالمسيحية وانتهت حياته بالاستشهاد في رومة (68 م).

وتنقل بولس، كما أصبح اسمه، بين الجماعات اليونانية والرومانية وغيرها المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية وخاصة في آسية الصغرى واليونان ومقدونية. وقد صرف وقتاً طويلاً في كورنت وأفسس وسلانيك وكتب عدداً كبيراً من الرسائل الهامة.

لكن عمل بولس الأول كان في دمشق وحوران. ثم انتقل إلى جهات أخرى. ولعل بولس بدأ عمله في شمال الإمبراطورية الرومانية الشرقي باعتباره رسولاً لكنيسة أنطاكية، لكنه لم يلبث أن استقل في عمله. على أنه كان طوال حياته يرى أن انضمام الكنائس المسيحية بعضها لبعض أمر واجب على زعمائها وعلمائها. وكان يرى أنها جميعها يجب أن تتبع كنيسة القدس، أم الكنائس.

على أن بولس لم يكن الرسول الوحيد. فهناك برنابا الذي خرج من أنطاكية إلى قبرص. ولعل توما خرج من أنطاكية إلى إديسّا (الرها) وبشر فيها بالمسيحية. ومن أنطاكية خرج بطرس الرسول وأبوبولس الإسكندري.

ومن كبار المبشرين بالمسيحية في عصر الرسل مرقس، الذي وضع إنجيل مرقس. هذا هو الذي أدخل المسيحية في مصر. وبحسب التقليد القبطي كان أول بطريرك لكرسي الإسكندرية.

ومرقس أصل أسرته من برقة (سيرانكا) وقد انتقل والداه اليهوديان إلى القدس حيث ولد هو بعيد مولد المسيح. وقد قبل المسيحية عن يد أحد أقاربه، وتعرف إلى بطرس وبولس. ثم اتصل بالمسيح الذي أصبح يعنى به. وبعد صعود المسيح إلى السماء كانت الجماعة المسيحية تجتمع في بيته. وفي هذا البيت هبط الروح القدس على المؤمنين في يوم العنصرة (موعداها بعد أحد الفصح بخمسين يوماً) فتكلم الموجودون بألسنة مختلفة. والتقليد المسيحي يعتبر هذا الحادث هو بدء تجمع المسيحيين أو نشوء المجتمع المسيحي الأول.

كان مرقس فصيحاً في اللغة اليونانية، وبها كتب إنجيله، وكان يتقن اللاتينية فضلاً عن معرفته الأصلية باللغة العبرية. وقد زار رومة بصحبة بطرس الرسول، ويرى بعض المؤرخين أنه كان يقوم بالترجمة لبطرس (إلى اللاتينية). وزار قبرص وبرقة موطن أسرته. ثم حمل معه إنجيله واتجه إلى الإسكندرية حيث بشر بالمسيحية، فأصبحت الإسكندرية، أيامه وبعده، منارة كبرى للمسيحية. وقد استشهد مرقس في سنة (68 م).

وإذا نحن ألقينا نظرة عامة على خريطة المشرق العربي في عهد الرومان، حوالي سنة (100 م) وجدنا أن المسيحية كانت قد ثبتت أقدامها في فلسطين والساحل الشامي من جهات غزة (لا غزة نفسها) إلى صور وصيدا

وأنطاكية (تجوزاً فهي ليست على الساحل) وفي إديسّا. وفضلاً عن ذلك في يثنيا وبنطس وكريت وقبرص وعشرات من المدن. إلى ذلك فقد كانت مصر بدأت تتقبل المسيحية خارج الإسكندرية.

(3) المسيحيون الأوائل

كانت نتيجة النشاط الذي تميز به مبشرو الدور الأول، زمن الرسل، ثروة لا يستهان بها من الوثائق المتمثلة بالرسائل وغيرها، ومع ذلك تظل معرفتنا عن انتشار المسيحية فيها كثير من الفجوات. أما الدور الثاني فوثائقه أقل، ومن ثم فإن معرفتنا به أنقص. لكن الشيء الذي اتفق عليه الباحثون هو أن المسيحية استمرت انتشارها، ولو أن الجماعات هنا وهناك لم تكن دوماً كبيرة ولا كانت درجة الانتشار واحدة.

وقد كانت فلسطين بطيئة في قبول المسيحية، ولاشك أن ذلك كان يعود إلى المقاومة اليهودية، التي كانت تستطيع أن تستغل السلطة الرومانية عند الحاجة. وحرى بالذكر أن بعض اليهود كانوا ما يزالون يعدون المسيحيين يهوداً ضلوا السبيل، ولذلك فمن الضروري الضغط عليهم كي يعودوا إلى سواء السبيل. والذي أظهر للجميع أن المسيحية دين جديد بالمرّة هو تدمير الهيكل في القدس على يد تيطس (70 م). فقد أظهر اليهود الثور وعظائم الأمور لأنه معبدهم. أما المسيحيون فلم يهتموا لذلك، لا في بيت المقدس ولا في فلسطين ولا خارجها، لأنهم ليسوا معنيين بالأمر.

أما خارج فلسطين فقد كان هناك كنائس منتظمة نامية. منها صور التي كان فيها كنيسة كبيرة للساحل الفينيقي. وكانت كنيسة أنطاكية تتجه، في هذا الدور، نحو الشرق. ولعلّ هذا هو سبب اهتمام المبشرين باللغة الآرامية (التي ستسمى السريانية بعد الآن) التي كانت لغة كنيسة إديسا، إذ أن هذه المدينة، على ما مر بنا، كانت من مراكز الثقافة الآرامية. وقد انتشرت فيها

المسيحية، بسبب المبشرين الذين خرجوا من أنطاكية في آسية الصغرى وأرمينية. ولعلّ من أهم الأحداث المتعلقة بانتشار المسيحية في الشرق السرعة التي قبل بها الأرمن ومجاوروهم المسيحية وأقبلوا على تفهم تعاليمها واتجاهاتها.

وأصبحت الكنيسة القبطية/ الإسكندرية منطلقاً للتبشير بالمسيحية في برقة وجوارها وفي اتجاه الجنوب، في النوبة.

وبعد هذه النظرة الخاطفة على انتشار المسيحية في القرنين الأول والثاني يجدر بنا أن نتوقف لتتوقف إلى بعض الصفات التي تميزت بها الكنيسة المسيحية في تلك الأزمنة.

وأول ما يلفت في الأمر هو أن المسيحية انتشرت في المدن لا في الريف. فقد تركزت حيث كانت حضارة أصيلة أو طارئة مثل الهلينية أو الرومانية. ويتضح أن المسيحية كانت لغتها - على العموم - السريانية في المشرق من شرق سورية شرقاً؛ واليونانية في المناطق التي تأثرت بالتطور الهلنستي، أما في إيطاليا وإسبانية وإفريقية (قرطاجة خاصة) وبلاد الغال فقد استعملت اللاتينية سبيلاً لتوضيحها. ولنذكر أن التبشير بالمسيحية كان عمل أفراد لا عمل جماعات. حتى الرسل الذين كانوا «يخرجون» من كنيسة كبرى ولو رسمياً، كان عملهم فردياً في ميادين التبشير. والمسيحية، في العهد الجديد مثلاً، لا نظام لها ولا ترتيب للإدارة. ومع ذلك فقد انتظم المسيحيون من أول الأمر، وزاد هذا الانتظام في الدور (القرن) الثاني. والأساس كان التقسيم الإداري من جهة ونشاط المدينة ومركزها السياسي من جهة أخرى. فكنائس صور وبعبك ونابلس مثلاً كانت محلية، فيما المدن التي كانت عواصم للولايات الكبيرة فقد كانت فيها مراكز ذات نفوذ في الولاية بأجمعها. ومن هنا فإننا نجد أن رومة والقسطنطينية (فيما بعد) والإسكندرية وأنطاكية كان لكل منها بطريرك. وقد أعيد ترتيب هذه

البطريكيات حيث قُدمت القسطنطينية على الإسكندرية. (أما بيت المقدس فلم ترفع إلى درجة البطريكية إلا سنة (451 م).

ومع الوقت استعارت الكنيسة حتى تفاصيل الإدارة الرومانية لتسيير أمورها وتنظيمها. فالأسقف، وهو الأعلى دون البطريك، تولى ترؤس القداس الإلهي وما يتبعه وأشرف على التعليم الديني والقيام بالمعمودية والمحافظة على النظام. وعهد إلى الشماس والمساعدين الآخرين بتوزيع الواجبات الأخرى الأقل أهمية.

وليس في الوثائق التاريخية التي وصلت إلينا من القرن الأول الميلادي عن الإمبراطورية الرومانية، ما يمكن أن يستشف منه الموقف الرسمي من المسيحية. ونعود إلى القول بأن الاضطهاد الذي لقيه المسيحيون في عهد الرسل كان من اليهود (في فلسطين).

كان المسيحيون قليلي الاختلاط بالجماعات الأخرى، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم في أماكن نائية. فأدى ذلك إلى شيوع آراء كثيرة مغرضة عنهم: مثل إتيانهم الموبقات في اجتماعاتهم، وأكل اللحوم البشرية في طقوسهم الدينية، والتأمر على سلامة الدولة. ومن هنا كانوا يعدون، أمام بعض المسؤولين، كأنهم أعضاء في «جمعية غير مشروعة». من الناحية الثانية كان المسيحيون ينظرون إلى الآلهة القديمة نظرة صغار، وإلى عبادها نظرة احتقار، وكان هذا يغضب خصومهم فيسعون للنيل منهم وإيذائهم.

لكن القضية تعقدت رسمياً لما رفض المسيحيون تقديم القرابين للإمبراطور وعبادته، فقد جاء وقت كانت هذه العبادة هي العبادة الرسمية للإمبراطورية. والذي يرفض تقديم القرابين يعد ثائراً على الدولة ومن ثم يحق عليه العقاب.

وقد كان الرد على الموقف المسيحي يتخذ واحداً من ثلاثة أساليب: الأول هو الثورات التي كانت تقوم ضد المسيحيين غير من الثائرين على

آلهتهم - بما في ذلك الإمبراطور - ودفاعاً عنها. والثاني هو نشر كتب كان المقصود منها الرد على دعاوى المسيحيين. وبعضها كان لا يعدو التسفيه (وسنعود إلى نماذج من هذه الكتب فيما بعد). أما الأسلوب الثالث فهو الذي لجأ إليه الأباطرة رسمياً: الاضطهاد والعقاب القاسي لمن يرفض العبادة الرسمية.

وأول المضطهدين الرسميين هو نيرون (54 - 68 م) الذي أراد أن يجد من ينتقم منه لإحراق رومة فدل على المسيحيين فاذاهم وبشع فيهم. لذلك فنيرون فذ في ذلك. والأباطرة الآخرون الذين كانت لهم أياد حمراء وسوداء في اضطهاد المسيحيين هم دومتيان (81 - 96 م) وتراجان (98 - 117 م) وهديان (117 - 138 م) وأنطونيوس (138 - 161 م) وأوريليوس (161 - 180 م).

والمسيحية في الشرق لم تعرف اضطهاداً رسمياً إلا في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني وذلك على يد بعض الولاة. وهذه الاضطهادات الرسمية لم يكن مخططاً لها لا من حيث ترتيب الزمان ولا من حيث توزيع المكان؛ كانت تظهر فجأة وقد تنتهي فجأة أيضاً. ومن البلاد الشرقية كانت حصّة أرمينية أكبر من حصّة غيرها. وعلى كل فالباحثون في الموضوع يرون إن عدد الذين قتلوا في هذه الاضطهادات لم يكن كبيراً (الأمر يختلف فيما سيأتي). ومن الأسماء اللامعة التي وقع عليها سيف القصاص في هذه الفترة أغناطيوس (115 م) كان هذا أسقف أنطاكية ثم صار أسقف رومة؛ والشهيد يوستين (165 م) وهو مشرقي أصله من نابلس لكنه قتل في رومة؛ وبوليكارب (165 م) الذي استشهد في إزمير.

ومع ذلك فلا بد من التساؤل عن هذه الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون من حيث أصولها وطبيعتها. وفي سبيل الإجابة عن هذا التساؤل لابد لنا من تقرير أمور وردت من قبل لكن إجمالها الآن يصيح أمراً ضرورياً.

كانت الخصومة للكنيسة تتجلى في أمور ثلاثة هي اليهودية والهلينستية والدولة الرومانية. لم يكن الأمر محض خصومة، ولكنه كان في الواقع يدور حول خنق هذه الحركة في مهدها وتدمير الوسائل لذلك. وقد كان أشد الناس عداوة للمسيحيين اليهود. وقد اتضح هذا بشكل لا يقبل الشك في سنة (70 م) وهي السنة التي هدم فيها تيطس الهيكل. فقد نظر اليهود إلى المسيحيين على أنهم قبلوا شخصاً مزوراً على أنه المسيا (المسيح) والذي، مع أنه إنسان (بشر) سوي ادعى أنه مساو للآب السماوي. وقد أراد أن يعطي الدليل على ذلك فقد تنطع إلى حد أنه عفا عن الخطاة وأباح لأتباعه تخطي الشريعة وأحكامها. وقد قيل عن المسيح في (الكُتُس) أنه قضى على (العهد) الذي كان قائماً بين يهوه والشعب العبري.

وقد كانت مقاومة الجماعات الهلينستية ذات انتشار واسع أيضاً، لكنها كانت تختلف في طبيعتها عن المقاومة اليهودية. فقد اتخذ هجوم الأميين (أي الجماعات غير اليهودية كما كانت تسمى يومها) على المسيحية سبيلين، وعلى مستويين مختلفين: إن الطبقات الدنيا كانت تخشى المسيحيين وتبغضهم على أنهم أقلية مثيرة للإزعاج ولا يمكن فهمها؛ أما الطبقات العليا فقد كانت تحتقرهم لأنهم كانوا، في رأيها، ضيقي العقل ومتعصبين. إن سكان المدن في الولايات الرومانية الشرقية كانت تألف التعددية في العبادات والديانات المحاطة بالأسرار. وقد كان لبعض هذه الفرق والجماعات أماكن خاصة بها للعبادة، التي لم يكن للغرباء الحق في دخولها، لكن حتى أولئك الذين اعتبروا الإلهة مثراً أو إلهة الأم الكبرى في فريجيا على أنها هي الحارسة لأتباعها، كانوا يزورون مثل هذه الهياكل أيام الاحتفالات الدينية الكبرى.

أما المسيحيون فلم يكونوا مثل المتعبدین الآخرين. لم يكونوا من عنصر يختلف عن الآخرين لكنهم كانوا يتجنبون الآخرين مع أنهم يعودون في أصولهم إلى جميع الطبقات والشعوب. لقد رفض المسيحيون أن يقدموا

القرابين للآلهة وامتنعوا عن حضور حفلات المجالدة وسواها من المناسبات العامة، دينية كانت أم حتى رياضية. وقد ترتب على هذا كله أن تطرق الشك إلى نفوس عامة الناس فظنوا بهم الظنون على نحو ما مر بنا.

فكان الواقع هو أنه عندما تصيب المجتمع كارثة مهما كان نوعها - هزة أرضية أو حريقاً أو مرضاً وافداً - كان ذلك يعتبر انتقاماً من الآلهة الذين لم ترق لهم معاصي المسيحيين. ولذلك فقد كان «زعران» المدينة جاهزين دوماً للاعتداء عليهم، وجرحهم إلى المحاكم طالبين القضاء عليهم. وفي مقابل تصرف العامة كان هناك تغاض من المثقفين ومن لف لفهم مواز للتصرف المذكور. فقد كان متعلمو الرومان ومثقفوهم الذين تعرفوا إلى الأدب الكلاسيكي والذين سحرهم الشعر والبلاغة، والذين تنوروا بما قرؤوه من كتب الفلاسفة الكبار - كان هؤلاء ينظرون إلى المسيحيين على أنهم جهلة غارقون في أعمال السحر، وكانوا إلى ذلك يعبدون رجلاً من الجليل كان مغموراً، وقد صلب بأمر من الحكومة الإمبراطورية. والطبقات العليا، خشيت المسيحيين واقتنعت بوجوب عقابهم لا لأنهم لم يكونوا يعبدون الآلهة فحسب بل لأنهم تحدوا سلطة الدولة العليا ونشروا آراء قد تؤدي إلى انهيار النظام السياسي والاجتماعي للدولة. وقد كان الخصم الثالث للمسيحية الدولة الرومانية نفسها، وقد كانت تملك وحدها الآلية اللازمة للقضاء على الدين الجديد. إن الدولة الرومانية كانت تنظر إلى العبادات والأديان المختلفة التي يعتنقها سكانها نظرة تسامح، بدليل المواقف المألوفة التي كان الحكم يقفها من الجماعات المختلفة. حتى اليهود منحوا امتيازات خاصة إذ سمح لهم باتباع تقاليدهم وتجنب مراعاة ما قد يصطدم مع عقيدتهم. لكن المسيحية لم تكن على لائحة الأديان المتسامح معها. ومن هنا فقط كان موقف الأباطرة، في مناسبات كثيرة، موقف من يريد أن يمحوها من الوجود.

من هنا جاءت هذه الاضطهادات الرسمية التي رعاها الأباطرة. بادئ الأمر كانت عرضية دون أن تكون منتظمة؛ لكنها مع الزمن انتظم ترتيبها

واتسع مداها. وقد كان أكبر عدد من الشهداء هو الذي نتج عن اضطهاد ديوقليان (284 - 305 م) والذين شاركوه في الحكم.

وقد مر بنا أن أول اضطهاد كان في أيام نيرون (57 - 68 م). وكان من شهدائه الرسولان بطرس وبولس مع فريق من أتباعهما.

ولم يوضع في أيام خلفاء نيرون أي تشريع خاص يتعلق بمعاملة المسيحيين. كان كل مسيحي معرضاً للإلقاء القبض عليه ونفيه أو إعدامه ومصادرة أملاكه باعتباره من أتباع دين غير شرعي. لذلك كان الاضطهاد شديداً وعنيفاً في أيام دومتيان (81 - 96 م) كان أخف في عهد كومودوس (180 - 192 م). بل إن هناك من الأباطرة من كان يرعى المسيحيين أي يتركهم دون عقاب مثل إسكندر سفيروس (222 - 235 م) وفيلبوس العربي (من جبل العرب) الذي حكم (244 - 249 م).

وقد حفظ لنا التاريخ مراسلات حول الموضوع بين بليني الابن الذي كان حاكم بيثينيا في آسية الصغرى (111 - 113 م) وتراجان الإمبراطور (98 - 117 م). فقد رأى الحاكم أن المنطقة فيها كثير من المسيحيين وأن استمرار اضطهادهم قد ينتهي بنقص في عدد السكان. فاستفتى الإمبراطور الذي كان جوابه يدور حول النقاط التالية: (1) لا يبحث عن المسيحيين في منازلهم أو مخابثتهم. (2) إذا وصلوا إلى المحكمة وأعلنوا مسيحيتهم يعاقبون. (3) إذا تابوا - حتى ولو توبة عادية واتبعوها بقبول آلهتنا يعفى عنهم. (4) لا تقبل شهادة أو أخبار من شخص مجهول الهوية ضد المسيحيين.

لكن النظرة العامة كانت أن المسيحية، كنيسة وشعباً، مؤسسة سرية تعمل ضد السلطة. وحتى الإمبراطور الفيلسوف، مرقس أوريليوس (161 - 180 م) كان يرى المسيحيين جماعة خطيرة وأنهم متعصبون في سلوكهم إلى درجة كبيرة.

وكان ديسيوس (249 - 251 م) أول من ألح على الجميع - جميع

السكان - بوجوب عبادة الإله الإمبراطور. وقد حكم على الذين رفضوا ذلك بالموت أو النفي. وقد سار البعض، مثل غالوس (251 - 253 م) وفالريان (253 - 259 م) وأورليان (270 - 275 م) على طريقته. وقد بلغ الاضطهاد أقصاه وأشدّه أيام ديوقلتيان (284 - 305 م) على ما نعرفه.

فقد نظم هذا الإمبراطور حملته تنظيمًا جيدًا (وقد كان هو منظماً). فأصدر قراره في آذار/ مارس (303 م) بوجوب تدمير جميع الكنائس وطرده جميع المسيحيين من وظائف الدولة جميعها فأصبحوا لا كيان لهم ولا حماية من الدولة ولا حق في الاستئناف، بل قد يحقّ عليهم العذاب والتمثيل والقتل بقطع النظر عن مكانتهم في المجتمع أو دورهم في الإدارة. ويبدو أن الإمبراطور كان ينوي تجريد المسيحيين من كنائسهم والاستيلاء على كتبهم المقدسة كي يتلفها. ولعله لم يقصد بادئ الأمر أن يكون الاضطهاد عاماً - لكن لما بدأت أعمال الاضطهاد، لم يكن سبيل لوقفها. وقد كان الذين قتلوا في استشهاد ديوقلتيان كثيرين، كما أن أماكن العبادة المسيحية التي هدمت متعددة.⁽³⁾

ومع كل هذا الذي ثم على أيدي خصومها، من يهود وهلينستين وأباطرة رومان، فقد كانت المسيحية تنتشر، وقد نجحت في سيرها نجاحاً كبيراً. ويرى الباحثون أن الذي ساعد على هذا النجاح هو أن المجتمع الذي كانت الإمبراطورية تحتضنه - شرقاً وغرباً - قد كان شارف على الضياع الروحي فقد سادته التشاؤم وخسرت الأديان القديمة قيمتها الروحية بسبب تنوعها وانتهازيتها. والفلسفات القديمة قد كانت توقفت عن التوليد الجديد. وفي القرن الثالث أصاب الإمبراطورية أزمة اقتصادية مالية اجتماعية خانقة. وجاءت المسيحية برأي جديد رفيع، وإيمان عميق سماوي، وأمل ورجاء في الحياة حاضرها وقادمها. مع هذا العهد الجديد جاءت الدعوة إلى الولادة الثانية التي جعلت من الناس المتعبين قوماً أقوياء أشداء - روحياً واجتماعياً.

4) طلائع المفكرين المسيحيين

نود أن نذكر القراء الآن بأمور ثلاثة: أولها أن المسيحية نشأت ضمن إطار متباين النزعات فلسفياً وأديباً ودينياً. وثانيها أن الجماعات التي انتشرت المسيحية بينها كانت مختلفة الأرومة واللغة. فالسريانية كانت لغة المشاركة واليونانية لغة الجماعة التي كانت تقطن غرب سورية وما والاها غرباً وشمالاً في غرب. وللغة أثر كبير في توضيح الأفكار أو تعقيدها بالنسبة إلى أبنائها والغرباء عنها. ومن هنا كان من الطبيعي أن تختلف جماعتان حول تفسير معنى من المعاني الواردة في الأناجيل أو في بقية أسفار العهد الجديد عندما ينقل المعنى من لغة إلى لغة. ويبدو هذا بشكل أوضح عندما تكون اللغتان مختلفتين أرومة ألسنية واستعمالاً عادياً ومتباينتين من حيث درجة الثقافة التي تمثلها كل منهما. وثالثها أن محاولة لإحياء فلسفة أفلاطون قد ظهرت في مصر في القرن الثالث. وهذه التي سميت الأفلاطونية الحديثة (أو المستحدثة) كان لها أثر في بعض نواحي المسيحية.

من هنا كان من البدهي أن تتسرب إلى المسيحية آراء متناقضة يحسب أصحاب كل منها أنهم مخلصون فيما ذهبوا إليه. ولعلّ المؤسف هو تمسك البعض من أصحاب المذاهب والآراء الجديدة بمذاهبهم وآرائهم وتفسيرهم حيث أصبحوا يعدون خصومهم - أي الذين يخالفونهم في الرأي - هرطقة، والهرطقة درجة بين البدعة وما يشبه الكفر.

ولنشر هنا إلى بعض من هذه الآراء والمذاهب والبدع التي عرفت

الكنيسة في وقت مبكر من حياتها. ولعلّ أقدم هذه البدع هي المحاولة للتوفيق بين المسيحية واليهودية. لكن هذه لم تدم كثيراً خاصة لما اتضح أن الهوة بين الكنيسة والكنيس أوسع مما ظن الناس أولاً.

كانت المحاولات التي اتجهت إلى التوفيق بين المسيحية والهلينستية أكثر نشاطاً ولعلها كانت أبعد هدفاً. هذه هي المعروفة باسم الغنوسية. والغنوسية كلمة يونانية تعني المعرفة أو الحكمة. وقد أطلق الاسم على هذه الجماعة لأنها كانت تقيم دعوتها على أساس من المعرفة. قد كان بين الجماعات الغنوسية فروق مهمة من حيث التفاصيل لكن النظرة العامة كانت متحدة في الأصل. ولعلّ أبسط ما يمكن أن يقال عن الغنوسية إجمالاً هو أن أتباعها كانوا يرون أن العالم هو أصلاً من صنع إله آلى عن نفسه أن يمزج بين الإنسان الأبدي وعناصر الشر، وأن هذا الإله الذي سماه المسيح (أباه) هو القادر على إصلاح العالم. وهذا لا يتم إلا متى جمع مبدآن جمعاً تاماً وهما الرأي الهلينستي القائل بأن الكون هو فيض إلهي والتعليم الذي جاء في الأناجيل. وقد ادعى الغنوسيون أن آراءهم تحل مشكلة الحياة والموت. وكانت لغتهم، ومن ثم آراءهم، مما تستسيغه جماعات متقدمة فكرياً، لكنها لم تكن أمراً يدركه عامة الناس. لذلك فقد كانوا جماعات متفرقة متباينة في التفاصيل.

وجاء مونتanos في أواسط القرن الثاني للميلاد وهو من فريجيا (في آسية الصغرى). وقد ادعى النبوة وعاش عيشة نساك وتقشف دقيقة، وهو النظام الذي فرضه على أتباعه وكان من أولهم سيدتان كانتا في نظر الأتباع تتمتعان بهبة خاصة ممنوحة من الروح القدس. وكانت الجماعة بأسرها تؤمن بمجيء المسيح الثاني القريب. وقد كان بين من قَبِلَ رأي مونتanos الكاتب الكبير ترتوليان (150 - 222 م) وهو من كبار القادة المسيحيين في شمال إفريقيا. ولم يرق تقشفهم للكثيرين، فعزفوا عنهم. كما أنهم هم قاوموا رجال الدين المفرطين في اتباع أهواء العالم. فقد نجحوا في عزل بولس

السميساطي، أسقف أنطاكية، عن أسقفية بسبب تصرفه (268 م). وقد كانت زنوبيا عملت على تنصيبه على الأسقفية.

أما جمهرة المؤمنين من المسيحيين فقد ظلوا على ولائهم للكنيسة الجامعة، وظل اعتمادهم على الأناجيل والرسائل التي بدئاً بترتيبها في القرن الثالث، لكنها لم تصبح قانوناً إلا في القرن الرابع. ومما حفظ للمسيحية الكنسية الأم مكانتها كان توالي الأساقفة القانونيين. ومما يجب أن يذكر هنا هو أن أسقف أي كنيسة لم يكن يتسلم منصبه إلا متى قبل به ورسمه الأساقفة المجاورون لمركز أسقفية.

مر بنا شيء كاف لمثل البحث الذي نعهده عن التعذيب الذي طال المؤمنين عندما كان الإمبراطور يأمر بعملية الاضطهاد والتعذيب. وكان جواب المسيحيين على هذا الصمود قبول الموت حرقاً أو تمزيقاً في مخالب الوحوش الكاسرة الجائعة.

لكن الخصومة بين الوثنيين والمسيحيين لم تقتصر على المجالات التي كانت تتعلق بالسجان أو منفذ أحكام الإعدام. لقد التقى المتخاصمون على الصعيد الفكري. فقد جرب عدد من الكتاب المسيحيين أن يوضحوا للمفكر الوثني أسس إيمانهم وعقيدتهم فيما يتعلق بالتجسد.

وحرى بالذكر أن الجزء المتأخر من القرن الثاني الميلادي والقسم الأول من القرن الثالث شهدا إحياء قوياً للهلينستية في نواحي الفلسفة. وقد بدا عليها، في حلتها الجديدة، أنها قد تنقبت بنقاب ديني، حيث أن أكبر ممثل للفلسفة الهلينستية يومها، أفلوطين (المتوفى 270 م) كان يعتبر نفسه مفكراً دينياً. وفي الوقت ذاته فقد استأثر التصوف الشرقي ببعض الأدمغة الممتازة. وقد جاء هذا بشكل خاص عن طريق المفكرين الهنود الذين استقروا في الإسكندرية خاصة، والذين شُغِفَ بهم المفكرون المحليون آملين أن يجدوا عندهم ما ينير سبيلهم.

وقد تركزت القضايا التي أثارها هؤلاء المفكرون - مفكرو الفترة التي أشرنا إليها - حول طبيعة الله والغاية من خلق هذا العالم الطبيعي، وعلاقته بالعالم الروحاني غير المتغير. وقد اهتموا، فضلاً عن ذلك، بمشكلة أصل الشر، وبالنهاية التي تنتهي إليها الروح بعد انفصالها عن الجسم العدمي.

وقد كانت فكرة التركيب الفلسفي هي الأسلوب الشائع في 'سبيل الوصول إلى حلول للقضايا والمشكلات. وأهم هذه المحاولات كانت في مجال التوفيق بين العهد القديم (من الكتاب المقدس) وكتابات أفلاطون وأرسطو. ولعلّ الاهتمام بالعهد القديم يعود إلى المدرسة اليهودية القوية التي كانت في الإسكندرية، والتي عرفت فيلون الفيلسوف^٥ بين رجالها (20 ق. م - 50 م).

وقد شجع هذا الإحياء الديني والفلسفي خصومة الوثنية للكنيسة. كان بين أولئك الكتاب الوثنيين كلّسوس ونومينيوس، وخاصة أفلوطين وتلميذه فرفوريس - هؤلاء وغيرهم سلطوا هجومهم على المسيحيين لأنهم تخلوا عن جهابذة الفكر اليوناني وقبلوا بآراء جاء بها أناس مجهولون. على أن المسيحية لم تعد، في هذه الفترة، جماعة من أهل الفكر النابيين الذين حموا ذمارها وكالوا للخصوم الصاع صاعين.

وقد كانت الإسكندرية المضمار الرئيسي الذي تنافر فيه الفريقان. ففيها كانت مؤسسات علمية بطلمية هليستية هي المتحف والسيرايوم والسباسطيون التي جذبت إليها الطلاب من أنحاء العالم لدراسة الفلسفة والبلاغة، وكانت فيها جالية يهودية (ومدرسة) من أهلها فيلون ويوسيفوس المؤرخ (37 - 100 م). وفي الإسكندرية أنشأ المسيحيون لهم مدرسة لاهوتية، وهي، ولاشك، أقدم مؤسسة من نوعها في تاريخ المسيحية في القرون الأولى. كان أعضاء هذه المؤسسة - المدرسة اللاهوتية - هم المسؤولون عن صياغة الأفكار المسيحية اللاهوتية وعن وضع التفاسير للكتب

المقدسة. على أن هذه المدرسة لم تكن تقتصر على اللاهوت المسيحي؛ إن التعليم فيها دار حول الإنسانيات والعلوم والرياضيات. ولم يستطع الباحثون أن يهتدوا إلى زمن تأسيسها، والذي نعرفه هو أن أول إشارة لها جاءت في حياة بانتينوس المتوفى سنة (190 م). وبعد هذا التاريخ سارت في خط مواز للمتحف الوثني الذي أخذ يتقلص تدريجاً حتى أغلق سنة (415 م).

وقد كان كبار القادة المسيحيين في الإسكندرية مرتبطين بالمدرسة المذكورة، حيث أن تاريخ المدرسة بالذات يمكن تلخيصه من تراجم الأشخاص الذين تولوا رئاستها، بدءاً من بانتينوس عبر إقلمنفنس (تو 215 م) وأوريغون (تو 254 م). قد ظلت المدرسة حرة في برامجها وبحوثها إلى سنة (231 م). لما غادرها أوريغون وانتقل إلى فلسطين. عندها أصبحت المدرسة تابعة للبطريركية وأصبحت، إلى درجة كبيرة، تعبر عن آراء البطريرك في الشؤون الدينية.

كان أسلوب الحوار هو المتبع يومها في الجدل والمناقشة. لذلك فقد اتخذت بعض الكتب الموضحة للمسيحية شكل حوار بين وثني ومؤمن. من هؤلاء أرسطو الفحلي (البلي) من مدينة فحل في غور الأردن.

أحسب أن هؤلاء الذين نافحوا عن الإيمان يستحقون منا بعض العناية. ومن كبارهم الشهيد يوستين (تقريباً 105 - 165 م) وهو نابلسي المولد ووثني الأرومة. خرج من بلده ساعياً وراء اكتساب المعرفة. فزار أنطاكية وتحلق حول معلمي الفلسفة - من الرواقية إلى الفيثاغورية إلى المشائية (أرسطو) إلى الأفلاطونية الحديثة، فلم يجد في أي منها ضالته. وحدث أن لقي مسيحياً متعلماً فأرشده سواء السبيل. وتثقف بعد ذلك مسيحياً واستقر في رومة وأخذ على عاتقه تعليم المسيحية والفكر الفلسفي فيها. ولما رفض أن يقدم رسوم العبادة للإمبراطور حكم عليه بالموت، واستشهد بين سنتي (163 و 167 م).

وقد اهتم يوستين بالدفاع عن المسيحية على جبهات ثلاث: ضد اليهود وضد الوثنيين وضد أصحاب البدع. وكان في جميع أعماله مبرزاً. وهو الذي لفت إلى أن المذاهب المنحرفة والبدع خطر كبير على المسيحية. وقد كان غزير الإنتاج واضح الأسلوب وكان له فضل في دفع عجلة انتشار المسيحية في العالم اليوناني الروماني.

وعندنا تتيان السوري، الذي لم يستطع الباحثون تحديد مكان ولادته في سورية. بعد أن جمع ما كان موجوداً في محيطه من شؤون العلم والمعرفة اتجه غرباً إلى رومة حيث التقى يوستين وهناك اعتنق المسيحية. ولم يلق القبض عليه مع يوستين فعاد إلى بلاده وحول سنة (160 م) نشر كتابه الموجه إلى اليونان وكان هجوماً عنيفاً على كل شيء يوناني وثني.

ومن أعمال تتيان الكبيرة كتابه المسمى باليونانية: دياتسرون⁴ والذي كان دمجاً تاماً للأناجيل الأربعة حيث أخرج منها رواية تامة. وقد وضعه باليونانية ثم نقله إلى السريانية. وقد استعمله الناس حال الفراغ منه. وظلوا على ذلك إلى أوائل القرن الخامس. ومن هنا ثمة من يرى في تتيان أحد كبار مؤسسي المسيحية السريانية. ولندكر هنا أيضاً بار ديسان (154 - 222 م) الذي وضع، مع تتيان، المسيحية في تلك المنطقة وذلك الزمن، على الخط السرياني لغوياً والآرامي فكراً.

وثمة سوري آخر هو هيغيسبس، وهو من أهل القرن الثاني. وقد ولد مسيحياً وذهب إلى الغرب ليستكمل دراسته وأقام في كورنث ورومة لكنه عاد إلى الشرق حيث أتم كتابه: المذكرات (في خمسة أجزاء). والكتاب فيه القليل جداً من التاريخ إذ أنه أصلاً جدل حول المسيحية ودفاع عنها أمام خصومها من الداخل (المذاهب والبدع) والخارج (الفلسفة اليونانية والتعاليم اليهودية).

في سنة (195 م) قاد الإمبراطور سبتيموس سيفروس (193 - 211 م)

حملة ضد منطقة إديشا (الرها) على الفرات الأعلى. وقد كان في عدد ضباطه شخص اسمه يوليوس أفريقانوس، ولو أنه مولود في إيليا كاييتولينا (بيت المقدس). بعد عودة الإمبراطور بقي يوليوس في إديشا سنوات في صحبة ملكها أئجر الثاني وأمرائها ونبلائها. بعد ذلك عاد إلى فلسطين واستقر في عمواس (على مقربة من بيت المقدس). وزار رومة أيام الإمبراطور ألكسندر سيفيروس (222 - 235 م) حيث خطط مكتبة جميلة للإمبراطور. وزار الإسكندرية، لكنه قضى آخر أيامه في عمواس منصرفاً إلى الدرس والتأليف. وفي كتابه: الأخبار (في خمسة مجلدات) عرض لتاريخ العالم إلى أيامه. وهذا الكتاب أصبح أساساً لما يسمى التاريخ المسيحي. وكان مغرمًا بكتابة الرسائل التي يوضح فيها آراءه. لكن رسائله ضاعت.

وقد أنجبت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية (المسيحية) عدداً من الذين نافحوا عن المسيحية بقواهم المختلفة وبأساليب بلغت الغاية في الدقة والجدل. وعندنا اثنان يحتلان الصدارة بالنسبة إلى جميع رجال الفكر المسيحي لا في أيامهما فحسب بل على طول المدى الزمني وهما: أقلمنضس الإسكندري (150 - 215 م) وأوريغون المصري (185 - 253 م).

كان أقلمنضس أثينا وهو مولود، على الأرجح، سنة (150 م) وقد نشأ وثنياً في مدينته. برع الرجل في الآداب والفكر والفلسفة الكلاسيكية. وفي سن الثلاثين رحل إلى الإسكندرية ولم تمض عليه سوى عشر سنوات حتى كان على رأس المدرسة المذكورة. وبسبب الاضطهاد الذي أوقعه سبتيموس سيفيروس ترك المعلم مصر فمر بفلسطين حيث علم بعض الوقت في مدرسة قيصرية، ثم اتجه إلى قبادوقية (في آسية الصغرى) حيث كان أحد طلابه قد تولى الأسقفية فيها، وقضى السنوات الأخيرة من حياته هناك.

كان أقلمنضس ذكي الفؤاد ناصع البيان واضح الأسلوب، يتمتع في كتابته بنفحة شعرية كانت تمكنه من تجويد ما يخطه يراعه. وبحكم تعمقه

في الأدب الكلاسيكي والفكر اليوناني وإحاطته الدقيقة والشاملة بالتعاليم المسيحية، استطاع أن يضع بين أيدي تلاميذه وقرائه، آراء جديدة واضحة بيّنة. ولعل خير ما يقال عنه هو أنه نظر في القضايا والمشكلات الفكرية المجردة والفلسفية الحياتية، وبحث في الأسئلة التي طرحها رجال الفكر اليوناني ثم بحث عن الأجوبة لجميع هذه القضايا فوجد أن القدامى أجابوا عنها من قبل عن طريق الأسطورة. ولكن هذه الوسائل لم تعد صالحة. الوثنية كانت موجودة وكانت تقاوم المسيحية، لكن حيوية الأولى امتصها ما كان في أساليبها من تناقض وفي طرق بحثها من تضارب. لذلك يجب أن يلجأ (الفكر) إلى مصدر جديد وأسلوب جديد للإجابة عن أسئلة القدامى والجدد وقضاياهم. والمصدر الجديد هو المسيحية التي هي تتويج لأفضل ما عرفتة المدنية الهلنستية.

وضع أقلمنضس أسس الدفاع الفكري عن المسيحية، لكن الذي خطط لذلك ونظمه بحيث أصبح منهجاً علمياً هو أوريجون (185 - 253 م). وهو مصري المولد، أبوه يوناني وأمه مصرية، وكان الاثنان مسيحيين. وقد أتيح له، في صباه وشبابه، خزانة كتب عامرة في البيت، إذ يبدو أن هذا البيت كانت تعقد فيه حلقات للمناقشة. وقد ظهرت على الصبي مواهبه غير العادية ونضجه المبكر ونهمه في طلب المعرفة، حتى أنه أصبح، وهو في السابعة عشرة من عمره، يدرّس في المدرسة المسيحية في الإسكندرية. وحدث أن استشهد أبوه حينئذ، وصودرت أملاك الأسرة والمكتبة العامرة، واضطر الشاب إلى العمل كي يعيل أمه وستة أخوة وأخوات، فكان يدرّس إلى جانب العقيدة المسيحية الفلسفة والأدب الوثنيين. ومع ذلك فقد استمر في دراسته. وأخيراً تولى رئاسة المدرسة حيث قضى تسع سنوات. وقد أحقق نجاحه منافسيه وخصومه، وكان الاضطهاد قد تجدد في مصر، فاضطر إلى مغادرة البلاد. ولقي في قيصرية (الساحل الفلسطيني) ترحيباً كبيراً، حيث نقل عمله التعليمي المسيحي إليها. فكان هو، في الواقع، منشئ

مدرسة قيصرية، وقد استمرت مدة طويلة بعد أيامه. وكان كثير الرحلات، لعله كان يدعى لإلقاء محاضرات. وقد سجن وعذب وأخيراً توفي في صور سنة (253 م): وكان يومها رجلاً مريضاً متعباً مكسور الخاطر.

كان أوريجون طلبة بشكل غريب. وكان له جلد على العمل. والمهم أن الرجل كان مبتكراً في آرائه ونظراته، وبحكم معرفته الواسعة والعميقة للتيارات الفكرية والروحية، القديمة والحديثة، كان باستطاعته أن يوضح الأمور وأن يضيف الكثير إلى ما يتناوله. وقد انصرف انصرافاً كبيراً إلى دراسة مقارنة لأسفار العهد القديم، بحيث يمكن اعتبار الرجل أول (باحث توراتي) في التاريخ.

كتب أوريجون كثيراً. وكل كتاب سدّ ثغرة في تاريخ المسيحية. لكن من أطرف ما كتبه رده على كلّسوس. وكان هذا أحد كبار الخصوم الذين كتبوا ضد المسيحية. وكان قد كتب سنة (180 م) كتاباً شنع فيه على المسيحيين والمسيحية. وقد قال إن انتشار المسيحية زرع أسس الإمبراطورية، ووصف المسيحيين بأنهم قوم محتالون يعملون في الخفاء للتخريب، وأنهم يغشون بيوت الأغنياء كي ينشروا تعاليمهم الخبيثة بين النساء والأولاد. وقد رد عليه أوريجون، في رسالة كتاب، داحضاً كلامه مشيراً إلى أن الديانة التي تعلم الأخلاق الرفيعة السامية والتي تحمّل أتباعها على تحمّل العذاب والسجن والشهادة في النهاية لا يمكن إلا أن تكون صحيحة صادقة. كان كلّسوس قد دعا المسيحيين إلى التخلي عن (خزعبلاتهم) والعودة إلى حظيرة المواطنة الصالحة؛ فرد عليه أوريجون بأن تمنى بأن يهدي الله أباطرة رومة فينضموا إلى أتباع التعاليم الجديدة. وقد قال زرنوف عن أوريجون: «إن الجماعة المسيحية في الشرق نضجت عقلياً وفكرياً بقيادة أوريجون الحية. وقد هيأها - مسبقاً - للدور الذي كان ينتظرها لما اعترفت الإمبراطورية بالكنيسة».

ونود أن نشير هنا على سبيل التقديم (إذ سيعالج الموضوع فيما بعد) إلى أمور تتعلق بإديسّا. منها أن هذه المدينة كانت المركز الأول للمسيحية في العالم الآرامي؛ ومنها أن مدرسة إديسّا اللاهوتية كانت ذات شأن كبير في عالم المسيحية، لكن الذي كتب عنها في القديم كان أقل مما دون عن مدرسة الإسكندرية مثلاً، لذلك لم تشتهر؛ ومنها أن معلمي مدرسة إديسّا وخريجيه، الذين سنتحدث عن أثرهم في القرن الرابع، هم الذين أغنوا المسيحية بالكثير من الآراء القيّمة.

وهنا موضع ملاحظة هامة. إن السلطة الرسمية والمجامع الإقليمية والمسكونية واللاهوتيين الذين كتبوا باليونانية: جميع هذه المؤسسات وجميع هؤلاء الأفراد هم الذين اعتبروا الآخرين أصحاب مذاهب وبدع. وهذا ما كان يحدث دوماً عندما تستطيع فئة ما أن تحيط التفكير والتنظير في حدود معينة، فتفقد الفكر مجال العمل الحر.

الفصل الثالث

القرن الرابع الميلادي

(1) النيقاوية

تولى قسطنطين عرش الإمبراطورية سنة (305 م) واستمر في المنصب حتى (337 م) إلا أنه قضى نحو عشرين سنة وهو يتقاسم الحكم على نحو ما كان قد تم التقسيم الإداري للإمبراطورية في عهد سلفه ديوقليتيان (284 - 305 م). ولم يستقل بالسلطة نهائياً إلا في (324 م).

وفي عهد قسطنطين، على ما مر بنا، تم للمسيحية أمران مهمان: الأول اعتبارها واحداً من أديان الإمبراطورية، أي أنها أعطيت الغطاء الشرعي الرسمي؛ هذا تم في (313 م) - (تصريح ميلان). أما الثاني فهو أن قسطنطين بدأ من سنة (324 م) يدخل الآراء والنظرات وبعض العقائد المسيحية في الكثير من تشريعاته.

لما تولى قسطنطين العرش كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في المشرق وفي المغرب، وقد قدر أن ثلث سكان الإمبراطورية الرومانية قد كانوا اعتنقوا المسيحية في القرن الرابع. وإذا نحن اقتصرنا على القسم الشرقي من الإمبراطورية وجدنا أن العناصر التي تكون منها هؤلاء المسيحيون كانت متنوعة عرقاً وحضارة ولغة. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، والذي نود أن نضيفه الآن هو أن الجماعات المختلفة التي كانت تؤلف المجتمع المسيحي الواسع أصبحت، في القرنين الثالث والرابع، تعرف نفسها أكثر من ذي قبل، وعملت على تفهم المسيحية على الأسس التي تركز إليها نفسياتها، وتوضيح ذلك لنفسها باللغة التي تستقيم أمورها بها.

ومن هنا، على ما يرى سبنسر ترمينغهام، كان ظهور هذه المؤلفات

الكثيرة (بين سنتي 140 م. وحول 250 م) التي تتناول حياة المسيح والتي تحاول تفسير تعاليمه وتوضيح المعاني الظاهرة والمستترة في المسيحية. ومع أن هذه الكتب بدأت، على ما يبدو، قصصاً تروى مشافهة قبل أن تودع بطون المخطوطات، ومع أنها لم تحظ في النهاية بمكان في العهد الجديد (القانوني) فإنها تشير إلى أمرين: الأول هو أن هذه الكتب ظهرت باللغة السريانية وأكثرها وضع في إديسا وحولها أي شرقي الفرات. والأمر الثاني هو أن الكثير من هذه الكتب، وقد وصلت إلينا في صيغة قد تختلف كثيراً عن الأصل، تبين الموقف العربي (عنصرأ) والآرامي/ السرياني (لغة) من القضايا التي كانت تشغل الناس وأهمها طبيعة المسيح بين تفسير يوناني وتفسير آرامي. الأول عقلي منطقي حيث أصبح المسيح، في عرف الجماعة التي لم تتهَلَّين، على ما تركه هؤلاء شيئاً مجرداً. أما الجانب الآرامي فكان يرى الأمور أبسط من ذلك، لأنه كان يعرف، من تجربته الطويلة جداً، شيئاً اسمه الدين الطبيعي الذي رافقه وتطور معه. فلا التفسير اليوناني لقي إقبالاً بين أفراد المجتمعات الآرامية، ولا النظرة الآرامية كان يمكن أن يقبلها سكان المدن الذين غبوا من الهلينية، بشكلها الهلنستي، شعبهم.

ومن هنا اختلف الشارحون. واختلاف الرأي لا يجب أن يفسد للود قضية؛ لكن الذي حدث أنه أفسد. ذلك بأن أولئك الذين كانوا يستطيعون استعداد السلطان، استطاعوا أن يصفوا خصومهم بأصحاب المذاهب الضالة أو أصحاب البدع. مع أن الواقع هو أن الأمر كان خلافاً في الرأي له هذه الأسباب النفسية الاجتماعية الفكرية اللغوية التي عرفت المجتمعات المختلفة.

«وكان لعطف قسطنطين على الكنيسة وقع عظيم في جميع الأوساط النصرانية، فاشتد الحماس له، وعظمت الثقة به حتى أصبح ملجأ النصارى ونصيرهم. فشكوا أمورهم إليه ورجوا تدخله. وكان هو حبر الدولة الأعظم ورأسها، ف شعر أنه من واجبه أن يحافظ على الأمن وحرية العبادة. فتدخل في شؤون الكنيسة وسجل بتدخله سابقة خطيرة أدت فيما

بعد إلى مشاكل ومشاكل بين الدولة والكنيسة. وما الانشقاق العظيم الذي شطر الكنيسة الجامعة في القرن الحادي عشر شطرين، إلا نتيجة محتملة لتدخل الدولة في شؤون الكنيسة وربط السياسة الدينية بالسياسة السياسية» (أسد رستم).

في هذه الفقرة كلمتان تحتاجان إلى تفسير خاص وهما (الحبر الأعظم) للدولة. هذا منصب كان يشغله أباطرة الرومان منذ أيام أغسطس. وبهذا يكون الإمبراطور الكاهن الأعظم أي الأول للأديان المنتشرة في الإمبراطورية. وهو من المناصب التي ضمها أول إمبراطور إلى مناصبه كي تتم له السيطرة على نواحي السلطة بأجمعها. ومع أن قسطنطين اعتنق المسيحية، فقد ظل الكاهن الأعظم (الحبر الأعظم) في الإمبراطورية لجميع الأديان الوثنية التي كانت معروفة. وبحكم هذا الأمر، وأهمية هذا المنصب المتوراث، رأى قسطنطين أنه يجب أن يكون له في الكنيسة مركز مماثل. لم يكن يرى نفسه رأس الكنيسة، فكل منطقة لها بطريركها وأساقفتها وشيوخها وشماسوها، لكن قسطنطين كان يعتبر نفسه «الحكم» الذي يجب الرجوع إليه. وقد اتخذ هذا الموقف منذ انعقاد أول مجمع مسكوني (325 م) وكان ذلك في عهده.

كانت الأريوسية وما دار حولها مشكلة الكنيسة المسيحية الرئيسية في أوائل القرن الرابع. وأريوس (256 - 335 م) كان ليبي الأصل إسكندري النشأة والدراسة. وبعد خلاف بسيط مع الكسندروس أسقف الإسكندرية، سيم شماساً ثم كاهناً، وجعله الأسقف خادماً كنيسة. وقد كان أريوس عالماً ضليعاً في شؤون الدين والآراء الفلسفية، كما كان متكلماً فصيحاً يجيد الوعظ والإرشاد فالتف حوله كثيرون.

كانت الفكرة (اللاهوتية) التي دارت تعاليم أريوس حولها هي أن الأب وحده (من الأقانيم الثلاثة) استحق لقب الإله. أما الابن فلم يكن سوى إله

ثانوي منخفض الرتبة، لكنه تميز عن بقية المخلوقات في أنه كان صورة الأب في جوهره وما إلى ذلك. وقد اعترض على تعاليم أريوس كثيرون.

يخيل إلينا أن أريوس قد نفذ إلى الكثير مما كانت مصر تقول في شؤونها الدينية القديمة التي هي نتيجة تطور امتد آلاف السنين.

كانت في مصر مجموعة آلهة تدور حولها عبادة وطقوس ومعان. المجموعة هي حوروس وإيزيس وأوزيريس. ومن هذا الثلاثي كان لواحد فقط موضع خاص هو حوروس. لسنا نستبعد أن يكون لأريوس هذه النظرة. وهذا يعيدنا إلى ما ذكرناه قبلاً وهو أن أموراً كثيرة اختلف المسيحيون بشأنها لاهوتياً يعود الأمر فيها إلى الجذور البعيدة لنفسية البلد والجماعة، أو هذا الذي نسميه نحن الطبقة الجيولوجية الاجتماعية التي تستمر في تغذية الطبقات التي تليها، ومن ثم تستمر في التأثير فيها.

وقد دعا ألكسندروس (أسقف الإسكندرية) أريوس وخصومه إلى مناقشة علنية كانت، على ما روي عنها، ممتعة جداً. لكن أسقف الإسكندرية، بعد أن أثنى على جميع المتكلمين منع أريوس من تعليمه وطلب منه أن يكرر قوله هو وهو أن الابن مساو للأب في الجوهر. وقد عقد الأسقف مجتمعاً من المتقدمين من كهنة مصر، وعرض عليهم القضية لأن أريوس رفض أمر سيده. وقد دان (98 من أصل 100) من الحاضرين أريوس، فقطعه (حرمه) المجمع مع بعض مؤيديه.

خرج أريوس إلى قيصرية فلسطين الساحلية وكان أسقفها يوسايوس عالماً كبيراً، وكان يميل إلى أريوس فشجعه. ثم انتقل أريوس إلى نيقوميديّة فأيده أسقفها. وكتب إلى الكثيرين مدافعاً عنه، بل ودعا إلى مجمع نصر أريوس وكتب المجمع إلى أسقف الإسكندرية ليرفع القطع (الحرم) عنه.

وبقدر ما نشط أريوس وأصدقائه هب ألكسندروس، أسقف الإسكندرية، للدفاع عما سماه الإيمان القويم. ويبدو أن أسقف

الإسكندرية كتب إلى نحو سبعين أسقفاً بينهم أساقفة رومة وأنطاكية وقيصرية (فلسطين) وبيت المقدس وصور وحلب وغزة وعسقلان.

وتجاوزت الأريوسية الجماعة الأولى وانتشرت في أوساط المسيحية الشرقية. وقد أيد بعض الأساقفة التابعين لبطيركية الإسكندرية أريوس فمنحوه (في اجتماع تم في قيصرية فلسطين) وجماعته حق الرجوع إلى ممارسة الأسرار، ومعنى هذا أنهم هم ألغوا الحرمان. لكن كان يجب أن يقبل أسقف الإسكندرية بمثل هذا القرار قبل أن يسمح لأريوس بالعودة إلى عمله.

عاد أريوس إلى الإسكندرية مسلحاً بقرار قيصرية فلسطين، ونظم الأغاني والأهازيج الروحية التي تحوي أفكاره فعمم آراءه على الناس الذين حفظوها وأعادوها في الأماكن والساحات العامة.

هذه القضية اقضت مضاجع قسطنطين. فقد كان الرجل قد بذل الجهد الجهد في سبيل الوصول إلى العرش وتوحيد الإمبراطورية. لذلك غضب لما بلغه هذا الخلاف بين قطبين من أقطاب المسيحية. وقد كان لقسطنطين صديق هوسيوس شيخ تقي (أسقف قرطبة في إسبانيا) فاستشاره في الأمر. المهم، على ما يرى أسد رستم، هو أن هوسيوس «لم يدرك أهمية النزاع العقائدي وصلته بألوهية السيد (المسيح) المخلص. ولا غرو في ذلك فإن معظم أساقفة الغرب كانوا ما يزالون بعيدين عن تفهم هذه الأمور لقلة تضلعهم في الفلسفة واللاهوت».

وقد استمر الأخذ والعطاء والنصح والإرشاد والتشاور والتناوب ومحاولة المصالحة والخصومة وقتاً لا طائل تحته. وعندئذ دعا قسطنطين جميع الأساقفة من جميع أنحاء الإمبراطورية إلى التشاور وتبادل الرأي. وعين مكان الاجتماع في نيقية، وعقد في (325 م) أول مجموع مسكوني.

ولعله من المناسب، قبل أن نتحدث عن هذا المجمع المسكوني، أن نحدد

معنى المجامع المسيحية. فقد كانت المشكلات التي تواجه أساقفة الكنيسة تعرض على مجمع يعقد في الأبرشية (أنطاكية أو القسطنطينية أو الإسكندرية أو القدس - بعد 451 م). هذا يدعو إليه رئيس الأبرشية أو مجموعة من الأساقفة. هذه المجامع كانت تسمى إقليمية. لكن القضايا الكبرى كانت بحاجة إلى مجمع مسكوني يحضره الأساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحي.

وقد دعا قسطنطين إلى أول مجمع مسكوني، فأصبح التقليد، فيما بعد، أن يدعى المجمع المسكوني من قبل السلطة المدنية. (وقد يدعو إليه الأساقفة الكبار).

عقد المجمع المسكوني الأول في نيقية في (325 م). وقد وصلنا وصف لحفلة الافتتاح من قلم يوسايوس المؤرخ الكنسي نرى في نقله فائدة لأنه يعطينا الصورة التي أرادها قسطنطين لنفسه كحام للكنيسة والإيمان المسيحيين. قال يوسايوس:

«واجتمع الآباء الأجلاء في اليوم العشرين من أيار (مايو) من شهر السنة (325 م) في بهو كبير في البلاط، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم إلى اليمين وإلى اليسار وابتدأوا ينتظرون وصول الإمبراطور منصتين. ثم أعطيت الإشارة بوصوله فانتصبوا احتراماً وإجلالاً. ودخل قسطنطين بالأرجوان والذهب ووراءه بعض أفراد الحاشية من المسيحيين. ولما وصل إلى المكان الذي أعد له، شاء ألا يجلس قبل جلوس الأساقفة. وأمرهم فامتلأوا.

«وتوسط الإمبراطور مجلس الآباء على كرسي من ذهب. ونهض رئيس المجمع (لعله كان أسقف أنطاكية) فشكر للإمبراطور عنايته بالكنيسة. فرد عليه الإمبراطور شاكراً لملك الكون نعمه الكثيرة، ولا سيما تلك التي أتاحت له أن يرى الأساقفة مجتمعين بفكر واحد وقلب واحد.. وأكد أنه يعتبر كل شغب في داخل الكنيسة مساوياً في الخطر لحرب كاملة».

وبهذه المناسبة فقد عقدت فيما بعد مجامع مسكونية في القسطنطينية (381 م) وفي أفسوس (431 م) وفي خلقدونية (451 م) ومجمع

القسطنطينية الثاني (553 م). ولم يحضر من الأساقفة الشرقيين أحد بشكل رسمي بدءاً من مجمع رومة (649 م) ولا بعده، لأن العرب احتلوا بلاد الشام ومصر فانقطعت الصلة بين الأساقفة الشرقيين والمجامع المسكونية التي عقدت في الغرب أو في القسطنطينية.

ولنذكر أمراً آخر يتعلق بالمجامع المسكونية: إن القضايا التي دعت المجامع المسكونية من أجلها لم تحلّ. وكثيراً ما كان الإمبراطور يلجأ إلى فرض الحل الذي يرتضيه أو الذي قد يتوصل إليه المجتمعون بأكثرية. لكن ذلك لم يعن أن حل الإمبراطور أو رأي الأكثرية كان يقبل بالضرورة. إن الأقلية قد تزداد عناداً أو تخرج غاضبة من المجمع. وقد يعرضها موقفها لاضطهاد رسمي. ولنعد إلى نيقية (325 م).

فقد اختلفت الروايات في عدد الأساقفة المجتمعين، فقد راوحت الروايات بين أن يكون العدد مئتين وسبعين أو ثلاثمائة.

وقد اتخذ مجمع نيقية قراراً بإصدار قانون الإيمان، الذي أصبح فيما بعد هو القانون النيقاوي، ولو أنه لم يتخذ بشكله النهائي إلا فيما بعد.

وهذا هو نص القانون النيقاوي (وقد يختلف نصاً بين كنيسة أخرى لكن المعنى المقصود واحد):

«أؤمن بالله واحد آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى. وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور. نور من نور، إله حق من إله حق. مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء. الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس. وصلب عنها على عهد ييلاطس البنطي. وتألّم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب. وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وأيضاً يأتي بمجد عظيم ليدين الأحياء والأموات. الذي لا فناء لملكه.

وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب، الذي هو مع الأب والابن، مسجود له وممجّد، الناطق بالأنبياء وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة

رسولية. وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. وأترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي. آمين».

ختم المجمع أعماله في شهر حزيران/ يونيو من سنة (325 م). لكن هذا المجمع لم يتمكن من استئصال بذور الخلاف. فقد شعر الكثيرون من الأعضاء، بعد عودتهم إلى أبرشياتهم، بشيء من الحرية. فعادوا إلى الحديث والبحث في قضية المساواة في الجوهر. وقد كان بين الذين تناولوا هذه المسائل جماعة من كبار العلماء بقطع النظر عن مناصبهم، ولو أن بعضهم كانوا أساقفة.

وتوفي قسطنطين في (337 م) دون أن تحل القضية؛ والمهم أن الأريوسية ضعف شأنها في المشرق تدريجياً لأن خلافاً جديداً ظهر وكان أقوى منها وأعنف. لكنها انتقلت إلى الغرب وشغلت المؤسسات الدينية والسلطوية هناك. أما في المشرق فقد ظلت لها آثار، لكنها كانت تبته شيئاً فشيئاً حتى اختفت في القرن السابع.

أدرك قسطنطين أنه لن ينجح بالضغط والإكراه. وجرب وسائل الإقناع فلم يفلح. فإن الخلاف كان قد استحكم. وكان خلفاؤه أقل نجاحاً. فقد اتبعوا سياسة تأييد لمن يحبون من أتباع الأريوسية أو خصومها. وقد تقلب هؤلاء الخلفاء بين الأرثوذكسية والأريوسية.

وفي هذه المعركة اللاهوتية وما لابسها من مشكلات لم يكن لها حد كان الشخصية البارزة، والتي طبعت الفترة بقوتها، هو أثناسيوس الكبير بطريرك الإسكندرية (327 - 373 م) الذي تولى المنصب ستاً وأربعين سنة. وقد كان خصماً عنيداً للأريوسية، وقاومها بعنف ودون رحمة. وقد بدأ الدفاع عن اللاهوت النيقاوي ساعة تولى منصبه. فوضع كتباً وكتب نشرات، واتصل بالأباطرة كتابة وشخصياً، وكافح في سبيل آرائه بكل ما يمكن من قوة وعلم. كافح في مصر وخارجها، ولذلك، وبسبب عنفه وإخلاصه، كسب أصدقاء ونصب الأعداء ضده. وقد نفي أربع مرات

بأوامر إمبراطورية، وقضى نحو خمس عشرة سنة أما في المنفى أو في المخائى في البلاد. وقد طالت حياته بحيث توفي أكثر خصومه قبله، بما في ذلك ستة عشر إمبراطوراً.

وقد كان أثناسيوس قائداً مسيحياً من نوع فذ. فقد فرض طاعته على الكثيرين وكان نفوذه لا يقل عن نفوذ أهل الحكم. وكثيراً ما اعتبر أثناسيوس على أنه منقذ للأرثوذكسية، الذي نجح في إنقاذ الكنيسة من براثن الآريوسية، وقام بالحملة منفرداً.

على أننا، مع اعترافنا بقدرته وتفردته بالعلم والنشاط والمثابرة، يجب أن نتذكر أن المشكلة بالنسبة إلى المسيحيين وكنيستهم هي أن الأساس الذي اتبع للوصول إلى الأغراض كان الترويض والإكراه. ولعل أثناسيوس، المدافع عن الأرثوذكسية، كان نفسه واحداً من رموز الإكراه.

ولابد هنا من وقفة للمقابلة بين المسيحية قبل نيقية وبعدها. في القرون الثلاثة الأولى بدت الكنيسة والجماعة المسيحية وكأنها محافظة على الوحدة، وبذلك ربحت المعركة ضد الأباطرة. ولكن الكنيسة نفسها بدت في أواسط القرن الرابع وكأنها قد فقدت تساوقها الداخلي، واستعاضت عنه بانقسام إلى فئات متنافرة. إن المسيحيين الذين كانوا من قبل يرفضون الخضوع لأوامر الأباطرة، أصبحوا الآن يشتعدون القوة الإمبراطورية كي تقفل معابد خصومهم وتلقي القبض على كهنتهم. وقد كان السبب المباشر لهذا هو هذا المزج بين الكنيسة والإمبراطورية. كانت حياة المجتمع المسيحي قبل نيقية تقوم على الحرية، وكانت عضوية الكنيسة تقتضي التضحية في سبيلها. وقد بدلت نيقية هذا المبدأ الأساسي إذ أصبحت الكنيسة مؤسسة ذات امتيازات. وقد تعهدت الدولة بالحفاظ على وحدتها وعلى الأرثوذكسية. وأصبح الذين يخالفون أنظمتها وقوانينها يعاقبون كما يعاقب مخالفو الأنظمة المدنية.

كان الاعتراف بالإيمان قضية خاصة من قبل، فأصبح الآن قضية عامة، حيث أن من يخالفها، رجل دين كان أو إنساناً عادياً (وخاصة الأول) يتعرض للعقوبة الصارمة. وقد أصبح زعماء الكنيسة، الذين كانوا قبلاً يتمتعون بسلطة روحية أخلاقية، يرون أنفسهم موظفين إمبراطوريين، يتمتعون بالسلطة القاهرة التي لا يمكن أن تقاوم، عندما يشاء صاحبها ذلك. ولندكر، على سبيل المثال، أن الأسقف جورجios الذي أرسل إلى الإسكندرية (سنة 357 م) ليحل محل الأسقف أثناسيوس (في واحدة من فترات نفيه) تصرف بقسوة بالغة بالنسبة إلى أولئك الذين لم يعترفوا به، إلى حد أن رعيته طردته من المدينة. على أن هناك أمثلة أخرى على تخلي الأساقفة عن حرية الكنيسة والجماعة المسيحية في سبيل الحصول على تأييد الدولة: أثناسيوس نفسه وسلفستر أسقف رومة وهوسيوس أسقف قرطبة (في إسبانية) ويوسابيوس.

في سنة (381 م) عقد مجمع مسكوني في القسطنطينية. وقد قرر هذا المجمع القبول نهائياً بالنص النيقاوي كقانون للإيمان. كما أنه رفع منصب أسقف القسطنطينية إلى درجة البطريركية، وجعلت مرتبته الثانية بين البطريركيين الأربعة: رومة والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية. (القدس أصبحت بطريركية في سنة 451 م). وفي (383 م) أصدر تيودوسيوس (379 - 395 م) أمره بوجوب التقيد بالنص النيقاوي.

(2) يوحنا الذهبي الفم

على ما مر بنا، وعلى ما سيمر بنا بعد، تعرضت المسيحية لخلافات مذهبية وعقائدية متعددة ومتنوعة. وما أكثر ما كانت ساخنة عنيفة! فتختلط فيها السلطات الرسمية الإمبراطورية ومؤيدو واحد من أصحاب الأفكار المخالفة، فيكون فيها مناوشات وقاتال وما إلى ذلك. لكن ثمة ناحية تظل هي الناصعة بالنسبة إلى الفكر المسيحي، وهي الاجتهادات التي كان يتقدم بها رجال العلم والمعرفة، في حقل اللاهوت والفلسفة واللغة، لتوضيح آرائهم. هذه الاجتهادات هي ثروة كبيرة. ولسنا ننوي أن نتحدث عن هذه الجهود التي بذلت، لكن لا بد من التحدث حديثاً مقتضباً عن بعض هؤلاء الأعلام، على أن نسمح لأنفسنا أن نتحدث عن واحد من هؤلاء حديثاً أكثر من مقتضب.

هناك ثلاثة من رجال الدين الرهبان - النساك هم باسيليوس الكبير (ح 329 - 379 م) وأخوه غريغوريوس النساوي (ح 335 - 396 م) وغريغوريوس النازيانزي (ح 330 - 389 م). ويسمى عادة هؤلاء الأخوة (بمعنى قرابة الرهبنة والنسك) القبادوقيين، لأنهم جاءوا من تلك المنطقة ونشأوا فيها. ويطلق البعض عليهم اسم الآباء القبادوقيين من حيث علاقتهم المباشرة بالعمل في سبيل الكنيسة.

وقد كان الدور الرئيسي الذي قاموا به هو أنهم نظموا معلوماتهم وأفكارهم اللاهوتية حيث أنها استوعبت الرسالة المسيحية ومنحتها الوعاء الصالح اللازم لها. هذا فيما كان خصومهم ومناوئوهم مستعدين لقولبة

آرائهم اللاهوتية، كي تستوي مع المقولات الفلسفية المعاصرة، رغبة منهم في التقرب من البلاط. أما الآباء القبادوقيون، وهم أهل خلق سليم وأصحاب شجاعة وجراءة، فلم يتقربوا من البلاط، ولا طلبوا منه شيئاً. كان هؤلاء القوم ثابتين في مواقفهم دون أن يؤذوا الناس بتصرفهم. كانوا نساكاً لكنهم لم يكونوا متعصبين، على نحو ما عرف عن آخرين. كانوا أرثوذكسين - أي مستقيمي الرأي - لكنهم كانوا حريصين على أن يسود السلام في الكنيسة، وكانوا يعملون في سبيل ذلك. وكم بذلوا من الجهد في سبيل إعادة الوفاق بين الفريق النيقاوي والأكثرية المحافظة من المسيحيين الشرقيين. (والشرقيون هنا تعني أتباع بطريركيات القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية، والقدس فيما بعد). وقد كان كل منهم عارفاً، بعمق مثقفاً باتساع، مدركاً القضايا التي كان يوليها عنايته، سواء في شؤون اللاهوت أم بإقصاء السلطة عن التدخل في القضايا الكنائسية العقائدية.

وعندما ندخل في ناحية صميمية من أعمالهم نجد أنهم، مثل يوحنا الذهبي الفم، «سكوا» كلمات جديدة تستطيع أن تفسر الرؤيا المسيحية لله. ذلك بأن اللغة اليونانية التي كانت الفلسفة القديمة، واليونانية خاصة، تستعملها لتبيان آرائها كانت أحد الأسباب الرئيسية فيما طرأ على الفكر اللاهوتي المسيحي، وفي أيامه الأولى خاصة، من اضطراب فيه، ومرارة بين المشتغلين به.

ولعلّ من أطرف ما وصلنا عن هؤلاء العاملين في حقل اللاهوت المسيحي في تلك الأيام السحيقة نسبياً هو الذي قاله أحد مؤرخي الكنيسة سقراط (379 - 445 م) وهو، إن الأساقفة كانوا، وهم يتناقشون في المشكلات التي لا نهاية لها، أشبه ما يمكن بأولئك الذين يتقاتلون في الظلام، إذ لم يكونوا يدركون مواقع الخصوم العقائدية بأية درجة من الدقة.

هذا مع العلم أنهم لم يتمنعوا عن قبول مناصب كنسية كبيرة. فقد تولى

باسيليوس الكبير أسقفية القسطنطينية. وكان لأخيه غريغوريوس النساوي، فضل في إنجاح القانون النيقاوي سنة (381 م).

وقد كانت كتاباته اللاهوتية تنعم بمسحة من اللطف والتفاؤل. ومما كُلفه زيارة الكنائس في بلاد العرب وجنوب أرض الرافدين والتحقق من أوضاعها وأحوالها. ومما يدل على مكانة الرجل الفكرية هو أنه في (787 م) لما عقد المجمع المسكوني السابع منح لقب: (آب آباء الكنيسة).

أما غريغوريوس النازيانزي فقد قبل، بضغط من باسيليوس الكبير، أن يتولّى أسقفية صغيرة. وأقام فيها لكن لما توفي باسيليوس الكبير جاء القسطنطينية، وأخذ يعظ الناس ويعلمهم في غرفة في بيت يخص أحد أصحابه. ولم يلبث أن أصبح أكبر خطيب واعظ في العاصمة. ويبدو أنه في هذه الفترة ألقى خطبه الخمس حول (التثليث المسيحي). ويقول زرنوف عن هذه الخطب إنها تمثل واحداً من أعظم الإنجازات في لاهوت الكنيسة الشرقية.

ولم يكن هؤلاء الوحيدين بين علماء اللاهوت في القرن الرابع. إذ عندنا يوحنا الذهبي الفم وعدد من الرهبان والنساك الموارنة وغيرهم في مناطق إديسّا (الرها) وغيرها.

ولد يوحنا الذهبي الفم في أنطاكية سنة (345 م). كان أبوه قائد القوات الرومانية في سورية، وكانت أمه مسيحية. وكان ليوحنا أخت وهما ما أنجبته الأسرة لأن الوالد توفي شاباً.

ودرس يوحنا اللغة والبيان في مدرسة ليبيانوس، الذي كان من كبار البلغاء في عصره. فأجاد الطالب اليونانية وما تحويه هذه اللغة من بيان وأدب. وتعلم يوحنا على أندروغاثيوس الأنطاكي في الفلسفة. ولما اشتد عوده امتهن المحاماة فبرز فيها وجلّى، بسبب مهارته في الخطابة التي يعتبر من رجالها الأفذاذ عبر التاريخ. ثم ترك هذه المهنة.

وعكف بعدها على الإنجيل يستقي منه معرفة. وكان مرشده في هذا ملاتيوس أسقف أنطاكية. وانتهى الأمر به أن قبل المعمودية وهو في سن الثالثة والعشرين. وهنا انصرف الشاب إلى المطالعة والتأمل والصلاة. ثم أنشأ مع صديقة باسيليوس (الكبير) أخوية نسكية صغيرة العدد، لكنها كانت معروفة بتقوى أفرادها. كان هؤلاء ينهضون مبكرين لتلاوة صلاة الصبح، وبعد ذلك يصرفون ساعات الصباح الأولى في التأمل في الأسفار المقدسة أو في التأليف. وكانوا يقضون ساعات النهار في القيام بالأعمال اليدوية كحرثة الأرض وحياسة السلال والمسوح وخياطة الثياب للفقراء وجمع الحطب وإصلاح الأطعمة. كانوا يعتبرون جميع الناس ضيوفهم.

كانوا يتناولون الوجبة الوحيدة عند زوال النهار وكانت هذه قوامها الخبز والملح وبعض الزيت نادراً. وبعد صلاة المساء وصرف الوقت في التأمل والتفكير ومراجعة النفس كانوا يلقون بأنفسهم على الحصر المفروشة على الأرض كي يعطوا أجسامهم قسطاً من الراحة.

وقد رسم أسقف أنطاكية يوحنا قارئاً، وتجنب رسامة أخرى ولكن مؤقتاً، إذ أنه أصبح في نهاية المطاف أسقف (بطريرك) القسطنطينية.

وحدث أن كان الإمبراطور والنس (364 - 378 م) ذا ميول أريوسية فغضب على الأرثوذكسين (373 م) فأجبر نساكهم ورهبانهم على خدمة الدولة حيثما تطلبهم، أي في الجيش أو في الوظائف المدنية. وسخر الناس من النساك لأنهم كانوا يعدونهم مجانين. وبلغ السرور بالوثنيين الحد الأعلى إذ رأوا هؤلاء المسيحيين يعاقبهم إمبراطور مسيحي، ويقوم جنوده بتطبيق الأوامر عليهم بكثير من الشدة والامتهان. فخرج يوحنا من أنطاكية بعد الذي خبره إلى وادي العاصي وأوى إلى مغارة على مقربة من مصبه. لكن لم يقو على هذا النوع من التقشف، فرجع إلى أنطاكية (381 م). ولقيه

أسقف أنطاكية ملاتيوس فرسمه شماساً. وبذلك دخل الخط الكهنوتي. وبعد مدة جعله كاهناً وواعظاً.

وعندها تبدت مقدرة يوحنا في وعظه. ومن هنا جاءت تسميته يوحنا الذهبي الفم (يوحنا فم الذهب - والأول أنسب). وانصرف الواعظ الجديد إلى مراض الرذائل في المدينة فسلط عليها الأنوار، ثم عمل على تخفيف آلام الفقر والرقيق في المدينة. ولعل من أهم ما تم على يده هو تحريك غير الأغنياء وكرمهم حيث أنهم مدوا للكنيسة يد المعونة، فعملت هذه على إنشاء المستشفيات والمآوي.

ووضعت هذه جميعها برئاسة الأسقف. أما العاملون فيها فقد كانوا الشمامسة والشيخ وبقية رجال الكهنوت.

كان الاحتفال بعيد الميلاد قد بدأ في الكنيسة الغربية (أي في بطريركية رومة) وكان قد اتفق هناك على يوم 25 كانون الأول/ ديسمبر تاريخاً لعيد الميلاد. في سنة (376 م) بدأت الكنيسة الأنطاكية تحتفل بهذا العيد. ولم يكن الناس يعرفون عنه ما فيه الكفاية للاحتفال به. كانوا يحتفلون بأعياد الغطاس (لارتباطه بعماد المسيح) وبعيد الفصح (وهو يوم قيامة المسيح من الأموات) ويوم العنصرة (احتفالاً بنزول الروح القدس على تلاميذ المسيح بعد صعوده إلى السماء). أما عيد الميلاد فقد رأى فيه الناس شيئاً جديداً في الدين، ولم يكن الناس يحبون أن تضاف إلى احتفالاتهم وطقوسهم الدينية أشياء جديدة (وهم لا يحبون حتى يوم الناس هذا). فألقى يوحنا موعظتين حول الموضوع: الواحدة في 20 كانون الأول/ ديسمبر (386 م) والثانية يوم العيد. شرح في الأولى أهمية العيد إذ هو ذكرى ميلاد السيد. ومما جاء في وعظته يوم العيد قوله: «ولئن كان ظهور هذا اليوم الشريف ومعرفتنا إياه من مدة لا تنوف على عشر سنوات فمع ذلك بما أظهرتموه فيه أيها المسيحيون من الجد والنشاط قد ازدهى وأضاء كأنه مسلّم به قديماً. وقد كان معروفاً

من البدء بين الشعوب القاطنين في الغرب ودخل بيننا حديثاً، ومع ذلك أينعت ثماره الدانية القطوف بغزارة، تظهر لكم بما تشاهدون من احتشاد الشعب في الدار وما حولها، فضلاً عن أن الكنيسة ضاقت بالذين وافوا إليها».

أرادت حكومة الإمبراطور ثيودوسيوس (379 - 395 م) أن تحتفل بمرور عشر سنوات على توليه السلطة. وهذا كان يعني نفقات طائلة يترتب على جمهور الانطاكيين أن يدفعوها. وقد كانت الإدارة تلطخت بكل أنواع الرشوة. فوقع خبر هذه الترتيبات على السكان وقع الصاعقة (بدء المطالبات والترتيبات كان سنة 381 م). فطلب الانطاكيون رفع العبء الذي يثقل كاهلهم، فلم يصغ الحاكم وأساء الجبابة التصرف في جمع المطلوب فثار سكان أنطاكية: لعنوا الإمبراطور وأسرته وحطموا التماثيل النحاسية في المدينة، وجروا تماثيل الإمبراطورة في الوحل. ثم تنبهوا إلى غلطتهم وخافوا العاقبة، فهجر بعضهم منازلهم ومدينتهم ولجأوا إلى المناطق المجاورة.

وذهب أسقف أنطاكية إلى الإمبراطور ليهدئ باله ويشفع للسكان الذين جُنّوا فجنّوا على أنفسهم. وأخذ الأسقف معه من يساعده وترك المدينة في عهدة يوحنا (الواعظ). وكان الإمبراطور قد غضب على أهل أنطاكية وقرر عليهم عقاباً شديداً وأرسل قائدين لتنفيذ العقوبات. لكن يوحنا كان يهدئ روع الموجودين بوعظه ومظاهر تصرفه التقى، إلى أن نجح الأسقف في استعطاف الإمبراطور الذي عفا عن أهل أنطاكية، متبعاً في ذلك خطى المسيح الذي عفا حتى عن قاتليه.

ولما فرغ منصب أسقف (بطريك) القسطنطينية سنة (396 م) بوفاته شاغله، انتهى الأمر باختيار يوحنا الذهبي الفم لهذا المنصب الخطير (398 م). وعندها عمل يوحنا على تطهير الكنيسة ومؤسساتها من فساد رجالها. ومنها

أنه خفض نفقات الأسقفية، وحمى المؤمنين من الأريوسيين؛ وهؤلاء كانوا من الجنود الإمبراطوريين الذين كانوا يجندون من السقاط وغيرهم إذ أن الأريوسية انتشرت بينهم. وقد بدا تفوقهم لما أصبح القائد القوطي غافياس صاحب نفوذ في العاصمة. وقد قتل غافياس بعد أن خسر مركزه في العاصمة لما خرج منها.

وكان من الطبيعي أن يكون ليوحنا الذهبي الفم خصوم بسبب تصرفه النظيف الدقيق، وأن يزداد عدد الخصوم ويظهروا عندما يختل الأمن في المدينة! فضلاً عن ذلك فقد كان أسقف الإسكندرية ناقماً على يوحنا لأنه كان هو يود أن يشغل هذا المنصب. لذلك تكاتف الخصوم وتكالبوا على الرجل الطيب. واجتمعوا (403 م) واتهموا يوحنا بتهم لا تعد ولا تحصى، وطلبوا منه أن يدافع عن نفسه. وأبى أن يحضر أمامهم فقررُوا خلعه (وهذا كان عملاً غير قانوني). ولم يعترف يوحنا بقرارهم أولاً. ولم يجرؤ أصحاب الأمر أن ينفذوا الحكم بالقوة خشية غضب الجمهور. لكن يوحنا سلم نفسه منعاً للشقاق في الكنيسة فنفي.

وغضب الشعب في اليوم التالي لما افتقد أسقفه. وهاجت المدينة. لكن الذي شفع يوحنا في القصر هو الزلزال الذي ضرب القصر وهز أركانه. ففرقت الإمبراطورة وترك لها الإمبراطور حرية التصرف فكتبت إلى يوحنا معتذرة له راجية منه العودة السريعة؛ فعاد معزراً.

لكن الخصوم قد كانوا تكاثروا تقووا عليه. وحتى الإمبراطورة عادت فنسيت خوفها. خاصة لما أقام الإمبراطور لها تمثالاً من الفضة وضع أمام أبواب كنيسة الحكمة الإلهية. ولما احتفل الشعب بذلك اليوم رقصاً وغناء ومصارعة أمام باب الكنيسة تكلم يوحنا عن ذلك لائماً مقررّاً. فغضبت الإمبراطورة. ونظم مجمع كنسي للنظر في المسألة. لكن لم يقطع بها بسبب موقف الذين اجتمعوا المتذبذب.

وفي يوم سبت النور (17 نيسان/ أبريل سنة 404 م) طرد يوحنا من الكنيسة بأمر الإمبراطور وطلب منه أن يلزم قلايته، أي الغرفة الخاصة به. وطرد جميع الكهنة الذين كانوا في شركة يوحنا الأسقف الكبير.

وبعد عيد العنصرة بيضعة أيام أوغر خصوم يوحنا صدر الإمبراطور من جديد، فأرسل هذا إلى الأسقف طالباً منه أن يغادر المدينة محافظة على راحة الناس عموماً. فقبل القديس ذلك وخرج إلى نيقية. لكنه حمل قسراً على السير ستة وخمسين يوماً دون انقطاع حتى وصل منفاه في جبال طوروس. وقضى هناك نحو ثلاث سنوات، عندها توفي بطريك القسطنطينية الذي عين مكان يوحنا. أمّل الناس أن يعود رجلهم إليهم. لكن المتآمرين الذين خشوا أن يلين الإمبراطور أسرعوا فانتخبوا أسقفاً (بطريكاً) جديداً. لكن الشعب تنحى عن هذا الرجل الجديد، فاغتاز وظهت نذالته في أنه طلب من الإمبراطور نقل يوحنا إلى منفى جديد على ساحل البحر الأسود الشرقي. وكان الإمبراطور يومها أركاديوس، ابن ثيودوسيوس، وكان ضعيفاً من اليسير التلاعب به. ولذلك منح الأسقف الجديد الأمر الذي طلبه. وحمل يوحنا على الانتقال مشياً من جنوب غرب آسية الصغرى إلى شمالها الشرقي دون راحة أو رحمة. ولما اقترب الموكب من كومانة كان القديس قد أصبح عظماً وجلداً فتوفي وهو على بعد نحو عشرة كيلومترات من كومانة. كان ذلك في 14 أيلول/ سبتمبر (407 م).

يعتبر يوحنا الذهبي الفم، إلى مقدرته في الوعظ إلى درجة كان يحسد عليها، لأنه كان يحرك الصخر كما وصفه أحد معاصريه - إلى هذا كان واحداً من كبار الكتاب المسيحيين في العصور المسيحية الأولى.

ويوحنا يمثل الاتجاه اليوناني في الكتابة والتأليف المسيحيين. فهو أصلاً طالب أدب ولغة يونانيتين، وهو معنيّ بالفلسفة اليونانية. فهو من هذه الناحية هليينستي من الصف الأول. ودرس الكتب المقدسة في ترجمتها (أو

في أصولها) اليونانية. فليس عندنا ما يدل على أنه كان يعرف الآرامية/ السريانية، بل نحن لا ندري فيما إذا كان يعرف حتى اللاتينية.

وهو إلى ذلك من أعمدة الأرثوذكسية بالنسبة إلى ذلك العصر. ومعنى هذا أنه خصم لجميع الاتجاهات التي كانت تنأى عما استنه مجمع نيقية (325 م).

في موعظاته كان يوضح قضايا الإيمان وقواعد الحياة المسيحية للذين يستمعون إليه. وكان يحارب الشر في شخص إبليس فكانت له ثلاث خطب وثلاثة كتب (رسائل) حول هذه القضية بالذات. هذا مثل على محاربته بسبب موقفه السلبي من الأبالسة.

وفي النواحي الإيجابية مثلاً كان كثير العناية بأهمية التوبة والمحبة. هذا كان موجهاً للمؤمنين. أما الوثنيون فكان يرد عليهم اتهاماتهم مفسراً لهم الوضع شارحاً الأمر على وجه الصحة. فهؤلاء كانوا يرون في تجسد ابن الله شيئاً بعيداً. فشرح يوحنا لهم ذلك في أكثر من خطبة واحدة. وقيامه المسيح شغلت يوحنا بسبب جهل البعض الفكرة ومعناها. لذلك تقدم بتفسير وشرح لها.

ويفسر لقرائه (ومستمعيه) سبب تكريم الشهداء وأهمية الصوم وقيمة التوبة ومعنى طهارة القلب.

وقد كان يوحنا يعظ ويكتب وهو بعد في أنطاكية. فمعروف أنه ألقى في كنيسة بولس بأنطاكية ثمانية وثمانين موعظة في إنجيل يوحنا!

وكانت المؤسسات الكنسية أو الدينية تشغله فكان يوضحها للناس. ولنذكر أن أموراً كثيرة كانت قد بدت في القرن الرابع (أو نضجت فيه) وكان لابد من تفسيرها للأتباع والخصوم. من هنا كانت هذه الكتب المتعددة التي أوضح فيها شؤون الكهنوت رتباً وواجبات وخدمات، وتلك التي دافع فيها عن الرهبنة والرهبان. ففي القرن الرابع انتشر الرهبان في

منظمات مختلفة في مصر وبلاد الشام وأرض الرافدين وآسية الصغرى. وكان لابد من أن تدرس هذه الظاهرة الغريبة. ويوحنا كان خير من يمكن أن يفعل ذلك، فقد جربها، ولو أنه لم يتنسك خارج أنطاكية.

وكما كان يرد على الوثنيين فقد رد على اليهود. وقد ألقى إحدى وعشرين خطبة لمناسبة ثورة أنطاكية المار ذكرها. أظهر فيها أن المدينة أثمت فتخلى عنها، لكن يترتب على أهلها أن يعودوا إلى الله، لأن الله لا يتخلى عنهم.

ويعتبر يوحنا الذهبي الفم واحداً من المفسرين الأوائل للكتاب المقدس. فسفر التكوين بقي من تفسيراته له ثمان وخمسون خطبة. هذا فضلاً عما وضعه لتفسير إشعيا وإرميا ودانيال. ونال العهد الجديد منه حصة كبيرة: (176) خطبة في إنجيل متى ورسالة بولس إلى أهل رومة ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنث.

وقد كان يوحنا موضع اهتمام كبير عند المحدثين، فنشر المصلح أراسموس مصنف يوحنا في الكهنوت سنة (1525 م) في بازل باليونانية. وقد نشرت مؤلفات الذهبي الفم باليونانية واللاتينية في ثلاثة عشر مجلداً في باريس على أيدي الآباء البندكتيين سنة (1713 م). وأعيد طبعها في البندقية سنتي (1734 - 1741 م) وفي باريس سنتي (1834 - 1839 م). وظهرت طبعتان في السنوات (1859 - 1863 م) في ثلاثة عشر مجلداً. وهذه نقلت إلى الإنكليزية على يد شاف ومساعديه.

(راجع أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، الجزء الأول بيروت 1958 وذلك للحصول على تفاصيل عن هذا القديس).

(3) الرهبنة (أ)

يبدو أن المناطق المعزولة في فلسطين وبلاد الشام ومصر وسواها كانت دوماً تصلح ملجأ لأولئك الذين قرروا أن ينبذوا الحياة الدنيا، ويتنسكوا ويتعبدوا ويتهجّدوا بعيدين عن الناس. ويتضح من تتبع تصرف الجماعات على اختلافها، والديانات على تباين وجهات نظرها، أنها كانت تتعرض دوماً لأن تنفذ حركات التنسك إليها فتجذب بعض الأتباع بعيداً عن الدنيا. وقد تزداد الرغبة (أو قد تحمل الجماعات على مثل هذا التصرف) نتيجة ضغط سياسي، أو اضطهاد ديني، أو خيبة أمل جماعية تسيطر على فئة من الناس، فيخرج هؤلاء إلى حيث يستمتعون بحريتهم في العبادة والتأمل، بعيدين عن أيدي السلطة والجماعة. وقد مر بنا خبر الاسينيين الذين ابتعدوا عن العالم وعاشوا على هامشه.

وقد عرفت المسيحية الرهبنة، أي الابتعاد عن العالم، إما تنسكاً فردياً في خلايا خاصة قد تكون كهفاً أو كوخاً أو حتى أقل من ذلك؛ وإما انقطاعاً جماعياً حيث يعيش كل في جحر خاص به ثم يجتمعون في أوقات مقننة للمشاركة في الصلاة والعبادة؛ أو حتى في أديرة أقيمت إما في المدن أو بعيدة عنها، حيث عاشت الجماعة معاً وتعاونوا على البر والتقوى.

وقد قويت هذه النزعة في القرن الرابع الميلادي، إذ أننا نجد أن النساك المنفردين أو الرهبان المجتمعين يخرجون إلى الأماكن القصية احتجاجاً على تبدل في شكل العلاقة بين المؤسسات المسيحية والدولة. فقد تنازلت

الكنيسة عن حريتها بعض الشيء لما تقدم قسطنطين (وتبعه خلفاؤه) بوضع الكنيسة تحت حماية الدولة.

على كلٍ يجب أن يتذكر الواحد منا أنه ليس من اليسير التعميم في تفسير مثل هذه الحركات. فما أكثر ما يكون تقليد الآخرين عاملاً أساسياً في مثل هذه التصرفات! شأننا في الكثير من تصرفاتنا.

تعتبر مصر المنطلق الأول للتنسك ثم للرهبنة. فقد بدأت الحركة على يد أنطونيوس الكبير (251 - 356 م) لما انسحب من الحياة (حوالي 270 م) وانصرف إلى التنسك وحياة الزهد في الصحراء الشرقية في منطقة بني سويف شرقي النيل. وظل يتوغل في هذه المنطقة حتى أصبح يقيم في كهف يطل على البحر الأحمر. ولحق به كثيرون، وكان كل يتنسك في كهفه أو كوخه أو ما يشبه ذلك منفرداً.

لكن هذا تبدل حتى في حياة أنطونيوس نفسه. ذلك بأن آخرين قلدوا المتنسك الكبير لكنهم أخذوا يعيشون على مقربة الواحد من الآخر، ثم انتقل الأمر فأصبحوا يعيشون معاً.

ليس من اليسير أن نتحدث عن جميع النساك الذين قلدوا أنطونيوس وأصبحوا زعماء للحركة، ولكن لابد من التوقف عند باخوميوس الكبير (290 - 346 م). كان باخوميوس جندياً في جيش قسطنطين. وقد تعرف على المسيحيين في أثناء الحملات التي شارك فيها. وقد تأثر بالذين لقيهم وأعجبه تصرفهم، لذلك فإنه اعتنق المسيحية، وانضم إلى الناسك باليمون، الذي أدبه مسيحياً ودربه نسياً. وقد فهم هذه الأمور لكنه أدرك أيضاً أن النسك الفردي والزهد المجرد ليس هو ما تسعى المسيحية إليه. وأنه من الممكن تشويق عدد أكبر من الناس للانضمام إلى صفوف هؤلاء المتعبدين إذا أعيد تنظيم المعيشة بحيث تكون جماعية - فردية في وقت واحد. وهكذا ولدت رهبنة القديس باخوميوس.

كان باخوميوس محباً للنظام الذي تعلمه من الجندية، وكان مديراً حاذقاً، وكان يؤمن بالتعلم والتعليم. وقد أنشأ عدداً من الأديرة، وقيل إنه لما توفي كان عدد الرهبان في المؤسسات التي أقامها يقارب (22000) راهباً!

إن النظام الذي وضعه باخوميوس كان دقيقاً حيث شغل الرهبان كل الوقت وبشكل منظم ونافع. فإنه، فضلاً عن تقنين ساعات النهار والليل بين العمل والصلاة والخدمة العامة، اقتضى من الرهبان الإيمان والعفة والفقر والطاعة. لكن أهم ما أدخله هذا الراهب الكبير في أديرته هو العمل. فالرهبان كانوا يقومون بالخبز والطبخ والنجارة والحداة وصنع السلال وقتل الحبال والبناء ونسخ المخطوطات وحتى التأليف. فقد كان في كل دير - وكل دير كان قلعة - مطعم ومستشفى ومطحنة ومخبز ومطبخ ومخازن للحاجات الأساسية. كان الدير مستقلاً في أموره مكتفياً ذاتياً. (وكانت ثمة بقعة في الساحة الكبيرة مخصصة لدفن الموتى).

وكانت الأمية محرمة في الدير. فالذي ينضم إلى الرهبنة عليه أن يتعلم قدرأ معيناً. وكان في الدير مكتبة غنية. وقد روي أن دير بانوبوليس، مثلاً، كان فيه خمسة عشر خياطاً وسبعة حدادين وأربعة نجارين وخمسة عشر قصّاراً (للقماش) واثنان عشر جمللاً.

وكان ثمة مكان لاستقبال الضيوف.

وكانت الأديرة التي أنشأها باخوميوس مراقبة بسبب اتصالها بعضها ببعض وتنظيم إدارتها. فكل ثلاثة أديرة أو أربعة، عندما تكون قرية بعضها من البعض الآخر، كانت لها إدارة واحدة، وكان يشرف على شؤونها رئيس ينتخب من بين رؤسائها. وكان الرهبان يجتمعون بانتظام لبحث المشكلات العامة. وكان هناك رئيس أعلى لمجموع الوحدات، وهو رئيس أكبر دير. وكان المسؤولون يعقدون اجتماعين سنوياً لبحث جميع القضايا واتخاذ القرارات المناسبة.

وقد كانت هذه الأديرة تقبل بين الرهبان، فضلاً عن الأقباط (المصريين) وهم الأصل، اليونان والرومان والليبيين والنوبيين والسوريين والأحباش (الأثيوبيين) والقبادوقيين.

وقد زار هذه الأديرة وأقام فيها بعض الوقت عدد كبير من آباء الكنيسة. منهم يوحنا الذهبي الفم الذي أقام في دير بمنطقة طيبة (في جنوب البلاد) من (373 م) إلى (381 م). وقد كان بين زوارها إيرونيموس (جيروم) وروفينس الإيطالي المؤرخ الكنسي. والقديس باسيليوس الذي أدخل الرهبنة إلى قبادوقية بعد تعرفه على النظام هذا. وكان أيضاً بين الذين أقاموا في أحد الأديرة يوحنا الكاسياني من الغال الذي قضى سبع سنوات في منطقة طيبة وفي صحراء النطرون. وكان بين من جاء الأديرة زائرتين سيدتان هما أثيرا وميلاني.

وقام في القرن الخامس نظام آخر أسسه القديس شُنوت أترابي (أتريب تقع على ضفة النيل الغربية قرب سوهاج). كان شُنوت واعظاً لا يكل ولا يمل وكاتباً غزير الإنتاج. وقد كان له فضل في تأصيل القبطية الجديدة حيث أصبحت لغة الكتابة، وهي أكثر أناقة من الإخميمية السابقة. وكان خصماً عنيداً للوثنية والهلينية. وقد كان في الأديرة التي أنشأها ما يزيد على ألفي راهب وما يقرب من ألفي راهبة.

■ زار كثير من المؤمنين الأديرة المصرية وتعلموا من قوانينها، وبعضهم عاد إلى بلاده وأنشأ أنظمة رهبانية على غرار ما وجد في مصر.

ومن هؤلاء هيلاريون الغزي (حوالي 291 - 371 م). ولد هيلاريون من أبوين وثنيين في تَبَّة، وهي قرية تبعد نحو ثمانية كيلومترات إلى الجنوب من غزة. ذهب إلى الإسكندرية طلباً للعلم، فقد كانت مدرسة الإسكندرية يومها المرجع للدراسة (كان في الإسكندرية، على ما مر بنا، مدرستان: الواحدة، القديمة، وهي لليونانية والفلسفة وما إلى ذلك - السرايوم

والمتحف، والثانية لدراسة المسيحية). وهناك بدأ اهتمامه بالمسيحية فاعتنقها والتحق بالقديس أنطونيوس الكبير. وبعد أن تزود من مؤسس حركة التنسك ما حسب أنه كاف عاد إلى فلسطين (307 م) واعتكف في بيرة غزة. وقد تقاطر الكثيرون لزيارته لأن المسيحية كانت قد تغلغت يومها في النقب وأدوم (ولو أنها لم تنتشر في غزة بالذات). وزواره الكثر أخذوا عنه ونسجوا على منواله، فكثرت بيوت التنسك في ذلك الجزء من فلسطين. وكان هو يقوم بزيارات منظمة لمجموعات الرهبان والنساك المقيمين في صحراء غزة. وكانت زيارته تنتهي بتظاهرات يصرخ فيها الناس قائلين بالعربية باركنا باركنا. وقد روى ذلك القديس إيرونيμος (جيروم) في وصفه لزيارة قام بها لمنطقة ألوسا (الخلصة) (375 م). بسبب هذا الضغط الشديد الذي كان يتعرض له لأن الناس كانوا يحبونه ويحترمونه، ترك هلاريون الجماعة وشأنها وعاد إلى الصحراء المصرية. ولما قام يوليان الجاحد (أو المرتد) الذي حكم (361 - 363 م) بهجمته الوثنية مع اضطهاد المسيحيين، نرح هيلاريون إلى ليبيا ثم انتقل إلى صقلية وأخيراً استقر في قبرص إلى حين وفاته في سنة (371 م).

وقد دمرت أبنية النساك والأديرة في فلسطين أيام يوليان. وبعد زوال هذه الغمة قام أحد أتباع هيلاريون بتنظيم الرهبة من جديد. وكان رهبان هيلاريون يستعملون اللغة السريانية، ومن ثم فقد كانوا خصوماً للغة التي استعملت اللغة اليونانية. وقد كان الكثيرون من رهبان هيلاريون مثله يعظون بالعربية أيضاً.

وقد قامت في المنطقة الصحراوية وشبه الصحراوية التي تمتد من بيت المقدس والخليل في اتجاه شرقي نحو البحر الميت رهبنة وأماكن للنساك. وكان النوع السائد هنا هو التنسك الجماعي أي أن يعيش الرهبان (النساك) كل في مكانه (صومعة أو كوخ أو كهف). ولكنهم كانوا يجتمعون في أوقات العبادة. وكان خريطون أول من تنسك في فلسطين، وأقام أولى

مؤسساته في مكان حمل اسمه يومها ولا يزال، ويقع إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم. ويبدو أن هذه المحاولة الأولى هنا كانت سريانية أيضاً.

لكن يوتيميوس، أحد أتباع باسيليوس الكبير (حوالي سنة 329 - 379 م) الذي أسس أول رهبنة في قبادوقية، أنشأ فرعاً لهذه الرهبنة (405 م) في مكان إلى الشرق من مدينة الخليل. وهذه كانت أول رهبنة (أو مكان تنسك) يونانية في فلسطين.

وأقام الراهب رومانوس بعد أن أخرج هو وجماعته من بيت المقدس (على ما سنرى) جماعة جديدة تركّزت حول طقوع. وكان هذا في سنة (484 م).

وما دما قد دخلنا في قضية الرهبنات والأديرة في فلسطين، فلنشر إلى حركة من نوع آخر. إن الحجاج الغربيين الذين أخذوا يتوافدون على فلسطين منذ حوالي سنة (300 م) كانت أعدادهم تتزايد، لذلك أخذ البعض منهم يقيمون أديرة في القدس وبيت لحم وما إليهما لإقامة الحجاج. ثم أصبحت هذه الأديرة مقراً لرهبان وراهبات يقيمون في البلاد إقامة دائمة، مثل القديس جيروم والسيدة التقية باولا.

كان جيروم (إيرونيميوس) إيطالياً. ولد في سنة (347 م) وتوفي (420 م) في بيت لحم بعد أن قضى فيها آخر (35) سنة من عمره. وكان في شبابه شديد العناية بالدراسات الأدبية واللغوية. فتعلم البلاغة والبيان في رومة، وقبل سر المعمودية على يد أسقفها. وزار الشرق وقضى ثلاث سنوات في القسطنطينية يدرس العبرية واليونانية واللاهوت. وتنسك في بيرة قنسرين (خلقيس). وعاد إلى رومة سنة (382 م) فعينه أسقف (بطريك) رومة كاتباً له، وطلب منه أن يعدّ ترجمة لاتينية للكتاب المقدس. ولما توفي دماسوس، أسقف رومة، كان جيروم مرشحاً لخلافته. لكن ذلك لم يتم. فخرج جيروم من رومة ومعه مكتبته وانضم إليه أخوه والتقية باولا وصديقتها يوستوكيوم.

ووصل الجميع إلى فلسطين، وبعد زيارة لمختلف الأماكن المقدسة استقروا في بيت لحم؛ هناك شاد جيروم ديراً للرهبان وبنت باولا ديراً للراهبات. وقد أدارت هذا الدير بنفسها. وجاءت بعد ذلك ميلاني وبنت ديراً للراهبات في جبل الزيتون (القدس).

وانصرف جيروم إلى الكتابة والتأليف، فوضع شروحاً مفصلة ومفيدة جداً لأسفار الكتاب المقدس. ولكن أهم عمل قام به هو أنه أتم رغبة رئيسه السابق أسقف رومة، فنقل الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية، في ترجمة بليغة سميت: (فولغات). وهذه الترجمة هي أساس النص اللاتيني التي تستعمله الكنيسة الكاثوليكية، بعد أن أدخلت على النص الأصلي تعديلات طفيفة، ووافق عليها الكرسي الرسولي في القرن السادس عشر.

ذكرنا من قبل أن يوتيميوس الذي أنشأ الرهينة اليونانية في فلسطين كان من أتباع باسيليوس الكبير. ولأن رهينة القديس باسيليوس كان لها أثر كبير في رهنات مشرقية سنعني بها، فإنه من الضروري أن نخص الرجل وأعماله بكلمة هنا.

ولد القديس باسيليوس (329 - 379 م) في قيصرية قبادوقية (في آسية الصغرى). وذهب إلى أثينا حيث تشقف وعاد إلى بلده فعلم البيان والبلاغة، ونجح فأكرمه الناس واحترموه. لكنه كان يخشى أن تصيبه الكبرياء فوزع ماله وسار إلى البرية متعبداً ناسكاً.

وكان رئيسه الروحي يحبه، فاقترح عليه أن يرحل إلى مصر وسورية وأرض الرافدين حيث كانت تقوم جماعات كبيرة من النساك والرهبان. ففعل وعاد (سنة 359 م) فأنشأ ديراً للرهبان وعاش معهم عيشة تقشف شديد. كان يأكل مرة واحدة في اليوم، مكثفاً بالخبز والماء. ولم يترك مجالاً لقهر الجسد إلا اتبعه وسار فيه شوطاً بعيداً.

وعمل على إنشاء الأديرة - الواحد بعد الآخر - ووضع لرهبانته القوانين المناسبة. وشدد على النذور الثلاثة: الطاعة والفقر والعفة.

هذه الرهبنة كانت يونانية. لذلك فهي التي اعترفت بها السلطة الرسمية لما تدخلت الدولة في شؤون الكنيسة. ولذلك فقد قامت رهبنة كثيرة كرد فعل على هذه. أما في فلسطين فقد انقسم الرهبان واقتتلوا (على ما سنرى).

(4) الرهينة (ب)

كانت أرض الرافدين، وخاصة الأجزاء الشمالية منها، هي التي لم تنجح الهلينية فيها في هَلْيَنة المجتمع إلا في أمور سطحية، لكن الجذور ظلت آرامية. وهذا ينطبق على المدن كما ينطبق على الريف؛ ففيما نجد مدن سورية، مثل أنطاكية، هي جزر هلينستية في جو ظل في معظمه آرامي الثقافة، نجد أن أرض الرافدين لم تتطور حتى على هذا النحو. ومن هنا فإن المسيحية، لما تجذرت في تلك المنطقة، كانت تختلف عن تلك التي عرفت في سورية الغربية. فقد كانت حرة وقد اكتشفت طريقها ورسمت خططها على أسس محلية/ وطنية غير مستوردة. فلما وقعت أورهاي (منطقة إديسا/ الرها) تحت النفوذ الروماني سنة (216 م) كانت الفئات المسيحية قد انتشرت في المنطقة، وقد كانت نظمت أناشيدها وترتيباتها بلغة القوم المواطنين. وقد أصبحت المسيحية دين الأسر العربية الحاكمة. ولم تتعرض المسيحية أو الأديان الوثنية للاضطهاد الذي تعرض له الفريقان في الإمبراطورية الرومانية قبل انتصار المسيحية أو بعده. ولما استولت القوات الرومانية في أيام ديوقلتيان في سنتي (297 و 298 م) وجدت أن المسيحية كانت منتشرة هناك، وكانت مزدهرة إلى الشرق من نهر دجلة. وفي أيام يوليان المرتد (361 - 363 م) انتشرت الحركة النسكية حتى جبل طور عابدين، الذي اتخذ اسمه يوماً بسبب كثرة العباد (المتنسين) في المنطقة. وبسبب هذا التجذر الوطني - لغة وثقافة - فإن التطور العام كان أيضاً وطنياً أصيلاً، وكان في وسع المسيحية أن تخاصم المسيحية اليونانية في منطقة ظل لها الطابع المحلي، أي الآرامي/ السرياني. وقد تطورت اللغة

السريانية على أنها لغة المسيحية، وكانت إديسّا (الرها) مركز هذا التطور. وقد ظلت هذه لغة المسيحية الشرقية حتى بعد الفتوح العربية الإسلامية لمدة طويلة قبل أن تقبس هذه اللغة العربية، وهي لغة قرية من الأولى، كما نعرف.

وقد حفظت الرواية أن أول من بشر بالمسيحية في (بيت آرامية) كان ماري الذي جاء من إديسّا وجمع حوله فئة من الأتباع التي عملت على نشر المسيحية في الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الساسانية.

وقد انتشرت المسيحية بين البدو. ويعود ذلك إلى الرهبان والنسك الذين عملوا بين هذه الفئات المتنقلة.

ولنعد إلى أورهايا وإديسّا العاصمة، التي منها انطلق التبشير بالمسيحية في أرض الرافدين. وكانت اللهجة الأديسية من اللغة الآرامية قد أصبحت وسيلة أدبية لنشر المسيحية بين الناطقين باللغة (أو اللغات) السامية بما في ذلك العرب. وكان تفسير الإنجيل هنا يختلف عما كان عليه في أنطاكية والإسكندرية وإفريقية ورومة، فكراً وأسلوباً. ومع أن بعض الأعمال اليونانية كانت تترجم إلى السريانية لمصلحة الجماعات المتنصرة، فإن الأعمال الأساسية كانت توضع أصلاً بالسريانية. ولعله كان في هذه ناحية خاصة هي إدخال العنصر الميثولوجي في الكتابات المسيحية. فقد ورد في المؤلفات التي تعود إلى القرن الرابع ما وضعه أحد كتاب المسيحية باللغة المحلية وهو إفراهاط الذي كان راهباً وأسقفاً. فقد نظم اثنين وعشرين أنشودة (بين سنتي 337 و 345 م) ضمّنها وجهات نظر لاهوتية تختلف تماماً عما عرفه اليونان في تلك الأزمنة.

ويعزى إلى بار ديسان أنه وضع أنشودات ليستعملها المسيحيون، لم تكن مما يمكن أن يقبل به الفريق اليوناني.

وبسبب أن المؤرخين للمسيحية وانتشارها ركزوا اهتمامهم على أنطاكية

والإسكندرية ورومة فقد ظلت كنيسة إديسّا في الظل. لكن الواقع هو أن انتشار المسيحية في تلك المناطق كان بحد ذاته عملاً كبيراً، وهناك أسماء كثيرة مرتبطة بهذا العمل. ومع أننا لا ننوي الدخول في تفاصيل الموضوع فإنه لا بد من الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من المبشرين كان له يد كبيرة في هذه الأعمال، إن من حيث التبشير وإن من حيث «سريّة» اللغة وحملها على التعبير عن أمور كانت بعيدة، نسبياً، عن اللغة الآرامية.

وفي مقدمة العاملين اثنان: تتيان وبار ديصان (154 - 222 م). وقد تحدثنا عن تتيان من قبل، فلنذكر هنا بار ديصان الذي سماه أفرام (الفيلسوف الآرامي). ويبدو أن هذا الرجل أدخل إلى الأسرار الوثنية في منبج (هيرابوليس) ثم اعتنق المسيحية في سنة (180 م). وكان صديقاً لأبجر التاسع، ملك إديسّا، ولعلّ الفضل في اعتناق هذا الملك المسيحية يعود إلى بار ديصان. وقد كان للرجل أيد بيضاء في الدفاع عن المسيحية في كتاباته بالسريانية. لكن بار ديصان لم تحتضنه كنيسة إديسّا، فخسرت بذلك عمل واحد من كبار الكتاب بالسريانية. لكن الرجل ظل له أتباعه ومريدوه، الذين كونوا بالنسبة إلى ذلك الوقت، خطأً مستمراً لنظرته وآرائه ولغته، حيث أنه، في القرن الخامس، أصبح منارة للمسيحية السريانية (التعبير).

وقد كانت نصيبين مسيحية في شكل عام في أواسط القرن الرابع، وكان لمدرستها دور هام سنتحدث عنه فيما بعد.

■ إن الرهبنة السورية تختلف أصلاً عن الرهبنة المصرية أو الرهبنة القبادوقية (ومنها الفلسطينية). ويبدو أن نوعاً أو شكلاً من أشكال التنسك أو الرهبنة كان معروفاً قبل المسيحية أصلاً. وقد كان النحو الأول الذي اتبعه هو المتنسكون المتجولون (ويعرفون بالسريانية باسم الأكسينايون) وكان هؤلاء رجالاً ونساءً.

وقد كان أفرام (303 - 373 م) البار، كما تسميه الكنيسة، آرامياً أصيلاً،

لم يكن أفرام عالم لاهوت، ولم يكن عارفاً بالقضايا والأصول الهلينية الفلسفية. كان هذا الرجل من مواليد نصيبين من أبوين مسيحيين. وقد تتلمذ على أسقفها يعقوب، فغرف من ينابيع معرفته وتقواه. ترك الدنيا وتنسك. كان أحد معلمي مدرسة نصيبين. لكن هذه سقطت بأيدي الفرس (363 م) فانتقل منها إلى آمد ثم إلى الرها (إديسا). وهناك عهد إليه بالإشراف على مدرستها، حيث قاوم أهل البدع. وزار عدداً من النساك الذين كانوا منتشرين في بيرة الرها.

«ويرى غبطة البطريرك أغناطيوس أفرام الأول أن هذا القديس البار هو إمام اللغة السريانية الأكبر، وفارس ميدانها الذي لا يجارى. ويضيف غبطته أن أبرز مصنفات هذا القديس ميامر الشعرية... في أسرار ربنا ومخلصنا وفي البتولية والتوبة والإيمان والحياة المسيحية والكهنوت». (أسد رستم).

وقد كان الاتجاه في الرهبة نحو تمجيد العزوبة والتنسك. ومن هؤلاء متنسك اسمه أميانوس الذي اتخذ لنفسه مأوى (375 م) على رأس جبل إلى الغرب من بوريا (حلب). ولما انتقل من هذه الحياة تولى مكانه أحد تلاميذه المدعو يوسايوس. وقد تجمع حول هذا، كما تجمع حول معلمه من قبل، عدد من الأتباع، حيث أن أسقف كورش (على مقربة من قنسرين) وجد نحو (150) راهباً متنسكاً في دير هناك. وقد كان بين هؤلاء عرب وآراميون ويونان. وقد تفرع عن هذا الدير عدد من الأديرة في المنطقة.

وقد كانت الرهبة أصبحت أمراً مألوفاً في المنطقة، وكان الرهبان يقومون بنشر المسيحية ومع آرائهم. وقد قام ربولا (أسقف إديسا 411 - 435 م) بوضع نظام لرهبة تلك المنطقة، وهذا الذي التزم به بعض الرهبان في سورية الشمالية خاصة. ولعل من خير ما استنه ربولا هو أن يسمح للرهبان المرسومين كهنة أن يقوموا بالخدمات الكنسية في القرى المختلفة.

ولعله من المناسب هنا الإشارة إلى أن الرهبة السورية كان فيها شيء من

ردة الفعل ضد المسيحية اليونانية. وأهم من ذلك أن هذه الرهبنة السورية كانت الأشد والأعنف بين الرهبانيات التي عرفتھا المنطقة. فقد تفرد بعض النساك مثلاً، بالإقامة فوق عمود مثل سمعان العمودي (389 - 459 م) وهو سيد هؤلاء النفر. وقد بدأ هذا تجوله وهو بعدُ حدث، وقُبِلَ في دير، لكنه لم يكتف بذلك. إذ أنه أراد أن يقتل الجسد. وأخيراً استقر على رأس عمود. وكان الناس يجدّون في طلبه ليسمعوا وعظه وأراءه وليتبركوا به. وكان مكان هذا الرجل إلى الغرب من حلب. وما يزال هناك دير كبير بآثاره هو دير سمعان العمودي.

لكن الذي أنشأ أول دير في شمال سورية كان ناسكاً اسمه أستيريوس وكان ذلك في غنداروس إلى الشمال الشرقي من أنطاكية. ويبدو أن ذلك كان في أواسط القرن الرابع. فإن المتعارف عليه أن أقق، الذي تولى أبرشية حلب (380 - 433 م) كان قد تبتل في هذا الدير.

■ وكان بين مشهوري النساك في المنطقة السورية الشمالية مار مارون، المتوفى سنة (410 م) الذي انتبذ من دون الناس مكاناً قصياً في الكورشية، وهي منطقة تقع إلى الجهة الشمالية الشرقية من حلب، على بعد نحو ثمانين كيلومتراً. والمرجح أن إقامة هذا الناسك الكبير كانت في جبل سمعان، في المكان الذي أقام فيه فيما بعد سمعان العمودي. وقد كان اسمه في الأزمنة السابقة للعمودي: جبل نبو، ولعل ذلك بسبب معبد للإله نبو (نابو) الآشوري. وقد كان ممن زار مار مارون القديس يوحنا الذهبي الفم.

وقد كان مار مارون يعنى بالزراعة. لذلك فقد أنشأ بستاناً رهبانياً كان يشرف عليه بنفسه. والوصف الذي وصل إلينا عن معيشة مار مارون هو الذي وضعه ثودوريطس في ترجمته له. قال: «هذا (مار مارون) أيضاً زين مصاف القديسين. فإنه إذ اختار المعيشة في العراء احتل قمة جبل كان

موضوع إكرام لدى الكفار بعد أن طهره من الشياطين مكرساً إياه لله، وأقام فيه منشئاً هنالك خيمة ما استعملها إلا نادراً.

«ولم يقتصر على الأعمال النسكية المعتادة لكنه اخترع أعمالاً أعظم لكي يجمع غنى الحكمة الكاملة. فإن جزاء المحارب يقاس بعمله. ووهبه الله مواهب الشفاء حتى اشتهرت أخباره بين الناس في جميع الآفاق فتقاطروا إليه من كل صقع ومكان. وكانوا جميعاً قد علموا بالاختبار أن ما اشتهر عنه من الفضائل والعجائب صحيح. لأنه كان يخمد عنهم اضطرام الحمى المتوقدة بندى البركة وظل النعمة. وكانت الشياطين تفر من هول سطوته. فإذا كان الأطباء الحذاق يعالجون الأدوية المختلفة بأدوية مميزة، فهذا العظيم القدر كان يعالج الأمراض كافة بدواء واحد خاص وهو الصلاة... وما كفى أنه كان يرى الداء الجسداني فقط بل الروحاني أيضاً. كان يداوي الأنفس بما يوافق شفاءها. يشفي واحداً من داء البخل، وآخر من داء الغضب، وآخر يصف له دواء القناعة، ويعلم آخر قانون العدل، وآخر يُحذره من الشر، وآخر يشفيه من الضجر، ويوقظ آخر من غفلة الفتور، إلى غير ذلك من الأدوية النفسانية». (الأب بطرس ضو).

وقد أطلنا في نقل هذه العبارة لأنها في رأينا تضع بين أيدينا وصفاً يكاد ينجر على جميع هؤلاء النساك. وقد يكون الفرق بين الواحد والآخر فرقاً بسيطاً. إذ أن النية والفكرة والرغبة كانت واحدة عند الجميع.

والمدرسة النسكية السورية هي التي تميزت عن غيرها من طرق التنسك في الأقطار المجاورة بالإقامة في العراء، لا في بيت مسقوف. ويقال إن أول من مارس هذه الطريقة في سورية هو القديس مارون، وعنه أخذ بعض رهبان القورشية ثم العموديون. وقد تتكشف الدراسات عن هذا الرأي. وعلى كل فقضية السبق أو الأولوية ليست قضية مهمة أبداً.

والمهم هو أن هذه الطريقة أي التنسك بالعراء شاعت بين السوريين.

والمرجح أن مار مارون لم يكن ناسكاً فحسب، بل كان كاهناً أيضاً، أي أنه مسح بـ«حيث كان يستطيع أن يمارس الطقوس الكنسية». فقد أشار إلى هذا يوحنا الذهبي الفم في رسالته إليه إذ سماه «مارون الكاهن الناسك». وقد كرس الهيكل الوثني معبداً لله. وتكريس المعبد هو عمل كهنوتي لا يقوم به إلا رجل قد أعد لذلك بأن رسم كاهناً.

وكان مار مارون، مثل غيره من المتنسكين، يعمل على هداية السكان الذين كان الكثيرون منهم لا يزالون على الوثنية. وقد نجح الكثيرون من هؤلاء المتنسكين في محاولاتهم فعملوا على نقل الناس من الوثنية إلى المسيحية.

وقد كان لمار مارون عدد كبير من الأتباع والتلاميذ، شأنه في ذلك شأن كبار النساك والرهبان. منهم إبراهيم الناسك الكورشي الذي وصل إلى لبنان ويبدو أنه أقام في جرود جبيل مع بعض من مريديه ونشروا المسيحية هناك. وبعد أن قام بواجبه هذا عاد إلى صومعته في الكورشية. وترك هناك إبراهيم الذي عمل في منطقة أفقة والعاقورة.

وعدد أولئك الذين يمكن أن يوصفوا بأنهم تلاميذ مار مارون كبير جداً. فقد اعتبر بعض الكتاب كل من أصابه بصيص من إيمان مار مارون، ولو عن بعد، تلميذاً له. وقد انتشر هؤلاء في لبنان وأواسط سورية عاملين على نشر المسيحية حيثما أمكنهم ذلك.

والمهم أن هذه المدرسة التي أنشأها مار مارون استعملت اللغة السريانية أساساً للتبشير ومن ثم الكتابة عن المسيحية وفيها.

وقد أقيم دير مار مارون الرئيسي في أفامية (إلى الشمال الغربي من حماة) الذي بُني سنة (452 م) تكريماً لذكرى مار مارون. والبيثة الأولى للحركة المارونية كانت شمال سورية في منطقة الكورشية وجبل سمعان وحلب وجوارها. ومن هناك ثم من دير مار مارون بالذات انطلق المبشرون،

وأكثرهم من النساك والرهبان، إلى المناطق اللبنانية. فتلاميذ مار مارون هم الذين بشروا بالمسيحية في منطقة الجبة، وإبراهيم وجماعته نشروا المسيحية في منطقة العاقورة وأفقه أي في جرود جبيل. كما عمل آخرون على التبشير في جهات أخرى. والعمل الكبير الذي تم بزعامه دير مار مارون كان دفاعاً عن الخلقيدونية.

وأصاب الحركة الرهبانية ما أصاب المسيحيين بأجمعهم لما عصفت بالعالم المسيحي الخلافات بين أصحاب الطبيعتين والقائلين بالطبيعة الواحدة بالنسبة إلى المسيح. فاشتد العداء، وقد وصل الأمر، في بعض المناطق إلى القتال بعد التناوب والخصومة.

الفصل الرابع

المسيحية حتى الفتوح العربية الإسلامية

(1) القرن الخامس

أشرنا من قبل إلى أن القرن الرابع كان عصر تفجر، إذا صح استعمال الكلمة، بالنسبة إلى انتشار المسيحية. ونحن مع اعترافنا بأن لقسطنطين (305 - 337 م) فضلاً كبيراً في ذلك، فإننا لا نستبعد أبداً أن يكون للخلافات المسيحية المذهبية اللاهوتية التي قامت في القرن الرابع أثر في لفت الانتباه إلى المسيحية ومن ثم إثارة حب الاستطلاع عند الناس كي يتعرفوا إلى هذا الشيء الجديد. ثم لا يجوز أن ننسى أن هذا القرن شاهد بناء الكنائس الكبيرة وسمع أخبارها. وخاصة الكنائس المرتبطة بميلاد المسيح (بيت لحم) وصلبه ودفنه وقيامته (كنيسة الجلجلة في بيت المقدس) وغيرها. وقد يكون الناس - بعض الناس على الأقل - قد تعبوا من هذه الأنواع من العبادة التي طالعهم بها أباطرة رومة من مثل عبادة (رومة والإمبراطور) وعبادة الإله الشمس على أنها أديان رسمية يتحتم على الناس أن يقبلوها. وعلى كل فقد أقبل الناس على المسيحية إقبالاً شديداً في القرن الرابع. صحيح أنه حتى في المناطق التي عرفت المسيحية أصلاً، لأن صاحب هذه الدعوة الجديدة منها، أو من بلد قريب عليها، ظلت هناك جهات امتنعت على المسيحية واحتفظت بعباداتها الأصلية الوثنية. وهنا نرى أن هذه المعتقدات التي ظلت مقبولة حتى القرن السادس وما بعده كان من تلك الأديان التي فيها حياة والتي تبعث في أتباعها حياة، إما بسبب الهياكل الجميلة أو بسبب الطقوس الشهية أو بسبب ما فيها من أساطير جذابة أو أغان أو تسايح منعشة. إذ لا نجد، على الأقل في ما قرب من ديارنا، عبادة «لرومة والإمبراطور» تجذب إليها العباد.

وقد أثارت المثل العليا التي كان الرهبان والنساك يبدونها في تصرفهم رغبات عند الكثيرين في تقليدهم. ويبدو أن الناس كانوا، في ذلك القرن، يتحدثون عن الشؤون المسيحية حديثاً عاماً وعادياً. فقد كتب غريغوريوس النساقي يصف هذا الانغماس في الأمور الدينية، على ما بدا له عند أصحاب الحوانيت في القسطنطينية، قال: «إذا طلبت من رجل أن يصرف لك قطعة نقد فضي، فإنه سيخبرك عن أن الابن يختلف عن الأب (من وجهة النظر المسيحية)؛ وإذا استفسرت عن سعر رغيف من الخبز فإن الجواب يأتيك بأن الابن هو دون الأب؛ وإذا استفهمت فيما إذا كان الحمام جاهزاً فإن الجواب الجدي يأتيك بأن الابن مصنوع من لاشيء».

والمهم هو أن هذا الانتقال السريع إلى المسيحية بدّل في تركيب المجتمع المسيحي. فإن ما يمتاز به صوت السوق المألوف وما يراه المرء فيه من حركة ونشاط، اخترق المجالات الهادئة للهيكل المسيحي الكنيسة. وما كان يرافق المعمودية قبلاً من استعدادات اقتضتها الظروف الأولى، اختصرت الآن. وقد خففت متطلبات النظام حيث أن الحواجز بين المسيحيين وغيرهم من السكان قُصّرت. وما فقدته الكنيسة من الصفاء وربحته الإمبراطورية في تحسين معاملتها للمواطنين. وقد تأثرت العلاقات الاجتماعية، الرسمي منها والعادي، بما علمته الكنيسة من مبادئ: منها عنايتها بالمواطنين أكثر من ذي قبل؛ ومنها الاهتمام بالمجرمين بشكل فيه نوع من المواساة. ولعل أكثر تغيير كان ذلك الخاص بالإمبراطور بالذات: فقد أصبح يتصرف، ولو لم يكن ذلك دوماً، وفق قواعد سلوكية تتطلبها المسيحية من جميع أتباعها. مثل هذا التبدل المفاجئ الذي انتقل فيه الإمبراطور من رجل (أوتوقراطي) مستبد إلى إنسان يتصرف على الأسس نفسها التي يتبعها أي مسيحي.

وقد أفاد المجتمع المسيحي من هذا كله: فقد انتقل الأمر كله من حالة العداء الإمبراطوري للمسيحية إلى وضع الصديق لها. والواقع يتضح لنا عندما نستعرض هذا التاريخ في القرنين الرابع والخامس، الذي يبدو لنا في

أنصع مآتيه في التواريخ التي دونت تصرفه وتطوره. فالفكر اللاهوتي نضج وتعمق، وازدهر الفن وتحسن وضع المؤسسات المهمة بعمل الخير.

أما الكنيسة فقد أصابها، إلى جانب الخير الذي ذكر، أن الكثيرين وضعوا أموالهم تحت تصرفها تبرعاً، وترتب على ذلك أنها أثرت. وبان هذا أولاً في أنها أصبحت قوة يحسب لها حساب، وثانياً في أن عدداً من الأساقفة أخذ يعيش عيشة الأرستقراطيين. ومن هنا تعرض الكثيرون من أتباع الكنيسة الأتقياء للأذى، الجسمي والروحي، لأنهم قاوموا هذا التصرف. ومن هؤلاء الذين أودوا يوحنا الذهبي الفم، وهو، على ما مر بنا، أعظم وعاظ هذه الفترة وواحد من الذين جربوا الإصلاحات الاجتماعية الكبرى.

ومن الأمور التي تمت في القرن الرابع رفع درجة القسطنطينية إلى بطريركية سنة (381 م) وفي الوقت ذاته تقرر تقديمها رتبة على الإسكندرية. فأصبح ترتيب البطريركيات هو: رومة ثم القسطنطينية ثم الإسكندرية ثم أنطاكية. ولما عقد مؤتمر سنة (451 م) في خلقيدونية رفعت بيت المقدس إلى درجة البطريركية وأعطيت المكان الخامس.

ومما تم الاتفاق عليه وإقراره رسمياً هو أن القانون النيقاوي هو أساس الاعتراف بالإيمان.

أما من الناحية الرسمية أي تحديد العلاقة بين الإمبراطور والكنيسة فيمكن القول إن العقود الأولى من القرن الرابع هي التي حددت هذه العلاقة. إن قسطنطين (305 - 337 م) وضع قاعدتين مهمتين: الأولى أن الأساقفة ومساعدتهم هم المكلفون بتفسير القضايا اللاهوتية. أما الثانية فهي أن الإمبراطور بحكم منصبه هو الذي يقوم حكماً في حالة الخلاف بين فئتين. ومن هنا مثلاً أقر ما توصل إليه مجمع نيقية، مع أنه كان هناك مخالفون.

وقد كان لتصرف ثيودوسيوس (379 - 395 م) في هذا الأمر، أنه خطا خطوة أخرى إذ سمح لنفسه أن يختار المذهب أو المدرسة التي يشاء، ويفرض ذلك على سكان الإمبراطورية. وهاتان الخطوتان، وإن تردد بعض الأباطرة في سبيل تطبيقهما، كان فيهما أذى للكنيسة وللإمبراطورية وللشعب. خاصة عندما كان المنتصر في خصومة، عقائدية أو طقسية أو كائنة ما كانت، قوياً، فإنه عندها لا يتأخر عن معاقبة الخصوم المخذولين بكثير من العنف. حيث إن بعض ما وقع على المهزومين في هذه الميادين من الاضطهاد لا يقل عما تلقاه المؤمنون على أيدي بعض الأباطرة الوثنيين.

■ الخلافات العقائدية والانشقاقات التي كانت تعصف بالكنيسة لم تكن تنتهي عند قرار مجمع أو اتفاق يوقعه أساقفة في مجلس اقليمي. ذلك أن كل واحد من أصحاب الآراء كان يرى أنه هو وحده على حق وأن الآخرين على خطأ. وإذا أصدر مجلس أو مجمع قراراً بأن الفئة الفلانية هي من أهل البدع أصبح أعضاؤها، في نظر الخصوم، لا تجوز معاشرتهم. فضلاً عن ذلك فقد كان القوم يلجأون إلى قتال أحياناً. وهذا كان يزيد الطين بلة.

كانت الأريوسية أول خلاف جدي حدث بين الكنائس الشرقية. ومع أن حدته خفت فإنه ظل يجرر أذياله حتى القرن السابع. والواقع أن الذي خفف حدته في الشرق هو أنه وجد له متنفساً وأتباعاً في الغرب وخاصة بين جماعات من القبائل الجرمانية التي كانت تعتنق المسيحية في القرن الرابع.

ومع أن قانون الإيمان النيقاوي ثبت نهائياً في سنة (381 م) فقد ظل البعض يعتبر بعض ما فيه بقية من بدعة وضلالة. لذلك فإن الخلافات استمرت على ما كانت عليه. وكانت الإسكندرية، وهي أقدم بطريركية والثانية (بعد رومة) تتنافس على زعامة المسيحية في الشرق مع القسطنطينية.

فلما رقيت هذه بطريركية وقدمت على الإسكندرية (381 م) أصبحت المنافسة بين الكرسيين أشد وأعنف.

والخلاف العقائدي كان يقويه ويضيف إليه العنف والقتال كثرة الدسائس والدسائس السياسية والمحلية والإقليمية.

في أوائل القرن الخامس اختير نسطوريوس، وهو راهب أنطاكي وعالم وخطيب وواعظ، بطريرك القسطنطينية، (427 م). وهو في هذا شبيه بسلفه يوحنا الذهبي الفم الذي شغل هذا المنصب (398 م). والرجلان كانا يحملان رغبة في إصلاح الكنيسة ورجالها الذين أصبح تصرف الكثيرين منهم معرة على الكنيسة وعلى المسيحية والمسيحيين. وفي مقدمة هؤلاء كان بطريرك الإسكندرية الذي كان يعيش كالسلاطين.

ومثل ذلك كان بعض من كبار رجال الكنيسة في القسطنطينية. فأخذ يوحنا على عاتقه وعظهم وإرشادهم. ولما وجد أن الخصومة له قد اشتدت وأن البلاط، ممثلاً بالإمبراطورة يودوكسيا، وقف ضده، وأن بطريرك الإسكندرية استدعي إلى العاصمة لإدانته، وحكم المجلس عليه غيائياً وبتهم باطلة، أخرج من المدينة وأتعب وأضني وعذب ومات قبل أن يصل إلى منفاه.

وقف نسطوريوس من الفئات الخارجة على الكنيسة كما كان هو يفهم الكنيسة والمسيحية موقفاً عنيفاً إذ اعتزم القيام بحملة تطهير واسعة. فضلاً عن ذلك فقد كانت له آراء خاصة بألوهية المسيح وإنسانيته. وعمل على توضيح وجهة نظره بكل ما أوتي من علم ومعرفة ومقدرة على الخطابة والإقناع. وكان مؤيدو نسطوريوس يوحنا بطريرك أنطاكية والأساقفة الشرقيين أي الذين يتبعون هذا الكرسي ومجاوريهم.

وكان كيرلس بطريرك الإسكندرية (412 - 444 م) خصم نسطوريوس في آرائه. والخلاف بين الرجلين كبير. وكان كيرلس عالماً

لاهوتياً كبيراً وزعيماً لا للكنيسة القبطية فحسب، بل يكاد يكون زعيم البلد، إذ أنه كان هو الذي يسيّر أو يقود الحركة الوطنية المصرية يومها. وكان كيرلس يرى أن المسيح له الصفة الإلهية الكاملة، وهي التي اتحدت معها الطبيعة البشرية.

يرى بعض من الباحثين بأن الخلافات كان من الممكن أن تحل بالمناقشة انهادئة واعتماد الألفاظ الدقيقة، أو بعد جعلها دقيقة لتتفق مع المعاني الجديدة التي حُمِلَتْها، لكن القضية لم تكن قضية خلافات لاهوتية فحسب، بل كانت هناك أطماع ومنافع فضلاً عن خلافات مجتمعية.

وأراد ثيودوسيوس الثاني (408 - 450 م) أن يضع حداً لهذه الخلافات والمهاترات والدسائس التي رآها تعصف بالكنيسة، فدعا، على عادة أسلافه وخلفائه، إلى مجمع يعقد في أفسوس سنة (431 م). جاء كيرلس ومؤيدوه، واستطاع أن يستميل ممنون أسقف أفسوس إلى جانبه، وتأخر أنصار نسطوريوس وهم يوحنا بطريرك أنطاكية وأساقفته (أو لعلهم أعيقوا في الطريق عمداً) عن الوصول في الوقت. وتعهد كيرلس أن يفيد من ذلك فأصدر مع ميمون قراراً بقطع (أو حرمان) نسطوريوس. فلما وصل يوحنا الأنطاكي قطع (أي حرم) كيرلس وممنون. وقد وافق ثيودوسيوس على القرارين وطرد الثلاثة من مناصبهم.

قبل نسطوريوس أمر الإمبراطور وخرج من العاصمة عائداً إلى ديره، ثم نفي إلى البتراء وأخيراً نفي إلى ليبيا حتى قضى بقية عمره في واحة نائية (توفي في سنة 452 م).

وتبع هذا المجمع الذي ظلت قراراته (عدا ما خص نسطوريوس) معلقة في الهواء هدنة. فقد عاد كيرلس إلى الإسكندرية وصرف شؤون بطريركيته وجماعته وظل ممنون في أفسوس. ويبدو أن الجميع قد تعبوا بعض الشيء فكان هناك هدنة عقائدية استمرت بضع عشرة سنة. لكنها تحركت ثانية.

وكان أوطيخة راهباً زاهداً ورعاً محترماً. وكان البلاط يجله. وقد رأى أوطيخة رأي كيرلس، ولعله تقدم حتى على كيرلس فقال إن الطبيعة الإنسانية في المسيح امتزجت بالطبيعة الإلهية حتى تلاشت فيها «تلاشي نقطة خمر وقعت في ماء». فالمسيح كان، في رأيه الواضح، أقنوماً واحداً وطبيعة واحدة. ونشر أوطيخة آراءه في العاصمة. ووقف لأوطيخة في المرصاد دومنوس الذي كان يقول بغير ذلك. وبعث إلى الإمبراطور بشكوى ضد أوطيخة. وكان دمنوس قد أصبح أسقف أنطاكية (441 م) وظل في المنصب حتى سنة 449 م).

وقد أصدر الإمبراطور (448 م) إرادة حرّم فيها تعاليم نسطوريوس وجميع المصنفات التي تخالف نصوص نيقية وأفسوس وقراراتهما. وهنا بدأت الدسائس ونشرت الأكاذيب حول مختلف رجال الكنيسة، وقد كان ديوسفوروس خلف كيرلس بطريقاً على الإسكندرية (444 - 451 م). وهو لم يكن أقل مقدرة على الدس ونشر الإشاعات من غيره. فضلاً عن أنه كان أعنف من سلفه كيرلس.

ارتأى الإمبراطور أن يدعو إلى مجمع ثان في أفسوس (آب/ أغسطس 449 م). واختار الإمبراطور بعض الأشخاص لحضور المجمع ومنع آخرين من الحضور. وقد اجتمع هذا المجمع (الهزؤ) بمئة وثلاثين من الاساقفة (بل لعل العدد تجاوز هذا الرقم). وكانت القرارات تصدر عشوائياً كما يبدو، لكن كل شيء كان قد دبره ديوسفوروس ومحازبوه. واغتنم هذا بلبلة أحدثها هو وصحبه فاستعان بممثلي الإمبراطور. «ففتح هؤلاء أبواب الكنيسة وأدخلوا إليها الجند والرهبان والبحارة المصريين وغيرهم من عناصر الغوغاء. وعبثاً حاول فلايانوس (أسقف القسطنطينية) الالتجاء إلى قدسية المذبح، فإن الرهبان جروه جراً فوق على الأرض فداسه ديوسفوروس وجماعة برصوم وأخرج خارجاً وسجن وتوفي بعد ثلاثة أيام وهو في طريقه إلى المنفى. واتهم ديوسفوروس بقتله فعلاً». (أسد رستم).

وقد سمي هذا المجمع «بالمجمع اللصوصي» بسبب ما جرى فيه من أضاليل وأكاذيب وما مرتت به من قرارات مبنية عليها.

ووقف ثيودوسيوس من هذا كله موقف الموافق لأنه رفض طلب كثيرين، ومنهم الأسقف الروماني، في وجوب عقد مجمع مسكوني لإعادة النظر وتصحيح الأوضاع. لكنه كان يقول إن ما جرى كان كافياً وإنه لا حاجة إلى عقد مجمع آخر.

فلما تولى العرش مرقيان (450 - 457 م) دعا إلى مجمع مسكوني، كان هو الرابع الذي عقد في خلقدونية سنة (451 م). وقد لبي دعوة الإمبراطور خمسمئة أسقف (وقيل إن العدد كان أكبر من ذلك إذا حسبنا بعض الشيوخ والشماسة الذين انضموا إليه). وانعقد المجمع في خلقدونية. وكان مندوبو البابا ليون الكبير (441 - 461 م) متوجهين إلى الحضور وهؤلاء حملوا معهم «الرسالة» (المعروفة باسم طومس⁽⁵⁾) التي حررها البابا (أصلاً إلى فلايانوس أسقف القسطنطينية الذي عُذب وضُرب وأُهين في مجمع أفسوس الثاني 449 م).

وهذه الرسالة تلخص التفكير اللاهوتي الغربي (الذي كان يتفق مع تفكير القسطنطينية وأنطاكية أصلاً) وقد صيغ باللغة اللاتينية. وخلاصة ما فيها أن المسيح شخص (أو أقنوم) واحد له طبيعتان. ويبدو أن استعمال اللغة اللاتينية كان أوضح وأصفى من اللغة اليونانية التي بلبلتها الفلسفة كثيراً، وزاد في بلبلتها، بالنسبة إلى اللاهوت، النقلة التي اضطرت إليها بسبب التطور الفكري العقائدي المسيحي.

على كل كانت الرسالة واضحة وهي تتفق مع وجهة نظر القائلين بالطبيعتين في المسيح. وقد يكون هناك خلاف في أسلوب التعبير.

كان القصد الأصلي من مجمع خلقدونية تصحيح الأخطاء التي آل إليها المجمع اللصوصي (449 م) كما سمي. فتقرر خلع ديوسفوروس من

منصبه، وطلب من رجال الدين الأنطاكيين أن يدينوا نسطور يوس.

على أن مندوبي الإمبراطور ألخوا على المجمع بوجوب وضع وثيقة عقائدية واحدة - سواء قبل المجمع فكرة الطبيعة الواحدة أم رأي الطبيعتين بالنسبة إلى المسيح. واستجابة لهذا الإلحاح وضع المجمع، على يد لجنة مثلت جميع الآراء، مشروع اعتراف هذا نصه (مترجماً): «إننا نعلم جميعنا تعليماً واحداً تابعين الآباء القديسين. ونعترف بابن واحد هو نفسه ربنا يسوع المسيح. وهو نفسه كامل بحسب اللاهوت، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت. إله حقيقي وإنسان حقيقي. هو نفسه من نفس واحدة وجسد. مساو للأب في جوهر اللاهوت. وهو نفسه مساو لنا في جوهر الناسوت مماثل لنا في كل شيء ماعدا الخطيئة. مولود من الأب قبل كل الدهور بحسب اللاهوت. وهو نفسه في آخر الأيام مولود من مريم العذراء والدة الإله بحسب الناسوت لأجلنا وأجل خلاصنا. معروف هو نفسه مسيحاً ابناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير (أو لا تمازج) ولا انقسام ولا انفصال من غير أن يُنفى فرق الطبائع بسبب الاتحاد بل إن خاصية كل واحدة من الطبيعتين مازالت محفوظة، تولفان. كلاتهما شخصاً واحداً أو أقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا مجزئاً إلى شخصين. بل هو ابن ووحيد واحد هو نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح كما تنبأ عنه الأنبياء من البدء، وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه وكما سلمنا دستور الآباء» (أسد رستم).

رمى مارقيان من وراء ذلك إلى وضع نص يمكن أن تقبل به الكنائس جمعاً، وبذلك يعيد إلى المسيحية والكنيسة وحدتها. لكن ذلك لم يتأت له، ولم يتأت لغيره.

فالذي حدث بعد ذلك هو ما عرف بالانشقاق الخلقيدوني. يمكن تلخيصه بثورة قام بها الرهبان الآراميون/ السريان (السوريون) المترهبون في

فلسطين. وقد رافقها شغب كبير احتاج إلى الاستعانة بالجند لوضع حد له. وقامت في الإسكندرية حركات دينية وطنية وأخذت كنيستها بقاعدة الطبيعة الواحدة. ولم تكن الإسكندرية أو بيت المقدس (وجنوب فلسطين) الوحيدتين في ذلك. وستحدث عن كنيسة الطبيعة الواحدة وانتشارها في المنطقة العربية (وخارجها) في الفصول التالية.

وقد تأتى الأباطرة البيزنطيون في فرض رأيهم هذه المرة. إذ تركوا الأمور تستقر بشكل من الأشكال. ومع ذلك فإن زينون (476 - 491 م) نشر وثيقة سماها أوتوطيقون، وذلك سنة (482 م) وهي التي يمكن أن تسمى (وثيقة الوحدة). كانت الوثيقة معتدلة وصحيحة ولم تشر إلى التطرف قط. ويبدو أنها قبلت لأن المسؤولين من رجال الدين، أو البعض على الأقل، تعبوا من الجدل والمناقشة والخلافات.

وقد وضع حداً لهذه الفترة من السلام تدخل بابا رومة فيلكس الثالث (483 - 492 م). فقد قطع (أي حرم) أكاسيوس بطريرك القسطنطينية، لأنه تجنب استعمال الحدود الخلقونية. فشجع هذا جميع خصوم الوثيقة ومؤيديها على التخلي عنها. وهذا الذي كان يحدث دوماً. فإذا تقدم المعتدلون في القسطنطينية بقبول آراء أصحاب الطبيعة الواحدة تصدت رومة لهم وحرمتهم؛ فإذا تصالحوا مع الغرب قامت قيامة الإسكندرية ومن ورائها مصر بكاملها.

(2) القرن السادس

كانت قضايا المسيحية والكنيسة معها مرتبطة، في الفترة التي عرضنا لها والتي تلتها، بموقف الإمبراطور من القضايا بأجمعها. ويمكن أن نقول أيضاً إن نشاط الإمبراطور بالذات كان يؤثر في سير الأمور مسيحياً وكنسياً.

من هنا كان اعتلاء يوستنيان العرش (527 - 565 م) فاصلاً زمنياً هاماً في هذه الأمور. خاصة أن زوجته، الإمبراطورة ثيودورا، لم تكن أقل منه نشاطاً واهتماماً بشؤون الكنيسة.

كان ليوستنيان غرضان أساسيان في حياته: إحياء الإمبراطورية الرومانية وإحلال السلم والوفاق في الكنيسة. وقد نجح في المهمة الأولى إلى درجة كبيرة، فأعاد أجزاء من الإمبراطورية الغربية (التي سقطت رسمياً سنة 476 م) في أوروبا وإفريقية. لكنه أجهد موارد الدولة البيزنطية في المال والقوى العاملة وأنهك الناس في سبيل ذلك. وكانت النتيجة مؤقتة. فقد انتهى الأمر حتى في أيامه تقريباً إلى ما كان عليه من قبل.

أما فيما يتعلق بإحلال السلم والوفاق في الكنيسة فلعل الأمر كان مخففاً بالمرّة. فقد كانت سياسته الدينية تقوم على أساسين. الأول أن استتباب الأمن في الدولة وازدهارها يقومان على القبول بالرأي الديني الذي يعترف به الإمبراطور وشعبه. والأساس الثاني أن واجب الإمبراطور الأول هو أن يرعى وحدة الكنيسة وصحة المعتقد. ولذلك فقد كان هم الإمبراطور (والإمبراطورة) أن يفرض على الشعب بكامله ما توصل هو إليه من رأي

وعقيدة. وكان هو يقف إلى جانب الخلقيدونيين أي القائلين بالطبيعتين. ومع أن يوستنيان لم يدمغ المونوفيسيين (القائلين بالطبيعة الواحدة) بالهرطقة، فإنه لم يقبل حتى ببعض لاهوتيينهم الذين قد كانوا عاشوا وكتبوا وبشروا في القرن الخامس، وقد كانوا توفوا قبل أيامه بمدة طويلة.

ومع أن يوستنيان استعمل جميع وسائل الإقناع والشدة فإن المونوفيسيين لم يقبلوا بآرائه. فهم، مثل القائلين بالطبيعتين، ما كان يرضيهم إلا عودة الفريق الآخر عن رأيه ويرجع إلى الصواب. ووقف كل فريق على سلاحه: وكان سلاح الإمبراطور أقوى وأشد لكنه لم ينجح.

ولم تكن لخلفاء يوستنيان الذين حكموا فيما تبقى من القرن السادس سياسة واحدة. إذ كان الواحد يؤيد الخلقيدونيين فيما كان الآخر ينحاز إلى خصومهم.

نود أن نشير هنا إلى ثلاثة رجال كان لهم يد كبرى في المحافظة على المونفيسية وهم يعقوب البرادعي وثيودور وبطرس المصري (وستحدث عنهم فيما بعد). وجميعهم كانوا من رجال القرن السادس.

والذي انتهى إليه الأمر أنه في نهاية القرن السادس كانت الكنيسة الشرقية قد انشطرت وحدثها السابقة. فقد قبل بطاركة القسطنطينية والجماعات اليونانية (لغة وثقافة) في المناطق الساحلية من سورية المبادئ الخلقيدونية. وكان لها في مصر حفنة من الأتباع. أما مصر وفلسطين والأجزاء الداخلية من سورية وأرض الرافدين فقد كانت تقول بالطبيعة الواحدة. وكان الموارنة من القائلين بالمذهب الخلقيدوني.

ويمكن القول إجمالاً إن التدخل القوي للدولة في شؤون الكنيسة والمسيحية كان سبباً أساسياً في الانفصال والانقسام. وقد تداخل في هذا الأمر شعور قومي قوي ضد الإمبراطورية البيزنطية. فأصبح اعتناق المونوفيسية دليلاً على الوطنية.

يبدو أن المسيحية وصلت إلى العربية بعيد انتقال المسيح بيضع سنوات، ويبدو أن ذلك كان على يد بولس. وبعد أن استولى الرومان على البتراء وجدت المسيحية سبيلها إلى بلاد الأنباط. ونحن نعرف أنه بعيد احتلال البتراء أحدث تراجان ما سمي باسم (الولاية العربية) وجعل بصرى العاصمة. وقد انتشرت المسيحية بشيء من السرعة في تلك المنطقة، وبعضها كان بلاد أدوم من قبل (وظلت تحتفظ بالاسم طويلاً). والطريف أن انتشار المسيحية كان في الضواحي المحلية للمدن الهلينية والهلينستية، وهي في طبيعتها تتكون من السكان الآراميين، أقوى وأسرع منه في المدن نفسها.

ومع انتشار المسيحية انتشرت وجهات النظر المختلفة حول تفسير العقيدة، وهو ما أسماه أصحاب السلطان يومها البدع (أو حتى الهرطقات). فالمارقونية (صاحبها مارقيون 90 - 165 م) كانت معروفة في سورية الداخلية وفلسطين والولاية العربية، وظلت على ذلك حتى القرن الرابع. لكنها كانت تجتاز فترة انزواء في غرب سورية.

على أنه لا انتشار المسيحية ولا حركات الانقسام التي رافقت ذلك، كانت متسقة. فقد ظل الفلاحون في أدوم وثنين حتى القرن الرابع، وعندها تنصروا على أيدي الرهبان. ومع ذلك فإن سكان غزة نفسها، وهي قرية من المكان الذي بدأ فيه هيلاريون حركته التنسكية، ظلت على وثنيتها حتى في القرن الخامس.

وما يجب تذكره هو أن سورية، بسبب تمكن الهلينستية من بعض مدنها، كانت أقرب إلى التفسير اليوناني منها إلى التفسير الآرامي. وقد عملت الإسكندرية على ضرب الاتجاه غير اليوناني، لأنه كان يدل على محاولة للتحرر من النير اليوناني.

والجماعات المستقرة في الولاية العربية وفي منطقة دمشق وفي أواسط

فلسطين وجنوبها كانت عربية العنصر مع أنها كانت تتكلم الآرامية - ولعلها كانت تستعملها لغة ثانية لأهميتها بالنسبة إلى المنطقة بأجمعها. ومن الطريف أن الطقس الكنسي والخدمة الإلهية كانا يقامان باللغة اليونانية على يد الأسقف أو مساعده. لكن الإنجيل والعظة كانا يترجمان شفويّاً إلى اللغة الآرامية على يد شيخ من شيوخ الكنيسة. ويبدو أن بعض الترانيم كانت تترنم بالعربية!

كانت تقوم بين الرومان من جهة وخصومهم إلى الشرق (الساسانيين) منطقة عربية. وقد كان سكانها، في أغلب الأحوال، مستقلين، كما كانوا أيام الحروب بين السلوقيين والفرثيين. إنهم قوم عنوا بالتجارة وكان في مصلحتهم ومصلحة الجيران المتخاصمين أن يدعوهم وشأنهم ليقوموا بدور التاجر.

هذه المنطقة واسعة، وليس لها في الواقع حدود معينة. كانت القضية قضية من يمنح هؤلاء البدو امتيازات ويقبل بعملهم أكثر مما كانت قضية حروب وفتح وسيطرة مباشرة. وفي هذه المنطقة التي كانت ألصق بالفرات تجارياً منها بدجلة، انتظمت شؤون مدن ممالك هي البتراء وتدمر والحيرة، فضلاً عن قبائل ظلت لها صفة التنقل في منطقة أوسع. من هؤلاء الصفويون الذين أقاموا في منحدرات حوران الشرقية حتى دورا وتدمر.

زعماء هذه القبائل كانوا يسمون فيلارك. وكانوا يرتبون أمورهم مع الرومان ثم مع البيزنطيين في الجهة الواحدة أو مع الفرس فرثيين أو ساسانيين في الجهة الأخرى، في هذه الجهة كانت الحيرة هي النقطة الرئيسية. وكان زعماءها، أو ملوكها، المناذرة أحلافاً لكيسيفون (المدائن فيما بعد). أما الجهة الغربية فقد تقلب على التحالف فيها مع الرومان والبيزنطيين قبيلة سَليح التي أقامت شرقي بصرى. وفي الوقت الذي كان بنو سَليح المتزعمين

في المنطقة التي وصلها بنو غسان (القرن الثالث) وكان للضجاعة صلات بالبيزنطيين. وتقوى بنو غسان وأصبحوا (منذ سنة 529 م) حلفاء البيزنطيين الرسميين، لكن تنوخ كانت تقيم (أو تظعن) في منطقة تقع بين نهر الفرات وخط من المدن يمتد من قنسرين إلى حمص عبر حماة.

فضلاً عن ذلك فقد كانت تقوم، بين الحين والآخر، تجمعات بدوية أفرادها مسيحيون فكان لهم أساقفة خاصون بهم. ففي سنة (427 م) رسم جوفنال، أسقف القدس، بطرس، وهو زعيم بدوي متحضر، أسقفاً على المضارب (التجمعات البدوية).

كانت القدس حتى ذلك الوقت أسقفية. وفي سنة (451 م) في مجمع خلقيدونية، بدّل جوفنال أسقف القدس موقفه فانضم إلى الحزب المؤيد للخلقيدونية أي القائل بالطبيعتين. فكوفئ على ذلك بأن جعلت القدس بطريركية واختير هو أول بطريرك مستقل.

في القرن الخامس الميلادي كانت ثمة خرجة عربية قوية (من الجزيرة) انتشرت عشائرها وقبائلها في سورية وفلسطين وأرض الرافدين. ويبدو أن هذه الجماعات كانت ذات قوة وعدد، لذلك فقد احتاجت إلى حملة بيزنطية قوية أرسلها أنستاسيوس الإمبراطور سنة (498 م). وقد تغلب البيزنطيون على حجر بن الحارث بن عمرو رأس كندة وحلفائها. وفي هذا الوقت بدأت محاولات بني غسان (لإزاحة بني سليح عن مكائهم. لكن بيزنطية كانت ما تزال متمسكة ببني سليح، ولأن أنستاسيوس عقد سنة (502 م) معاهدة مع الحارث بن عمرو الكندي، كان على بني غسان أن ينتظروا حتى سنة (529 م) ليصح لهم ما أرادوا. على أنهم بدؤوا بداءة صحيحة لما عهد الإمبراطور البيزنطي للحارث بن جبلة الغساني بحماية معابر وادي السرحان، الذي كان يصل أواسط الأردن بالمناطق الشمالية من الجزيرة عن طريق تيماء ودومة الجندل (الجوف اليوم).

ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن مجمع خلقيدونية حضره أساقفة عرب هم يوحنا (أسقف العرب في أورهاي - إديسّا)؛ ويوشاسيوس أحد خلفاء الأسقف موسى. وموسى هذا هو الذي اختارته ماوية⁽⁶⁾ التنوخية التي خلفت زوجها أمير تنوخ المعاصر لفالنس الإمبراطور (364 - 378 م) والتي هاجمت الدولة البيزنطية ونجحت في المارك ضدها على نحو ما فعلت زنوبيا. والغريب أن زنوبيا عينت أسقفاً على أنطاكية هو بولس السميساطي، وماوية اختارت أسقفاً على شعبها.

وكان بين الأساقفة العرب في مجمع خلقيدونية يوحنا أسقف المضارب (التجمعات القائمة بين القدس والبحر الميت) ويوحنا أسقف العرب البدو ومركزه في حوارين بين دمشق وتدمر) وقد كان هذا من القائلين بالطبيعة الواحدة (مونوفيسي).

كانت أرض الرافدين، وخاصة الأجزاء الشمالية منها، هي المنطقة التي تميزت بأن الصدام بين تفسيرين للمسيحية تطور فيها. وكان معنى هذا تصميم عالم الآرامية على التحرر من المسيحية اليونانية. إن الهلينية مست السطح في الحياة الآرامية لكنها لم تتغلغل في الصميم. وقد كانت أكثر المدن السورية، على ما مر بنا، مثل أنطاكية، جزراً هليينستية في جو ثقافي آرامي طبيعي. ويدل على هذا أن ضواحي مثل هذه المدن اليونانية التي كان يقيم فيها العمال كانت آرامية الأسماء والصفات الاجتماعية. ومع الزمن، ولما استقر الرهبان في المنطقة وأخذوا على عاتقهم تفسير المسيحية للمؤمنين ونشرها بين الوثنيين استطاعوا أن يحولوا الشعب عموماً من المسيحية التي تناصرها الدولة إلى المونوفيسية.

أما في أرض الرافدين فقد كان تطور الحركات المسيحية مختلفاً تماماً. فقد سار المسيحيون هناك في مسارات خاصة بهم، دون أن يكون للهلينية معوقات لذلك. وكانت المسيحية دين زعماء القبائل العربية. ولم يحدث أن

عرفت أرض الرافدين الاضطهاد الديني الذي عرفته المناطق الرومانية قبل اعتراف الدولة بالمسيحية أو بعده.

لما استولت رومة على أرض الرافدين على عهد ديوقلتيان، سنتي (297 - 298 م) وجد أصحاب الأمر أن المسيحية كانت منتشرة في المنطقة هذه، وفي الولايات الأخرى التي تنازل عنها الساسانيون المغلوبون للرومان. كانت الجماعات المسيحية قائمة في شمال أرض الرافدين وفي منطقة بابل وبين الأرمن في الجهة الشرقية من نهر دجلة. والمعروف أنه في أيام يولييان الجاحد (361 - 363 م) أصبح دير طور عابدين، على ما مر بنا، عامراً بالنساك والمتعبدين، كما كان قد أصبح مصدراً من مصادر التنوير المسيحي.

وكانت المسيحية هنا، كنيسة وجماعة، قليلة الاحتفال بالسلطة الرسمية، وقد اتبعت المسيحية هنا الطريق الطبيعي خاصة فيما يتعلق باللغة. وكان القوم يحسون أنهم ظلوا، من الناحية الاجتماعية والنفسية، على ما كانوا عليه. والسبب الأصلي هو أن اللغة لم تتغير. فالسريانية، نعود ونكرر القول، هي الآرامية بعد أن تنصرت.

ولم تكن لا المناطق العربية عنصراً ولغة ولا الآرامية لغة أصلاً، محددة تماماً، ولا كانت منعزلة. وكانت إديسا المركز الفكري والأدبي والديني واللغوي.

وقد انتشرت المسيحية في غرب الإمبراطورية الساسانية الفارسية. لكن الأتباع لم يكونوا فرساً، بل عرباً استقروا في تلك الجهات من أقدم الأزمنة. وفي الأثر أن رجلاً اسمه ماري، وهو من إديسا، كان أول من جمع حوله فئة من الشباب المتعلم المتحمس وأخذ ينشر المسيحية في المنطقة: بيت غارماي وبيت أرامياي. وقد أصبح أحدهم، واسمه بابا بار عجاي (الآرامي) أول أسقف في العاصمة الساسانية كتيسفون بين سنتي (275 و 298 م).

وقد جذبت المسيحية البدو الكثيرين في المنطقة. ويعود الفضل في ذلك للربان الكثر الذين عمروا تلك الجهات، على نحو ما كان الأمر عليه في المناطق الغربية.

ومع أن إديسا كانت المركز الأكبر للمسيحية وآدابها، حيث كانت بعض الأعمال المسيحية المكتوبة باليونانية تنقل إلى السريانية، فقد كان ثمة مراكز أخرى أهمها نصيبين. وقد مر بنا أخبار تتيان وبار ديسان من قبل، فلا حاجة إلى التحدث عنهما هنا ثانية.

حري بنا أن نتذكر دوماً أن أجزاء كثيرة من هذه المنطقة الواسعة التي نتحدث عنها هي مناطق انتقالية - يقيم الفلاحون في أجزاء منها، ويتنقل البعض بين البادية والمزروع، لأنهم يسوقون أنعامهم سعياً وراء الكلاء والماء. وقد يكون فيهم البدو دائمو التنقل والحركة. والجميع يتعاونون في سبيل العيش، لكن ذلك لا يمنع خصومتهم وتقاتلهم. ولم تخرج الأجزاء الحدودية، إن صح التعبير، السورية والبابلية والميزوبوتامية عن ذلك. والشعوب التي تعمر هذه المناطق هي عربية النجار، ولو أن بعضها أخذ باستعمال الآرامية بسبب العمل المستمر مع المتكلمين بهذه اللغة، وقد كانت لغة التخاطب والتكاتب والتجارة والمعاملات الرسمية فترة طويلة. والواقع أنها لم تفقد صولتها إلا بعد انتشار اللغة العربية في المنطقة الأوسع بدءاً من القرن السابع للميلاد. (على أنه يجب أن نذكر أنها ظلت تستعمل في نواح كثيرة حتى بعد ذلك - إما بصيغتها الآرامية أو بثوبها السرياني).

ومن اليسير أن يتعرف المرء، ولو من قصص أيام العرب، على الخلافات الصغيرة المستمرة التي كانت تقوم بين فئات بدوية. لكن الذي كان يبدل الأوضاع تبديلاً كاملاً، كانت الهجرات الكبيرة كمثل هجرة بني تنوخ في القرن الثالث أو مجيء بني تغلب في القرن السادس. عندها كانت الخريطة

البشرية يعاد رسمها لأن القوي كان يطرد الأضعف، وهذا ينتقل إلى مكان آخر وقد يُخرج غيره من بلده ليستقر فيه.

ومن الطبيعي أنه عندما تدخل فكرة جديدة إلى منطقة مثل الذي ذكرنا، والتي تحوي هؤلاء الناس مختلفي الأسس الاقتصادية والاجتماعية - من فلاحين إلى بدو متنقلين مع حيواناتهم وأنعامهم إلى بدو متنقلين بلا أنعام لكنهم يحملون المتاجر والسلع - من الطبيعي أن تكون ردود الفعل عندهم مختلفة. وهذا ما حدث بالنسبة إلى انتشار المسيحية في هذه المنطقة الانتقالية. فضلاً عن ذلك فهناك الوضع السياسي المترجح بين الفرس والبيزنطيين، الذين كان القتال يغلب عليهم وعلى حياتهم.

وقد انتشرت المسيحية بين السكان على درجات متفاوتة، ولكنها في القرن الرابع قد كانت أصبحت أمراً مألوفاً بين الناس. وقد روي أن مَسْكَنَهُ في جنوب أرض الرافدين، كان لها أسقف (244 م). وقد حضر مراقب باسم أسقف عرب أرض الرافدين الشمالية مجمع خلقدونية سنة (451 م). وبين السنتين نقف على أسماء أساقفة أو كهنة سيموا للقيام بالأعمال الكنسية للطوائف المسيحية المختلفة، ولو أنها أخبار هي إلى التفت أقرب.

ومن هذه التفت استطعنا أن نكون بضعة أخبار متألفة. ومن هذا يبدو أن المسيحية وصلت إلى مدن كثيرة آرامية الثقافة واللغة من التي كانت تحت النفوذ الساساني، وكان ذلك في القرن الثاني للميلاد. فمنها كركا (كركوك) التي كان لها أسقف في وقت مبكر نسبياً. ومنها الحضر التي حظيت بأسقف سنة (241 م). ومنها كشكر (واسط فيما بعد). وقد كان لأساقفتها أدوار في حضورهم مجامع النساطرة كما يبدو من توقيعاتهم. ومثل ذلك يقال عن الأنبار التي كانت مدينة عربية الوجه واللسان، وكان أهلها ينتسبون إلى معدّ. وتكريت التي أصبحت مركزاً من مراكز الكتابة والتأليف في المسيحية.

ولو كنا نكتب تاريخاً مفصلاً لانتشار المسيحية بين العرب في المنطقة المذكورة لتوجب علينا أن نؤرخ لعدد من القبائل والزعماء من مثل الأزديين واللمخيين. لكننا لا يمكن أن نغفل الحيرة لأنها أصبحت مع الوقت مركزاً مهماً انطلق منه كثيرون للتبشير بالمسيحية في مناطق من الجزيرة تبدو نائية، لكن الآراء والأفكار لن تعد من ينقلها.

والرواية تعزو إلى عمرو بن فهم اتخاذ الحيرة عاصمة له. ولما استقر الأمر للحيرة عاصمة ودار أمانة ومركز تجارة، عرف سكانها باسم «العباد» والمقصود بذلك المسيحيين، سواء كانوا من أهلها أم من الطارئين عليها.

وقد استقر أسقفها النسطوري فيها سنة (410 م) وهو حوزياً، وقد استمرت الحيرة وفيها أساقفتها حتى وقت متأخر. وقد كانت الأسرة اللخمية الحاكمة في الحيرة محايدة بالنسبة إلى المسيحيين. أما أعضاء الأسرة فلعلهم لم يعتنقوا المسيحية، بل إن المعروف أنهم ظلوا يعبدون العزى.

هنا موضع ملاحظة. أشرنا هنا وهناك إلى أسقف نسطوري هنا وآخر مونوفيسي هناك. فهل كان ثمة صورة عامة أو خريطة ولو جزئية لتوزيع هذه الفرق المختلفة في المناطق البعيدة عن المدن الرئيسية؟

نعم. وسنعرض لها في الفصل التالي.

(3) الخلافات

■ إن الخلافات اللاهوتية التي عرفها القرن الخامس، والتي استمرت بعد ذلك، يمكن أن تلخص في الأمور التالية:

أولاً: إن أتباع الخلقيدونية، الذين عرفوا بالملكين لأنهم وافقوا الملك (البيزنطي) على رأيه تمثلهم بطريكة القسطنطينية وبطريكية أنطاكية (اليونانيو الاتجاه منها) والفئة اليونانية في مصر.

ثانياً: هناك المونوفيسطيون (أتباع الرأي القائل بالطبيعة الواحدة) وهم، في غالبيتهم، من سكان الأجزاء الشرقية من سورية.

ثالثاً: كان هناك النساطرة، وهم السوريون الشرقيون. هؤلاء هم الذين أخرجوا من الإمبراطورية البيزنطية، فامتدوا شرقاً.

وقد قامت بين الفئات المتباينة خلافات ذات قيمة، لا من الناحية اللاهوتية فحسب، بل من الناحية التنظيمية والاجتماعية أيضاً. فقد حسبت الفئات الناطقة باللغة الآرامية/ السريانية أن المسيحيين الناطقين باللغة اليونانية هم «غرباء» عنها. والشيء الوحيد الذي ملأ الفراغ الذي قام بين الفريقين كان الحركة الرهبانية والتنسكية.

أما فيما يتعلق بالمسيحيين المقيمين في أرض الرافدين فإن وضعهم كان مرتبطاً بالدولة التي يتبعون. ففي الإمبراطورية البيزنطية كانوا من أعوان الدولة أو أدواتها. أما بالنسبة إلى الدولة الفارسية فقد كانوا يتمتعون بحرية العبادة - إن من حيث اللغة التي كانت آرامية/ سريانية (ثقافة وعبادة) أو من حيث مجتمعهم الذي لم يعتبر جزءاً من المجتمع الإيراني. وكانت السلطة

الفارسية تتصف بالتسامح بالنسبة إلى الأديان التي يتبعها الناس في حدود الإمبراطورية. لكن الأمر تبدل لما اعتنق قسطنطين المسيحية وانتقل بعد ذلك إلى اعتبار المسيحيين أتباعه. أصبح الموقف الفارسي موقفاً مختلفاً - فقد قيل عندها إن هؤلاء المسيحيين يعيشون بيننا ولكنهم يرون رأي القيصر. والفئة التي وقع عليها الضيق والعقاب هي فئة الأساقفة والكهنة وجماعة من المسيحيين الذين كانوا جنوداً في الجيش وموظفين في البلاط، والمقيمين في المناطق الحدودية وما إلى ذلك.

ولما انهزمت رومة ووقعت مع الفرس المعاهدة المؤلفة لها (سنة 363 م) انتقلت مدرسة نصيبين إلى إديسّا (الرها) حيث كان رجال الدين يدرّبون ليخدموا الرعية.

وقد لقي المسيحيون معاملة حسنة نسبياً أيام الأباطرة الفرس الثلاثة: شابور الثالث وبهرام الرابع ويزدجرد الأول (383 - 420 م). وقد عقد في هذه الأثناء مجمع مار إسحاق في سلوقية (على دجلة) سنة (410 م) برعاية يزدجرد. وكان معناه اعترافاً بوجود رسمي للمسيحيين المقيمين في غرب الإمبراطورية الفارسية. وسمي رئيس المسيحية يومها الجاثليق. وكانت الكنيسة مؤسسة ذاتية الحكم، وكانت الصلة بينها وبين الدولة تتم عن طريق رئيسها.

وحرى بالذكر أن تبدلاً طرأ على فئات مسيحية هناك، إذ أن رجال الدين في المنطقة الفارسية قبلوا النظرة النسطورية، وتبعهم جماعة من سكان الإمبراطورية البيزنطية. كان ذلك في منتصف القرن الخامس.

وثمة أمران مهمان حدثا في تلك الأثناء: الأول هو تمسك عدد كبير من رجال الدين بالمونوفستية بسبب سياسة مرقيان بعد (451 م).

أما الثاني فهو إغلاق مدرسة إديسّا نهائياً سنة (489 م) بأمر من الإمبراطور زينون. وانتقل الأساتذة المطرودون إلى نصيبين وأقاموا تحت

السلطة الفارسية. هناك أعيد تنظيم المدرسة على يد نارسيس (تو 507م). وتبع ذلك إعادة تنظيم الكنيسة على قواعد نسطورية. وكان لبار صوما (تو 492 أو 495 م) الذي أصبح أسقفاً (457 م) دور كبير في القيام بهذا التنظيم. وقد أصبح موقف الدولة الساسانية فيه تشجيع للنساطرة الذين أخذوا يبحثون عن ملجأ يقيمون فيه، فقبلتهم في ديارها واعترفت ببار صوما ممثلاً رسمياً للجماعة. على أن هذه الكنيسة النسطورية لم تعتبر كنيسة فارسية بل ظلت فرقة مسيحية سريانية لها وجود في الإمبراطورية. وكان أتباعها الجدد من الوثنيين هم من الآراميين والعرب المقيمين في حدود الدولة. وقد أشارت المصادر العربية الإسلامية فيما بعد إليهم على أنهم كانوا بأجمعهم تقريباً مسيحيين نساطرة.

وقد تبين لنا أن المونوفستية أصبحت الحركة المقاومة للخلقيدونية. والمهم أن المونوفيسيين لم يطردوا خارج حدود الدولة البيزنطية على نحو ما فعلته هذه الدولة مع النساطرة. لكن موقف الإمبراطور يوستين الأول (518 - 527 م) من الكنائس العربية في سورية كاد أن يقضي عليها: فقد اضطهد الرهبان في المناطق العربية في شمال سورية في ولايات الفراتية وأورهاي وأرض الرافدين وفي أرجاء أنطاكية. وخير هؤلاء بين القبول بالخلقيدونية أو الخروج إلى الصحراء. وقد اختارت الأكثرية الصحراء. وكانوا يتنقلون بين البدو، ويختلفون إلى قرى الريف أحياناً، فيدعون لكنيستهم. وقد نجح بعضهم في إقامة جماعات جديدة في الأماكن التي بدت قاصية في نظر الإمبراطور.

وقد تبين أن الفترة التي تدور حول سنة (540 م) كانت فترة هامة بالنسبة إلى الكنائس الآرامية. فقد انفصلت الكنيسة المصرية/ القبطية عن الكنيسة الرسمية، وظل بطريرك الإسكندرية سجيناً في القسطنطينية. وحتى بطريرك أنطاكية (سفروس) الذي لم يقبل بالخلقيدونية، والذي هرب إلى مصر، كان أتباعه يضطهدون ويطاردون رسمياً. لكن عدداً من رجال الدين

في الجزء الغربي من سورية، ومنهم الموارنة، قبلوا بالطبيعتين ولذلك ظل أساقفتهم يقومون بواجباتهم الدينية نحو الأتباع.

وقد كانت القضية التي واجهت المونوفيسيين في المناطق البيزنطية أنه لم يكن هناك من يستطيع أن يرسم كاهناً أو يسوم أسقفاً. (كان سفيروس قبل وفاته بسنتين أي سنة (536 م) سمح ليوحنا التلاوي وغيره من الأساقفة أن يسوموا أساقفة وغيرهم. لذلك فالحالة هنا كانت طبيعية).

وهنا دخلت المصادفة في هذه المسألة. والمصادفة كان لها شقان أساسيان: الأول: أن ثيودورا، زوجة يوستينيان، كانت تميل إلى المونوفيسية، إن لم تكن من أتباعها. والشق الثاني هو أن الحارث بن جبلة الغساني الذي كان حليفاً لبيزنطية كان في زيارة للعاصمة لأعمال تتعلق بأمور (زعامته) المرتبطة بالإمبراطور. وكان ثيودوسيوس، بطريرك الإسكندرية السجين في بيزنطية مقيماً في القصر أو قريباً منه، وهو مونوفيسي.

طلب الحارث من ثيودورا أن يسام أسقف من أتباع الطبيعة الواحدة كي يعنى بمسيحي العرب من أهل القبائل. فقبلت الإمبراطورة وطلبت من ثيودوسيوس أن يرسم اثنين من رهبان دير قريب من العاصمة. كان أحدهما يعقوب بُردعايا، والذي عرف باسم البرادعي، وثيودور. كان ذلك سنة (542 م). رسم الأول أسقفاً للولايات السورية وولايات أرض الرافدين (التابعة لبيزنطية) أما الثاني، الذي كان عربياً فرسم أسقفاً لما كان تحت نفوذ بني غسان من عرب، وهم سكان الولايات الفلسطينية والولاية العربية. إلا أنه في واقع الأمر كان الاثنان بدويين، وكانت مهمة كل منهما تحمله إلى حيث يقيم المونوفيسيون من السوريين العرب.

صحيح أن ثيودور كان يشار إليه باسم أسقف بصرى، لكنه لم يقيم في المدينة، بل ظل يتنقل مع بني جفنة. وكان الاثنان يعملان في حقلين مختلفين، وكل من الحقلين كان واسعاً. لكنهما اجتمعا مرة لبحث قضية

أسقفين خرجا عن القطيع، وزار الاثنان معاً العاصمة بدعوة من يوستين الثاني (565 - 578 م).

مع أن يعقوب كان أسقف الرها (إديسّا) فإنه لم يقيم هناك، بل إنه ظل ما يزيد على الثلاثين سنة، حتى وفاته في سنة (578 م) يتنقل من مكان إلى مكان، متخفياً أحياناً بثياب شحاذ وسوى ذلك من وسائل التخفية، باحثاً عن أحوال الرعية، وهو ينظم الكنائس والجماعات ويرسم الكهنة والشمامسة ويسوم الأساقفة. وقد تلقى عوناً كبيراً من أساقفة أرمينية الذين كانوا مونوفيسيين. لكن أهم ما في الأمر أن أتباعه حافظوا على سرية أعماله، فلم يش به أحد. وقيل إن يعقوب سام في رحلاته العديدة بطيركين وسبعة وعشرين أسقفاً وبضعة آلاف شماس وكاهن.

أما المناطق التي زارها فشملت آسية الصغرى وسورية وأرض الرافدين وفارس ومصر وقبرص. وقد كانت نتيجة هذا العمل الدؤوب أنه نظم للمونوفيسيين ميلاً إدارياً إكليركياً هو الذي سمح لهم أن يقفوا على أرجلهم. وقد وصفه غبطة البطريك أغناطيوس برصوم بقوله: «أشهر الأبحار ورعاً وطهراً وأكبر المجاهدين الرسولين في نصرة المعتقد القويم، ونخبة النساك الصوامين القوامين ذوي الصلاح والدين المتين». ولم يكن غريباً أن القائلين بالطبيعة الواحدة (المونوفيسيين) أطلق عليهم فيما بعد اسم (اليعاقبة).

وكان عمل ثيودور في ديار بني غسان من النوع نفسه. ولو أن الرجل كان يتنقل في منطقة أصغر. لكن النتيجة كانت واحدة من حيث إحياء الكنيسة المونوفيسية ورسم رجال الدين اللازمين لها. وكانت حياة ثيودور أقصر.

في سنة (571 م) وقع اضطهاد عظيم على الكنيسة المونوفيسية ورجالها، فسجنوا وقيدوا. ولم ينج من هذه المصيبة إلا المناطق الواقعة تحت نفوذ بني غسان.

وقد ظهر رجل ثالث من المونوفيسيين في مصر وكان اسمه بطرس. وقد رسم هذا الراهب أسقفاً سنة (575 م) واتخذ لقب بطريك الإسكندرية وبذلك أسس كنيسة مستقلة في مصر، ولم يظل خارجها سوى موظفي الدولة والأقلية اليونانية.

ويمكن الآن ذكر الأماكن والمراكز التي كانت تعلم فيها حقائق المونوفيسية. فمنها تكريت على دجلة، ودير مار متى (مار متاي) الواقع في جهات الموصل. وكان بيت أرشام (على مقربة من سلوقية - دجلة) مكان محور لنشاط شمعون، الذي كان أسقف المكان بالذات.

وهنا موضع للملاحظة تاريخية مهمة جداً. هذه المونوفيسية المطلقة كما ناقشها أربابها وخصومها يومها وبما أثارت من خلافات وجدل ومصادمات واضطهاد - هذه ليست موجودة اليوم. هذه أصبحت في ذمة التاريخ. فالسريان والأقباط والأرمن والإثيوبيون (الأحباش) ليسوا مونوفيسيين بهذا المعنى المطلق الذي كان شائعاً يومها. فنحن لسنا اليوم في العالم المسيحي أمام المونوفيسية، لأن هذه انتهت بشكل كلي وليس لها ممثل. (المطران جورج خضر).

مادما قد وضعنا أمامنا خريطة، ولو متشابكة بعض الشيء، للخلافات اللاهوتية وما نشأ عنها، فإنه يتحتم علينا أن نعيد بعض الاعتبار لأتباع نسطوريوس كي نعين لهم مواقعهم على هذه الخريطة. فالذي نعرفه هو أن نسطوريوس، بعد أن حرم (431 م) نفى ونقل من مكان إلى مكان حتى لقي حتفه في ليبيا (452 م).

وفي سنة (435 م) صدر قانون إمبراطوري قضى بتحريم تعاليم نسطوريوس وحرق كتبه. واضطهد الحكام أتباعه ونزعت عن أصدقائه الخلق الألقاب والرتب ونفي بعضهم إلى البتراء حيث كان هو قد نفى. وانتهى الأمر بأن أخرج جميع أتباع نسطوريوس من الإمبراطورية البيزنطية،

ووجدوا لهم ملجأ عند الساسانيين. ورغبة منهم في إبعاد تهمة العمل لبيزنطية التي كانت تلصق بهم، أعلنوا سنة (480 م) وكان ذلك بقيادة بار صوما (أسقف 457 - 484 م) استقلالهم على أساس أن الإيمان القويم الذي يمثلونه والذي هو مذهب مدرسة بطريركية أنطاكية، قد خنقت آثاره واضطهد أصحابه. وسمي المسيحيون المقيمون في الإمبراطورية الساسانية النساطرة، وقطعوا علاقتهم بالمسيحية اليونانية.

وأصبحت نصيبين مركز التعليم اللاهوتي إلى الجماعة التي استقلت حديثاً. وقد ظلت هذه المدينة تحوي المدرسة التي درب فيها لاهوتيو النساطرة مدة طويلة فيما بعد. وقد قامت هذه الكنيسة بأعمال تبشيرية نشيطة في القرن السادس، فأنشأت أسقفيات في مرو وهيرات وسمرقند، وما وراء ذلك. وقد وجدت الفئات المسيحية طريقها إلى أواسط آسية وأفغانستان. وقد انتشرت المسيحية أيضاً في ساحل المالابار في الهند.

أما في الساحة الفارسية فقد انتشرت النسطورية بين سكان أرض الرافدين الشمالية وبابل، على ما مر بنا. ولما تضايقت المونوفيسية في الإمبراطورية البيزنطية وخرجت شرقاً دخلت أراضي الفرس وأخذت تزحم النسطورية هناك. ولما ازداد العدد تقدم منهم الكاثوليكوس (الجالليق) النسطوري شيلا (503 - 527 م) طالباً منهم إما أتباع الدعوة النسطورية أو الخروج من المنطقة. فاضطروا، بدافع عقيدتهم، إلى الخروج من المنطقة، فخرج أكثرهم إلى نجران الواقعة إلى الغرب من الحيرة. وانتشر هؤلاء بين البدو من العرب. ومن هنا فان المونوفيسية تأخرت في الوصول إلى العرب المقيمين في البادية السورية.

ولنختم هذا الفصل بعدد من الملاحظات لتوضيح نقاط لعلها خفيت أو اختفت في هذا التشابك التاريخي.

أولاً: حري بالذكر أنه لم يكن الأعراب البدو يقبلون مذهباً مسيحياً معيناً واحداً بصورة دائمة. ذلك بأن توزيعهم القبلي، حتى ولو كانوا من أرومة واحدة، قد يجعل تأثير فئة من المبشرين أكبر عند فريق منهم منه عند الفريق الآخر. ولنمثل على ذلك بعرب أرض الرافدين، وفي الشمال. فقد اضطرب بعضهم بحكم الموقع القريب من الإمبراطورية البيزنطية (أو لعله كان مرات تحت نفوذ البيزنطيين المباشر) أن يقبلوا ولو على غير رغبة أو إيمان، بالمذهب الخلقيدوني. فيما كان الذين سكنوا في حدود الدولة الفارسية إما نساطرة أو مونوفيسيين. من هذه الفئة الجماعة التي استقرت إلى الشمال من الأنبار، وكانت مراكزها، التي تعود إليها للحصول على المعرفة الدينية هي: تكريت وسنجار ونصيبين وبلد.

ثانياً: استقر عدد كبير من النساطرة في الحيرة. وبدءاً من حوالي سنة (400 م) أخذ النساطرة، بعد أن اطمأنوا إلى وضعهم، يقومون بالتبشير بالمذهب نفسه. ويبدو أن إبراهيم الكبير (491 - 586 م) كان واحداً من أبرز العاملين في حقل التبشير - تعليمياً وتنظيماً وتأليفاً.

ثالثاً: في النصف الثاني من القرن الخامس كانت قبيلة تغلب قد استقرت في منطقة بين الخابور ودجلة والفرات. وكانت حدودها في الشمال قرقيسيا والموصل وفي الجنوب تكريت وعانة، ودجلة شرقاً والفرات غرباً. وقد وقعت هذه القبيلة تحت تأثير الدعوة المونوفيسية، وكانوا مسيحيين متمسكين بالمسيحية على هذا المذهب. لكن يبدو أن فئات من تغلب بحكم قربها من المناطق النسطورية تأثرت بها؛ وقد عثر الباحثون على ما يشير إلى أن بعضهم قبل بالأرثوذكسية أي الخلقيدونية.

رابعاً: في الروايات التي وصلتنا ما يعزو انتشار المسيحية بين البدو إلى عجائب تمت على أيدي بعض الأساقفة مثل الزعيم الذي اعتنق المسيحية لأنه اعتقد أن الله رزقه ابناً ذكراً بدعوات الراهب المؤمن. واعتنق المسيحية

أفراد العائلة والقبيلة التي يتزعمها الشيخ زقوم معه، وكانوا مخلصين للمذهب. وهناك حكاية شيخ الصبية الذي حمل ابنه المقعد (سنة 420 م) إلى دير في منطقة قريبة من أريحا (غور الأردن) وطلب من رئيس الدير أن يتوسط له فيتشفع لله. وصلى الرئيس وتمت الأعجوبة وتنصر الشيخ، ثم أصبح يبشر بالمسيحية ثم سيم أسقفا على المضارب (التجمعات أو البرامبولات) واتخذ اسم بولس، وقد مر بنا خبره. ومثل هذه الحكايات والقصص العجائبية تؤثر في الناس!

خامساً: يبدو أن الغساسنة وصلوا إلى مشارف الشام في القرن الثالث. لكنهم لم يُلْتَفَتَ إليهم لا في رومة ولا في القسطنطينية أولاً. ثم تنبه يوستنيان إلى الأمر فضمهم إلى جماعات كان يقيم معها أحلافاً سياسية. ثم أصبحوا الأهم (بدءاً من أيام يوستنيان وخلفائه). وكان الغساسنة، مثل غيرهم قد قبلوا المسيحية. لكن الذي يجب أن نذكره - ولذلك فإننا نكرره - هو أن المسيحية. كان انتشارها حتى القرن الرابع بطيئاً. ولعلّ أحد الأسباب هو أن الخلافات اللاهوتية التي تعرضت لها المسيحية بدءاً من القرن الثاني ومطلع الثالث، عقدت الأمور بالنسبة إلى السكان، وللبدو خاصة. لكن منذ القرن الخامس اشتد الحماس لنشر المسيحية واشتدت الرغبة في قبولها. يقول أسد رستم حول هذه القضية بالذات «ويتبارى المؤمنون، منذ منتصف القرن الخامس حتى الفتح الإسلامي، في ميدان الإنشاء فيحولون معابد جرش والقنوات وشقا وبصرى الحريري وأذرع إلى كنائس. ويبنى بوليانوس متروبوليت بصرى في السنة (512 م) (كتدرائية) فخمة جليلة. ويندفع سرجيوس أسقف مادبا في سبيل الإنشاء فيتم إنشاء كنيسة الرسل سنة (578 م). ويؤسس القس لاونديوس في (603 م) كنيسة جديدة في مادبا ويكمل ما أنشأه سرجيوس في إليانه. ثم يلتفت إلى صياغة (الدير في الآرامية) فيوفق إلى إكمال كنيستها الكبيرة. ثم تنشأ الكنائس والأديار في كل مكان آخر في طول هذه الأبرشية العربية وعرضها».

ويجب أن نتذكر أن هذا أصبح ممكناً بسبب الثروة التي تدفقت على مساكن الغساسنة ومضاربهم والمدن التي كانت تحت نفوذهم بسبب التجارة اليمنية - المكية (القرشية). فقد حموا الطرق والقوافل، فاثروا واستطاعوا أن يقيموا هذه الكنائس الجميلة. هذا مع العلم أن الغساسنة غير معروف أنه كانت لهم عاصمة خاصة، إلا أن تكون الجاية نوعاً من المقر العسكري!

سادساً: مما يلفت النظر بشكل واضح هو أن العرب الذين اعتنقوا المسيحية لم يكتب أساقفتهم لهم - وكان الكثيرون منهم عرباً أصلاً - كتباً لاهوتية مسيحية بالعربية. كان التبشير والوعظ يتم بالعربية طبعاً. لكن الأساقفة كانوا يدرّبون في مدارس تستعمل اللغة السريانية (في الغالب) أو اليونانية (في الأقسام الغربية من سورية فضلاً عن القسطنطينية وغيرها). ومن ثم فقد ظلت المجادلات والمناقشات اللاهوتية تتم في هاتين اللغتين.

سابعاً: كان انتشار المسيحية في الأجزاء الشرقية من الجزيرة يعتمد على الدفع الذي كان يأتي من الحيرة. ومن هنا فإن المذهب النسطوري هو الذي ذاع في تلك الجهات - مع طرق الأودية ومن الديارات التي بنيت هناك. لكن المناطق الأخرى من الجزيرة فقد اختلفت سبل الانتشار فيها.

(4) في الجزيرة

■ قد يكون التحدث عن انتشار المسيحية في مصر وأرض الرافدين وبلاد الشام فيه شيء من الدقة، ولو أنه مشوب دوماً بالاختلاف اللاهوتي الذي يشوه الخبر بسبب التشدد في المواقف. لكن فيما يتعلق بانتشار المسيحية في بلاد العرب، أي في الجزيرة بالذات، فالذي نملكه لا يعدو كونه نتفاً من المعلومات المغلفة بكثير من القصص أولاً، ثم بالتفسير الذي أدخله الكتاب العرب فيما بعد على ما حسبوا أنهم اكتشفوا وجوده.

وإذا تذكرنا أن ما نعرفه نحن عن أديان العرب قبل الإسلام، وثنية كانت أم موحدة أم بين بين هو بحد ذاته قليل، فلا نستغرب أن تكون معرفتنا بانتشار المسيحية محدودة. فضلاً عن ذلك فهي تتفاوت في القلة أيضاً. لذلك، ورغبة منا في أن لا ندخل في متاهات، سنكتفي بوضع ما يمكن أن يعتبر حقائق أمام القارئ. ونذكر مع ذلك أن ما قد يعتبر حقائق اليوم قد يصبح أموراً تحتاج إلى بحث في الغد.

أولاً: يبدو أن النساك قد أصبحوا فئة ذات وجود في أواسط القرن الرابع للميلاد وذلك في شبه جزيرة سينا. وخاصة في المثلث الذي تتكون أضلاعه من فلسطين ومصر ومِديان. وهذه المنطقة، مِديان، كانت تقع إلى الشرق من خليج العقبة، وكان يجتازها الطريق التجاري بين مصر وسورية في جهة، وبين الحجاز في الجهة الثانية. وقد تكتل هؤلاء المتنسكون السينائيون حول جبل سِربال. وقد جذبت منطقتان بشكل خاص هؤلاء النساك إليهما وهما: أولاً: الأودية العميقة الخصبة الواقعة في خلفية مدينة الطور الحالية

(رايتو)؛ وثانياً: وادي فيران (فاران). ولم يتعمد هؤلاء بناء أماكن للسكن بل استعملوا كل ثقب يمكن أن يعيش فيه رجل متنسك. وكانت مدينة فاران (فيران) محطة للقوافل وأفاد منها السكان هناك في تجمعاتهم وضمن حاجاتهم.

ثانياً: لم يكن هناك من يحمي هؤلاء النساك أو غيرهم من جميع أنواع الغارات والنهب والسلب. فالرومان انسحبوا في الواقع منذ القرن الثالث، والأنباط قضى الرومان على وجودهم فأصبحوا حتى هم بحاجة إلى من يحميهم. ومن هنا فقد تعرضوا لجميع أنواع الغزو والقتل والنهب والتشريد بقدر كبير، حيث تحوي (روزنامة) الكنيسة على الكثير من أيام لذكر المذابح التي تعرض لها النساك.

ثالثاً: لما أخذ يوستنيان (527 - 365 م) على عاتقه الاهتمام بالأمن اهتم بهذا الجزء من الإمبراطورية. فبنى قلعة في الجهة الشمالية من جبل موسى (وهي التي أصبحت دير القديسة كاترين اليوم). وقد كان يترتب على حامية هذه القلعة حماية الطرق التجارية والكنيسة والرهبان الذين كانوا من أتباع المذهب الخلقيدوني (أي القائلين بالطبيعتين). ومن هنا فقد انتقل عدد كبير من الرهبان إلى جوار جبل موسى. ومعنى ما أمر به يوستنيان هو أن الرهبان الوحيدة الذين يمكن أن يظلوا في حمى الدولة وحمايتها في سيناء هم أتباع الكنيسة اليونانية (الخلقيدونية = الأرثوذكسية = أتباع الطبيعتين). أما المونوفيسيتية فقد استمر وجودها بين الرهبان العرب الذين ظلوا يقيمون في فاران (فيران) وأوديتها حتى بعد الفتوح العربية.

رابعاً: كانت مديان (مداين صالح أو الحجر اليوم) ذات واحة ثرية الماء كثيرة البساتين ومزارع النخيل، هي حوارة، وكانت المركز الرئيسي على الطريق التجاري إلى البتراء ومعان. ويبدو أن أفخاداً وبطوناً من قضاة (وخاصة من جذام وجهينة) تأصلت سلطتها في المنطقة الممتدة من سورية

إلى مشارف الحجاز. ومع أن بعض هؤلاء كانوا قد اعتنقوا المسيحية، فإن المدينة لم يرو عنها أنها احتضنت مسيحيين، مع أنهم قد يكونون زاروها أو مروا بها. أما مكة فقد عرفت بعض المسيحيين، ولعلهم كانوا من التجار، لكن المعروف أنهم لم يكونوا مكين. والذي نعرفه أن بني غسان، الذين كانوا حلفاء بني أسد (القرشية) كان لهم موطئ قدم على مقربة من الكعبة، وكان رجالهم يقومون بالأعمال التي تتطلبها منهم المواسم الاقتصادية والاجتماعية. ويرى ترمينغهام أن بعض الرقيق المكي كان مسيحياً، وفي هذه الحالة يكونون من مسيحيي بلاد الشام. وقد روى الأزرقى أن رجلاً اسمه باقوم (ولعل الأصل هو باقوميس أو باخوميوس) كان بين الذين زخرفوا الكعبة لما أعيد بناؤها سنة (608 م).

خامساً: تكاد الروايات تجمع على أن حُجر بن عمرو (الملقب بأكل المرار) والذي تولى الحكم من حول (450 إلى حول 478 م) هو أول من أنشأ حلفاً من كندة وربيعة وسوى هذه من قبائل معد. وقد كان مركز كندة مكان اسمه غمر ذي كندة، الذي يقع على مسيرة يومين إلى الشرق من مكة. وقد كانت القبيلة الرئيسية في كندة اعتنقت المسيحية. ويبدو أن الغالبية من قبيلة كلب دانت بالمسيحية. وقد كان هؤلاء مونوفيسيون يعاقبة مرتبطين، ولو برباط واه بأساقفة المضارب (التجمعات - البرامبولات⁽⁷⁾). ومن القبيلة المذكورة يعرف التاريخ نائلة، زوج الخليفة عثمان: فقد كانت مونوفيسية يعقوبية. وقد كانت جماعة من الحلف الذي عرف بحلف تميم قد اعتنقت المسيحية. ومن الممكن إضافة أسماء أخرى مثل بني أيوب إلى الجماعات المسيحية. لكن الذي يجب أن نذكره هو أن انتشار المسيحية في أواسط بلاد العرب، أي في اليمامة، لم ينتج عنه مؤسسات على نحو ما كان عند بني تغلب المسيحيين.

سادساً: كانت الكنيسة النسطورية معروفة بنشاطها في التبشير بالمسيحية. يخيل إلينا أن أحد العوامل الباعثة على هذا النشاط هو المقاومة

الشديدة العنيفة - مع الطرد - التي لقيتها هذه الكنيسة في الإمبراطورية وخارجها. على كل فقد اتخذ النساطرة من الحيرة مركزاً لانطلاق حركتهم بقوة، ولو أن النساطرة من المقيمين إلى الغرب من الفرات الأدنى من العرب لم يردوا هذا إلى الحيرة، بل اعتبروها بعيدة عن آمالهم. على كل فقد اتبع النساطرة طرق التجارة الداخلية والساحلية. وأول إشارة لمبشر في الساحل الشرقي للخليج جاءت لمناسبة ذكر عبد يسوع (عَوْدِ يشوع). وهو عربي، وقد درس في المدرسة اللاهوتية في دير قوئي (فوني؟) الواقع على الضفة الغربية لدجلة. لكنه لم يوفق، ولم يحبه الناس خاصة لما رسم أسقفاً. فاعتزل وانسحب إلى جزيرة في الخليج، وبشر هناك بالمسيحية. ثم اعتزل العمل هناك وعاد إلى الحيرة حيث انشأ أول مجموعة نسطورية من الرهبان في المنطقة البابلية. هذه الأحداث تعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع.

سابعاً: نعرف أنه كان في شرق بلاد العرب والجزر الواقعة في الخليج كنائس نسطورية وأساقفة للعناية بالطوائف الموجودة هناك. فقد كان في البحرين - ويومها كانت البحرين تطلق على المنطقة الساحلية الممتدة من القطيف إلى الحسا (الأحساء) - كان هناك أساقفة. وقد أقام بعضهم في حطة (الخط). وكانت قطر أسقفية نسطورية. ومثل ذلك يقال عن جزيرة دارين وجزيرة سماهيج (بين البحرين وعمان). وقد كان في عمان عدد كبير من المسيحيين. هذه أمثلة نقصد من ذكرها أن نظهر أن المسيحية انتشرت في شرق الجزيرة كما انتشرت في أماكن أخرى منها.

ومما يجب ذكره أن الخلفاء الراشدين تجنبوا، في أحوال كثيرة، فرض الجزية على المسيحيين العرب لأنهم عرب!

كانت لعرب الجنوب الغربي من الجزيرة حضارة متميزة بالنسبة إلى بقية أنحاء الجزيرة: سواء من حيث النظم الإدارية أم التقدم الفني في الري مثلاً (ومعه بناء السدود) أو الحياة الاجتماعية. ومن حيث أنها تقع على

طريق تجارية برية وبحرية، فإن المنطقة مطموح فيها ممن له عناية بهذا الأمر.

وقد كان من عادة سكان المرتفعات هناك أن ينحدروا نحو البحر الأحمر ثم ينتقلون في جماعات صغيرة ليستقروا في مرتفعات إثيوبيا (الحبشة). وقد استمر هذا الأمر قروناً، ولذلك تمكن هؤلاء من أن يحملوا معهم لغتهم السامية كما حملوا إنجازاتهم الحضارية المختلفة. وقد نشأ عن هذا كله دولة أكسوم (في القرن الأول الميلادي) التي أصبحت لها مطامع فرضت عليها، تحقيقاً لمطامعها، أن تهاجم دولتين: (مورو) على نهر النيل (وهي عنصر إدارة وحضارة تمثل مزيجاً من المصرية والكوشية) واليمن المتداعي عبر البحر الأحمر.

وقد تم لأكسوم الاستيلاء على اليمن وجوارها في نهاية القرن الثالث تقريباً، وهذا ما حمل الملك أفيلاس(?) أن سمي نفسه: «ملك أكسوم وحمير وسبا وريدان وسلحين». وقد بلغت هذه المملكة القمة أيام الملك عيزانا (320 - 342 م) وهو أول ملك مسيحي، لكنها أخذت بالضعف بعده مباشرة. فاستعادت اليمن وما إليها استقلالها. وقد كان الأسقف الذي سيم لأكسوم فيما بعد مرتبطاً بالإسكندرية، ومن هنا فقد كانت الكنيسة مونوفيسية. ومع ذلك فقد كانت على علاقة لا بأس بها مع بيزنطية. والكنيسة الأثيوبية كانت هي الأخرى مونوفيسية منذ القرن الخامس، ومع ذلك فإن هذه كانت (مونوفيسية) على الطريقة السورية لا الإسكندرانية.

وكانت اليهودية حاضرة في جنوب غرب الجزيرة. وقد اعتنق ذو نواس، ملك حمير (522 - 525 م) اليهودية كي يحارب بها المسيحية السياسية التي كانت تتمثل بأكسوم وخلفها الدولة البيزنطية. وقد حارب ذو نواس المسيحية حرباً ضروساً فأزال جماعات مسيحية بأكملها من العاصمة ظفار ومن السواحل، ثم اتجه نحو نجران ليقوم باضطهاد منظم. وأحس بأن هجوماً أكسومياً على بلاده كان على وشك الانطلاق، ولعله جتى عرف

أن أكسوم تقوم بهذا بالتعاون مع بيزنطية وبتأييدها، فأمر بقتل مسيحيي نجران. وهذا أدى إلى الإسراع في الهجوم على اليمن. ومع انتصار أكسوم فإن سيطرتها على اليمن لم تطل، إذ أن أبرهة (الحبشي) استولى على السلطة هناك معتبراً نفسه أنه تابع لأكسيوم ولو نظرياً. وهذه الأحداث وقعت في فترة كانت الحضارة اليمنية آخذة في الانحلال، ومعاصرة لانفجار سد مأرب وتفرق القوم أيدي سباً.

والذي حمل المسيحية إلى اليمن كانوا التجار المسيحيين، وقد بنيت الكنائس الأولى في المدن التجارية لسد حاجة المتعبدين. ومع ذلك فقد بدأ التبشير بالمسيحية (مع التجار وغيرهم) من أواسط القرن الثاني.

لكن الرجل الذي قام بالتبشير على أنه عمله أصلاً هو ثيوفيلوس من جزيرة سوقطرة، الذي أرسله كونسطانطينوس الثاني الإمبراطور البيزنطي (337 - 361 م). وكانت سوقطرة، المحطة التجارية البحرية الهامة، قد وصلتها المسيحية قبل ذلك.

وحول السنة (340 م) كان اليمنيون قد أخرجوا الأكسوميين من بلدهم على ما رأينا، في الدور الأول. وتوالت البعثات، إلى أن انتهى الأمر إلى ما ذكرنا من قتل مسيحيي نجران. ثم احتلال أكسوم اليمن ثم ثورة أبرهة.

والذي عليه المؤرخون هو أن النسطورية كان لها في مدن اليمن وموانئه نصيب. لكن ليس ما يدل على أنها استطاعت أن تضع أقدامها في الريف وفي الداخل.

ونجران، بحكم اتصالها التجاري مع العراق عبر وادي الدواسر واليمامة والبحرين كانت على اتصال وثيق بالحضارة والثقافة العربية - السريانية. ومن هنا جاءها النشاط. أما اليمن فقد كانت مسيحيتها مدعاة لعدم الاهتمام لأنها كانت تعتمد على دولة فارطة هي أكسوم، ودولة مشغولة بقتال هو إلى النزف أقرب وهي بيزنطية في موقفها من فارس.

يجدر بنا أن نلقي نظرة عامة على العرب والمسيحية، أو المسيحية والعرب، عامة حول السنة (600 م). وسنرى أن مثل هذه النظرة العامة ستضع بين أيدينا بضعة أمور حرية بالنظر.

أولها: وقد أشرنا إلى هذا من قبل، هو أن هؤلاء العرب العرب، ولعلنا نقصد الأعراب منهم، لم يعنوا بأن يتحدثوا عن إيمانهم بالعربية - كتابة ودرسا.

وثانيها: يبدو أن المسيحية بما أثارتها من قضايا لاهوتية وما إلى ذلك، لم تصل إلى أعماق الحياة العربية بالذات. ومن هنا فإن الإنجيل، من حيث أنه كتاب المسيحية الأصلي، ظل في الهامش بالنسبة إلى العرب المتبدلين.

ثالثها: عندما نحاول تفسير هذه الظاهرة نقع على قضية هامة وهي أن الحياة العربية كانت تتمتع بقوة خارقة لمقاومة التبدل والتغيير، ومن هنا فلم يكن الإنجيل يتحدى العرب حيث يثيرهم. فالشعور الجماعي العربي - قديماً كان أم أوسع قليلاً - كان يحتوي من عناصر الترابط اجتماعياً وخلقياً ومثالياً ما لم يكن من اليسير اختراقه. وخاصة أن الآراء التي حملتها المسيحية إلى القوم كانت بعيدة عن تصورهم، كي لا نقول إدراكهم.

رابعها: لعلّ العرب، والبدو والقبائل منهم بشكل خاص، ربطوا بين المسيحية والدولة البيزنطية. واعتبروا، من ثم، أن قبول المسيحية معناه الولاء للدولة. وهو أمر لم يكونوا يحبونه. وأهم من هذا، في رأينا، أنهم لم يريدوا أن يحبوه.

خامسها: يجب أن نذكر أنه بالنسبة إلى العرب كانت المسيحية ديناً يختلف بالمرّة عما ألفوه وسمعوا به. إن من الصعب على من كان يعبد القمر أو الشمس أو غير ذلك أن ينتقل رأساً إلى قانون الإيمان النيقاوي. والذي نراه هو لو أن الأناجيل ترجمت إلى العربية في هذه الفترة

(أي في القرنين الرابع أو الخامس) لكان الاتجاه العام للمسيحية ولل فكر المسيحي تبدل، وكانت المسيحية أصبحت قضية أساسية للعرب، ولم تظل هامشية.

ولعلّ ما حدث في أرمينيا يؤيد ما نذهب إليه، ونحن نتحدث عنه هنا لمحض المقارنة والمقابلة. فقد اعتنق ثيريداتس الثالث، ملك أرمينيا (261 - 314 م) المسيحية سنة (301 م) وأعلن أن المسيحية هي دين شعبه. وقد تم هذا بعد تردد من جهة الملك، وبعد أن اضطهد الملك نفسه المبرش المهم الأرمني بالمسيحية وهو غريغور، وهو الذي سيم أسقفاً (302 م). وهذا أنشأ في السنة التالية أتشميادزين التي ما تزال حتى يوم الناس هذا مركز الكاثوليكوس، رأس الكنيسة الأرمنية.

ولأن الأرمن لم يعرفوا أياً من اللغتين التي كانت المسيحية تفسر بهما، السريانية أو اليونانية، فقد قامت مشكلة لغوية مهمة، أي ترجمة التعاليم المسيحية. وقد قام بحل المشكلة اثنان من رجال الكنيسة الكبار وهما الأسقف القديس إسحاق الأول (387 - 439 م) والقديس مزروب (354 - 440 م). فقد نقل الكتاب المقدس إلى اللغة الأرمنية، وفضلاً عن ذلك فقد اخترعا (وضعا) ألفباء خاصة لعملهما وللشعب، مكونة من ستة وثلاثين حرفاً.

وثمة مثل آخر وهو انتشار المسيحية بين سكان جورجيا (الكرج) الذي تم على يد فتاة من الرقيق (تو 335 م). وقد اعتنق المسيحية ملك جورجيا وملكها حول سنة (330 م) واعتبرا المسيحية دين الدولة الرسمي. وقد وضعت الكنيسة الجورجية (الكرجية) فيما بعد ألفباء خاصة بلغة البلاد، وقامت بترجمة الكتاب المقدس.

■ المثلان اللذان تقدمنا بهما كان المقصود منهما تبيان الصلة الوثيقة بين وجود ترجمة للكتاب المقدس، (وعلى الأقل للعهد الجديد) يستعملها أتباع الكنيسة بلغتهم الخاصة، وتوثق المسيحية بين أفراد الشعب.

على كل فقد آن الأوان أن نشير إلى انتشار المسيحية في مناطق مجاورة لكنائس معينة، أو حتى في مناطق بعيدة عن المركز الأساسي.

ولعل من المناسب أن نعود إلى الكنيسة المصرية الإسكندرية القبطية التي كانت من أوائل الكنائس التي زودت المسيحية بمبشرين عملوا خارج النطاق الكنسي القريب. فقد كانت برقة (ليبيا) تتجه نحو مصر كمصدر للحياة الثقافية لمدة طويلة قبل المسيحية. وكان من الطبيعي أن تتجه الإسكندرية نحو برقة، وأن تتجه برقة نحو الإسكندرية للتفقه في المسيحية - الأولى تعطي والثانية تأخذ. وقد أصبحت برقة تعتبر منذ مجمع نيقية (325 م) ولاية كنسية تابعة للإسكندرية. وقد كان أول أسقف معروف (سينيسيوس 370 - 414 م) من طلاب مدرسة الإسكندرية اللاهوتية والمتحف - المعهد الوثني. وقد رسمه بطريك الإسكندرية أسقفاً سنة (410 م).

وقد كان من الطبيعي أن يكون للمسيحية توجه من مصر نحو الجنوب عبر الطريق الذي يمر بسين (أسوان الحالية). ولا شك في أن الاضطهاد الذي عرفه المسيحيون في مصر، والذي حمل كثيرين على الهرب جنوباً إلى النوبة، وكذلك فإن الرهبان والنساك، الذين كثر عددهم في مصر في القرن الرابع ثم فيما بعد، زود الحركة التبشيرية بجنود للمسيح. وقد كانت العلاقات جيدة بين رهبنة القديس شنوتي والقبائل النوبية. ومع أن يوستنين حاول دعم الخلقيدونية هناك، فإن الكنيسة القبطية المونوفيسية هي التي انتصرت بسبب الدعم الذي تلقت من الإمبراطورة ثيودورا، على نحو ما أصاب الجماعة نفسها في بلاد الشام وأرض الرافدين. فسيم لونغينوس أسقفاً لبنانا - عاصمة المملكة النوبية.

ومن الإسكندرية اتجه المبشرون نحو إثيوبيا (الحبشة) التي ظلت وثنية حتى القرن الرابع الميلادي. وقد بدأ العمل هناك أخوان هما فروفتيوس وايدسيوس، وهما إسكندرانيان كانا يقيمان في صور، فقد كانا على ظهر

سفينة تجارية في طريقها إلى الهند، لكن السفينة تحطمت في البحر الأحمر في منطقة قرية من إثيوبيا. وقد أنقذهما أفراد من حاشية الملك الأثيوبي الذي ضمهما إلى حاشيته. وكان أحدهما مؤدب ولي العهد (إزانا) فلما تولى هذا العرش، وكان قد عرف عن المسيحية من مؤدبه، اعتنقها مع أفراد الحاشية، واعتبرت المسيحية دين الدولة.

ولما ذهب فروفتيوس إلى الإسكندرية لينقل النبأ السار للبطريك، وليطلب منه أن يسوم أسقفاً خاصاً لإثيوبيا، رسمه البطريك هو نفسه أسقفاً باسم أنبا سلامة. وقد عاد الأسقف إلى أكسوم حول سنة (356 م) مصحوباً بعدد من الشيوخ والشمامسة كي يعينوه في عمله وفي التبشير بالمسيحية في المملكة. وقد استقر الإثيوبيون في تبعيتهم للكنيسة القبطية. وظلوا على ذلك إلى قبل بضع سنوات لما استقلت كنيستهم عن بابا الإسكندرية.

وما دما تحدثنا عن التبشير بالمسيحية في الفترات الأولى وخارج النطاق العربي، فإننا نرى أن نضيف هنا شيئاً عن المسيحية في الهند وسريلانكة (سيلان). فمسيحيو الهند يعزون انتشار المسيحية في بلادهم إلى القديس توما الذي استشهد في بلادهم حول سنة (72 م). وليس في أي من المصادر القديمة أو الوثائق المعاصرة ما يؤيد هذا. ثم يصمت التاريخ عن هذه الجماعة المسيحية حتى أواسط القرن الرابع. فقد ورد عندها (345 م) أن جماعة من المسيحيين فرت من بلاد الفرس هرباً من الاضطهاد وكان على رأسها تاجر وأسقف. أتباع هذه الجماعة ما يزالون حتى اليوم يكونون فرقة خاصة، ولا يتزاوجون مع غيرهم من المسيحيين. والذي نعرفه هو أن عدداً كبيراً من المسيحيين كان يقيم في جنوب الهند وسيلان في أوائل القرن السادس. وقد كانت كنيستهم يومها ذات صلة بكنائس أرض الرافدين، لكنها لم تكن على اتصال بالمراكز المسيحية الكبيرة.

وقد كان هناك عاملان حدا من انتشار المسيحية في الهند: نظام الطبقات، فقد ظل المسيحيون من الطبقات الاجتماعية العليا. أما العامل الثاني فهو أن الكتاب المقدس لم ينقل إلى اللغة المحلية. وقد ظلت الكنيسة تستعمل النص السرياني إلى القرن التاسع عشر. أما في سريلانكة فقد زالت المسيحية بالمرّة. وما هو قائم الآن في الجزيرة من كنائس فمرده إلى التبشير الذي قام به الغربيون حديثاً.

الفصل الخامس

من دولة الخلافة إلى الحروب الصليبية

(1) وأخيراً

لم يكف المسيحية والمسيحيين الخلاف العنيف والمؤذي بين أتباع الطبيعتين والقائلين بالطبيعة الواحدة، الذي بلغ الغاية في القرن السادس، فجاء القرن السابع، وفي أيام الإمبراطور هرقل (610 - 641 م) ومعه فكرة جديدة. المسيح له طبيعتان، لكن له مشيئة واحدة. ومذهب المشيئة الواحدة (المونوتيلية) كان القصد منه، كما رأى الإمبراطور، وضع حد للخلاف القائم بين المونوفيسيين والخلقيدونيين. ذلك بأن الإمبراطور، الذي كان يرى صلة وثيقة بين وحدة الإمبراطورية السياسية ووحدة الكنيسة (المعتقد) فيها، كان يريد أن ينتهي الأمر بالفريقين إلى قبول هذا الرأي، وبذلك يعود الوفاق إلى الكنيسة وينعكس هذا على وحدة الإمبراطورية. والطريف ان بابا رومة هونوريوس الأول (625 - 638 م) قبل الفكرة. لكن اثنين من كبار لاهوتيي العصر رفضاها. صفرونيوس، بطريرك القدس العربي، الدمشقي المولد (634 - 638 م) ومكسيموس المعترف (580 - 662 م) الذي لم يشغل منصباً دينياً. وقد نفي هذا إلى شبه جزيرة القرم ومات في المنفى. أما صفرونيوس فقد كان أصبح، اعتباراً من مطلع سنة (638 م) تابعاً، هو والبطريركية، للدولة العربية الإسلامية الجديدة. التي كانت قد استولت على جزء كبير من بلاد الشام بعد معركة اليرموك (636 م). والمهم على كل حال هو أن مجمع القسطنطينية المسكوني (السادس) الذي عقد سنتي (680 و681 م) حرم هذا الرأي أي المشيئة الواحدة.

والفئة الوحيدة التي يبدو أنها قبلتها، ولو على شك أو ضعف، هي الكنيسة المارونية، التي كانت قد قامت مستقلة في شمال لبنان.

ومع ذلك فلم تكن هذه آخر ما بدر من الخلاف في الكنيسة وسنعود إلى ذلك في مكانه.

والذي نود أن نؤكد في هذه المناسبة أن الكنيسة البيزنطية، أو بطريركية القسطنطينية كما أصبح من الواجب الإشارة إليها الآن، بعد أن احتل العرب بلاد الشام ومصر، وأصبحت ثلاث من البطريركيات الشرقية تابعة لدولة الخلافة، صارت كنيسة ذات لغة واحدة هي اليونانية. وهذه كانت لغة الدولة. وأصبح أي خلاف بين القسطنطينية ورومة، أو أي اتفاق، يجري بمعزل عن البطريركيات الثلاث الأخرى.

أما في هذه البطريركيات فقد استمر الخلاف بعض الشيء. وقد مر بنا أن الكنيسة (البطريركية) القبطية أطلقت على الذين ظلوا من أتباع الخلقيدونية لقب الملكيين - أي أتباع الملك. وهم في الغالب بقية من مواطنين يونان وجنود وأصحاب مناصب رسمية، دينية أو مدنية، وبعض تجار. وقد قلّد اليعاقبة الأقباط فأطلقوا على أتباع الخلقيدونية لقب الملكيين. وقد سمى هؤلاء بالروم بسبب استعمالهم اللغة اليونانية في الكنيسة، كما أطلق عليه اسم الأرثوذكس. ولعلمهم هم الذين حسبوا أنفسهم أتباع الطريق المستقيم، وهذا معنى كلمة أرثوذكسي.

كي نمثل على ما يمكن أن يسمى التقسيم الداخلي في الكنيسة ففي مصر أصبح هناك اثنتا عشرة فرقة من المونوفيسيين فقط. ولكن ما هي الفروق بينها؟ من يمكنه أن يتكهن؟

مرت بنا، في أماكن عديدة كلمات لم يكن من المتيسر التوقف عندها لتفسيرها من قبل لأن دلالتها الوظيفية لم تكن واضحة في أول الأمر. ففي القرن الخامس أصبحت المناصب الكنسية الكبرى على شيء من الوضوح.

ولنعد قليلاً إلى القرن الرابع، ولنلق نظرة على بطريركية أنطاكية، التي

كانت جميع الكنائس تتبعها، والمقصود الكنائس في بلاد الشام. فقد كانت سبع أبرشيات تابعة لها وهي: فلسطين (ومركزها قيسارية أو قيصرية) وفينيقية (صور) والولاية العربية (بُصرى) وسورية الولاية (أنطاكية) وما بين النهرين (الرها - إديسسا) وقيلقية (طرسوس) وإسثورية (سلفكية).

لكن لأن التقسيم الإداري الكنسي كان يتبع التقسيم الإداري المدني أو الإمبراطوري، فقد أصبح الوضع في الربع الأول من القرن الخامس على الشكل التالي: فلسطين: ثلاث أبرشيات ومراكزها هي قيسارية (أو قيصرية) وبيسان والبتراء؛ وقيلقية: أبرشيتان مركزاهما طرسوس وعين زربة؛ وفينيقية: أبرشيتان ومركزاهما صور ودمشق؛ وسورية: أبرشيتان مركزهما أنطاكية ودولك على الفرات وأضيفت أبرشية ثالثة لسورية كان مركزها أبامية (أو أفامية).

ولكن حتى هذا لم يستقر. فقد غير الترتيب يوستينيان. وقد كانت القدس أصبحت بطريركية مستقلة (منذ سنة 451 م) فكانت بطريركية أنطاكية تتكون من (12) متروبوليتية ولكل متروبوليتية عدد من الأبرشيات تتبعها. وقد بلغ عدد أبرشيات بطريركية أنطاكية (153) أبرشية. وقد تم لبطريركية الإسكندرية أن كان يتبعها متروبوليات (وهي مصر السفلى ومصر الوسطى والصعيد ومصر الدلتا وليبيا والقيروان) وكان فيها (192) أسقفية. فضلاً عن ذلك فقد كانت ثلاث جاثليقيات تتبع هذه البطريركية هي النوبة والحبشة والسودان.

أما البطريركية المقدسية (واسمها الرسمي الأورشليمية) فقد كان فيها ستون أسقفاً فقط.

وكان المتروبوليت هو المسؤول عن الوحدة التابعة له وقد سميت الأبرشية إدارياً. وكان انتخاب الأساقفة يقوم به الشعب والسلطة الروحية مجتمعين؛ وقد حدد يوستينيان الأمر فجعله في يد الوجهاء والإكليروس.

وأنشأ هذا الإمبراطور محاكم خصوصية لمحاكمة الأساقفة. كما رسم الأنظمة الطقسية وما يتعلق بالخدمة في القديس، وذلك بأنه رتب الموجود ووحده وأضاف إليه. وإذا تذكرنا أن يوستينيان هو الذي جمع المدونة (القانونية) المعروفة باسمه، وأنه جمع فيها، مع التنسيق، كل ما صدر من القوانين خلال ألف السنة السابقة لحكمه (527 - 565 م) لا نستغرب أن يكون أدخل التنظيم الكنسي في جدول أعماله القانونية (تنظيم الإكليروس جاء في القانون 123 وشمل القانون 133 تنظيم الأديرة).

وفي المناطق نسطورية الكنيسة كان هناك منصب المافريان الذي كان ينوب عن البطريرك في رقعة واسعة.

وفيما أباطرة بيزنطية يعنون بالخصومات الدينية وباستعادة الإمبراطورية في الغرب (يوستينيان) والمصادمة العنيفة مع الدولة الفارسية حتى أن الساسانيين استطاعوا أن يحتلوا بلاد الشام وقسماً من مصر ويهدموا الكثير من المنشآت المهمة - فيما كان أباطرة بيزنطية وملوك ساسان يقتتلون فيما بينهم، كانت دولة جديدة فتية قوية تنمو وتنتظم إلى الجنوب منهما. وفي سنة (641 م) كانت هذه الدولة قد استولت على بلاد الشام ومصر منتزعة إياهما من بيزنطية، كما كانت قد احتلت أرض الرافدين وما إلى الشرق منها، حيث قضت على الدولة الساسانية.

وقد كان جاء دور دولة الخلافة.

(2) المسيحيون في دولة الخلافة

(أ) الكنيسة القبطية:

كانت الفتوح العربية الإسلامية التي تمت إلى أيام عمر بن الخطاب سريعة يسيرة نهائية. وقد واجه القواد الفاتحون، الكبار منهم والصغار، مشكلات بالنسبة إلى الفتوح، وخاصة المدن، فيما يتعلق بالسكان. وحري بالذكر أن المنظومات الفقهية (الشرعية) الإسلامية التي تحدد موقف الفاتحين من سكان هذه المدن لم تكن قد عرفت يومها. إذ أن هذه لم تنتظم أمورها إلا حول منتصف القرن الثاني / القرن الثامن (رضوان السيد) أي بعد مرور ما يقرب من قرن على الفتوح الأولى الكبيرة التي قضت على الدولة الفارسية في الجهة الواحدة، وانتزعت بلاد الشام ومصر وليبيا من الدولة البيزنطية.

ونحن عندما نعود إلى كتاب البلاذري: فتوح البلدان لتتابع أخباره عن الفتوح نقرأ خبر المعاهدات والعهدات التي كتبها القواد، كبارهم وصغارهم، لمن اعتبروهم زعماء المدن أو وجهاءها نجد أن أمرين يكادان يغلبان على مادة المعاهدات: أن يدفع أهل الكتاب الجزية وأن يعهد إلى الجيوش العربية الإسلامية حماية هؤلاء القوم. صحيح أن بعض هذه المعاهدات اشترط فيها أن تقدم المدينة للجنود بضعة أنواع من المواد الغذائية، ولكن لم تشترط كل معاهدة مثل هذا الأمر. وأكثر معاهدات الصلح هذه فيها شرط أن لا يدل السكان العدو على مقاتل المسلمين.

ولعل أشهر نص لمعاهدة أو عهدة عُهدَ بها لمسؤول عن مدينة هي التي

كتبها عمر بن الخطاب لما تسلم بيت المقدس من بطريقها صفرونيوس. ولا شك أن وجود الخليفة بنفسه، وقيمة المدينة وأهميتها ومكانة صفرونيوس في نفس الخليفة، كانت عوامل جعلت من هذه المعاهدة وثيقة متميزة. (هذا إذا صح النص كما ورد).

وقد كان في بعض هذه الوثائق الصلحية تعيين وجوب دفع الخراج. لكن الخراج كان على الأرض، وهو في الواقع، استمرار لما كان معمولاً به في جهات الإمبراطوريتين المختلفة، وكانت أسسه متباينة. والجزية التي أدخلت في كل وثيقة صلح هي الشيء الوحيد الذي نُصّ عليه في القرآن الكريم.

وهنا تعرض لنا مشكلة. كيف تصرف الحكام العرب المسلمون مع المسيحيين الذين كانوا في ذلك الوقت الأكثرية الغالبة من السكان. (الوثنية أو المجوسية كانت نسبياً قليلة الوجود، وخاصة في المحيط العربي الذي نحن معنيون به).

ولنضع، قبل الانتقال إلى التحدث عن المشكلة وحلولها، أمامنا بضع ملحوظات لعلها تكون مفيدة لنا في تعبيد الطريق.

أولاً: كان الجنود العرب المسلمون الذين قاموا بفتح بلاد الشام ومصر وأرض الرافدين (وما وراءها) يعرفون المسيحية والمسيحيين. فقد كان لأهل الأوائل بالأواخر اتصال في مراكز التجارة في أرض الرافدين وبلاد الشام ومصر، إذ كانوا هم تجار المنطقة. وكان التجار العرب قبل الإسلام وفي أيام الرسول (ص) يعرفون المسيحيين الغساسنة وغيرهم من العرب في الشام، وبني تغلب وسواهم في أرض الرافدين. بل يجب أن نذكر أن المسيحية كانت قد وصلت إلى بقاع كثيرة متباعدة متناثرة في بلاد العرب - في اليمن وفي كندة وفي شرق الجزيرة.

ثانياً: لم تكن ثمة تجمعات مسيحية كبيرة قوية (باستثناء اليمن) في بلاد

العرب، وخاصة في مكة أو المدينة، كما كان لليهود في المدينة وسواها. لذلك لم يحدث أن وقف المسلمون في الجزيرة من مجموعة عربية مسيحية قوية منظمة، كالذي حدث مع يهود المدينة خاصة. إذ انتهى الأمر إلى التخاصم الفعلي والقتال، وكان أن انتصر المسلمون وأجلى النبي (ص) اليهود عن المنطقة. لذلك كانت الإشارات القرآنية إلى المسيحيين قليلة وهادئة.

ثالثاً: لما بدأ العرب المسلمون بالفتوح وحتى بعد أن نجحوا في الاستيلاء على البلاد الواسعة، لم تكن قد تكونت عندهم سياسة واضحة تبين لهم سبل التعامل مع أهل البلاد المفتوحة. فقد جاءت الفتوح أسرع مما تصوروا. وحتى بعد الفتح، وخلال العقود الأولى، لم يكن ثمة خط واضح بين يمكن أن يتبع. ومن هنا جاء الاجتهاد الشخصي أولاً والأوامر الخاصة ثانياً.

رابعاً: لم يكن واضحاً عند المسلمين - قوادراً وحكاماً وإداريين ومسؤولين كباراً وصغاراً - فكرة واضحة تماماً عن معنى أهل الكتاب. هل يقتصر الأمر على المسيحيين واليهود؟ هل الصابئة من أهل الكتاب؟ وما موضع المجوس من ذلك؟ ثم من هو الذي يقرر هذا الأمر وسواه من المشكلات الكثيرة المتعلقة بهذه الطوائف المختلفة والجماعات المتنوعة!

خامساً: كان جميع المسيحيين - مونوفيسيين وأصحاب الطبعيتين والنساطرة وأتباع المشيئة الواحدة وغيرهم - بالنسبة إلى المسلمين الذين فتحوا البلاد وأخذوا أنفسهم بإدارتها - كان جميع هؤلاء مسيحيين فقط! وأنى لهم أن يعرفوا غير ذلك؟ فالمسلمون كانوا بعد فئة واحدة، ولذلك فقد اعتبروا جميع المسيحيين شيئاً واحداً. ونحن نجزم بأن المسلمين - والمفكرين منهم خاصة - لم يخطر ببالهم أن يتعرفوا إلى الفرق المسيحية المختلفة والمذاهب المتنوعة، إلا بعد أن عرف الإسلام فئات ومذاهب متنوعة. وحتى

هذه المعرفة، التي كانت متعة فكرية في غالب الأحوال، لم تؤثر أبداً على النواحي الإدارية والعلاقات الإجرائية.

سادساً: لاشك أن القواد الذين تولوا فتح البلاد والحكام الذين عهد إليهم بإدارتها فيما بعد، تنبهوا إلى هجرة جماعات مسيحية مع هرقل أو في أعقابه إلى بلاد الروم. ولست أشك في أنهم حسبوا أن هذا الانسحاب كان يعود إلى أن هؤلاء قد يختلفون عن الذين بقوا في الريف والذين ظلوا في المدن في النظرة إلى الآراء المسيحية ولو أنهم كانوا يرون أن الباقين في البلاد، وخاصة سكان البلدات الصغيرة والقرى والمزارع (أي الريف بأوسع معانيه) كانت لغتهم إما سريانية أو عربية، أو أن البعض كان يستعمل اللغتين. لكنهم لم يربطوا بين هذا الاختلاف اللغوي والاختلاف المذهبي بين الفريقين المسيحيين.

سابعاً: كانت فئات من سكان مصر وبلاد الشام خاصة قد وقفت إلى جانب الفاتحين. هؤلاء، كما نعرف نحن، كانوا من المونوفيسيين الذين قاسوا الأمرين على أيدي البيزنطيين، لذلك اعتبروا أن مجيء هذا الجيش الجديد فيه خلاص لهم وتحرير من هذا النير القاسي. وهؤلاء كانوا، فضلاً عن معاناتهم التي أشرنا إليها مراراً، في أغلبهم عرباً أو قريين من العرب. فكان ثمة ما يجمع بين الفريقين من وحدة العنصر واللغة أو القرابة في الأمرين. الغساسنة وأقباط مصر يمثلون الغاية في التعاون.

ثامناً: روعيت قضية العنصرية العربية في المعاملة مع المسيحيين العرب. فقد اعتبرت الجزية التي دفعتها تغلب كأنها صدقة أو زكاة، حتى لا يكون العرب كالأجانب في دولة الخلافة.

تاسعاً: ولنتذكر أخيراً أنه عندما ينعدم الأساس الواضح للمعاملة من قبل السلطة للتابعين لها، فإن الأمزجة الشخصية تؤثر في نوع المعاملة التي يلقاها الأتباع في الدولة - ويتم هذا بقطع النظر عن الناحية الدينية. فقد روي أنه لما

نقصت واردات الجزية بسبب اعتناق أهل الكتاب الإسلام، قرر أولو الأمر الإبقاء على دفع الجزية حتى لمن انتقل إلى الدين الجديد، حتى جاء عمر بن عبد العزيز (99 - 101 هـ / 717 - 720 م) فألغى هذا الأمر، ورفع الجزية عن عائق الذين اعتنقوا الإسلام. وروي أن البعض من المسيحيين أخذ نفسه بلبس الإسكيم (وهو ثوب الرهينة أو التنسك) كي يتهرب من دفع الجزية. فالجزية كان يدفعها الرجال القادرون فقط وأعفي منها أصلاً النساء والصغار ورجال الدين. لذلك أمر البعض بأن تستوفي الجزية من أولئك الذين يلجأون إلى الثوب ليتخلصوا من دفع الجزية.

عاشراً: وأخيراً. فعندما كان يخطر لصاحب سلطان، بقطع النظر عن منزلته في السلطنة، أن يصادر أملاك أهل الكتاب ليفيد منها - وغالباً لم تكن الإفادة تتجه نحو مصلحة عامة - فإننا واجدون أنه، في أحيان كثيرة، كانت المصادرات وما إليها تقع على المسلمين كما تقع على أهل الكتاب.

■ نود الآن أن نتحدث عن أوضاع المسيحيين في دولة الخلافة، وستتبع في هذا الأمر ترتيباً جغرافياً بادئين من مصر ثم شرقاً نحو بلاد الشام ومنها إلى أرض الرافدين.

كان الفتح العربي الإسلامي بالنسبة إلى المنطقة بأجمعها تبديلاً سريعاً جداً. ومن هنا فالتحدث عنه وعن الدولة الجديدة التي قامت في المنطقة وما تلا ذلك هو حديث يختلف عن غيره مما يمكن أن يروى عن فتوح سابقة أو لاحقة وعما ترتب عليها من الآثار القرية والبعيدة.

تم للعرب القادمين فتح مصر تماماً سنة (19 هـ / 642 م) وذلك لما سلمت حامية الإسكندرية. والذي كان يدور في البلاد في الفترة التي سبقت هذا الفتح هو اضطهاد قاس للأقباط على أيدي الملكيين - أي المونوفيسيين على أيدي أصحاب الطبيعتين أو الذين قبلوا حتى بفكرة المشيئة الواحدة، وهم

الذين أيدتهم الدولة البيزنطية ونصروها. ومن ثم فإن الوضع الجديد كان فيه انتصار من ناحية الأقباط للقوة القادمة (ولو أنه كان بادئ الأمر انتصاراً صامتاً أو كما نسميه اليوم حيادياً). في مقابل ذلك كان خروج عدد كبير من المسيحيين الروم الذين غادروا البلاد تحسباً. ولما استقرت الأمور وكانت أخبار العهدة العمرية المقدسية قد تسربت إلى الأقباط المونوفيسيين لقي الأقباط من الحكم الجديد ما شعروا معه بكثير من الحرية. فقد فرض الحكام الجدد على المسيحيين نوعين من الضرائب: الواحد كان الخراج عن الأرض، وهذا كان يختلف من قطر إلى قطر، لأنه اتبع فيه، على الأقل أول الأمر، ما فيها مألوفاً في البلد (أو حتى في جزء منه دون الأجزاء الأخرى) من قبل. أما النوع الثاني فهو الجزية وهي ضريبة اختلفت قيمتها أيضاً باختلاف المكان والزمان، لكنها كانت تفرض على الرجال القادرين دون النساء والأطفال ورجال الدين. وقد مر بنا من قبل تفسير عام لهذه الضريبة، وهذا كاف.

وكان بنيامين البطريرك القبطي قد قضى عشر سنوات وهو لاجئ متخف خشية أن يقبض عليه. فأعيد الآن إلى مركزه، وأصبح بإمكانه أن يقوم بواجباته الدينية على خير ما يريد. واستطاع أن يحصل على بعض الكنائس، التي تركها الخارجون، فيضمها إلى كنائس البطريركية. لعل بعضها قد كان صودر منها قليلاً.

ويمكن حصر الفوائد التي جنتها الكنيسة القبطية من الفتح والدولة الجديدة التي قامت في أعقابه، في أمور أربعة هي:

أولاً: الحرية الدينية المذهبية. فقد كان جميع المسيحيين، بقطع النظر عن الانتماءات التي كانت لكل فريق منهم، ينظر إليهم نظرة واحدة. وكان الأقباط هم الرابحون لأنهم عادوا إلى نشاطهم الطبيعي.

ثانياً: استعادة بعض الكنائس كما ذكرنا.

ثالثاً: خلت وظائف حكومية من اليونان (الروم) الذين كانوا يشغلونها لأنهم خرجوا من البلاد. ولأن العرب الحكام كان يهمهم أن تستمر الإدارة على نحو سهل يسير وأن تجمع الضرائب بغض النظر عن أي اعتبار فيما يخص العاملين في ذلك، فقد فتحت أبواب العمل أمام القادرين والراغبين. ولعل من الطريف أن يذكر هنا أن الإدارة العربية الإسلامية الجديدة احتفظت بموظفين ثلاثة من اليونان في مراكز إدارة كبيرة: حاكم مصر السفلى وحاكم منطقة الفيوم وحاكم الريف الغربي. هذا مع العلم أن الأقباط كانوا ينزعجون منهم لأنهم من أعوان الحكم الهرقلي. أما الموظفون المحليون والحياة والحكام الإقليميون فقد أصبحوا جميعاً من الأقباط حيث أن اللغة القبطية أصبحت اللغة الرئيسية للإدارة، فحلت محل اليونانية تدريجاً وظلت هناك حتى أخذت اللغة العربية تحتل مكانتها الطبيعية لغة رسمية للدولة بدءاً من أيام عبد الملك بن مروان (65 - 86 هـ/ 685 - 705 م) وكان في هذا تعزيز للغة القبطية.

رابعاً: عاد إلى الثقافة القبطية نشاطها وأخذت تملأ الفراغ الذي نتج عن الخروج البيزنطي المفاجئ وما خلفه من نقص في المجالات المختلفة. وجدير بالذكر أنه اعتباراً من فرض العربية لغة رسمية للبلاد (86 هـ/ 705 م) عني الأقباط بتعلمها واستعمالها. وقد ظلت اللغة القبطية لغة التخاطب في مصر إلى القرن الثالث عشر، لكنها اختفت بعد ذلك من السوق لتزوي في الكنيسة لغة للطقوس الدينية.

نحن لا نؤرخ لتطور مصر في رعاية دولة الخلافة المركزية أو الدويلات التي قامت في أحضانها أو رغماً عنها. لكن الذي نود أن نذكره هنا أن الواردات الرسمية - الضرائب وما يتبعها - التي كانت تجمع من مصر تناقصت قيمتها قبل أن تنظم الأمور. ومن هنا فرضت إتاوات جديدة أو ضوعفت القديمة، الأمر الذي أدى إلى قيام ثورات مصرية خمس بين سنتي (739 و 773 م). وكان سبب هذه الثورات الظلم المالي الذي تعرض له

سكان مصر - أقباطاً ومسلمين - ومن هنا فقد انضم عدد من المسلمين إلى الثوار، لأن الحيف وقع على الجميع.

في سنة (255 هـ/869 م) حاول ابن المدبر، حاكم مصر من قبل العباسيين، أن يتدبر الأمر فيخفف مجال الثورات. فقام بإحصاء دقيق لجميع العاملين في حقل الدين والرهبان من الأقباط، واتفق، أخيراً، مع البطريرك سنوتيوس أن يدفع مبلغاً مقطوعاً عن هؤلاء جميعاً. ويبدو أن المبلغ كان كبيراً بالنسبة إلى المقدرة المالية للبطريركية فانتدب سيدها اثنين من مقدمي الجماعة القبطية - ساويرس وإبراهيم - كي يذهبا إلى بغداد ويقدما للخليفة المعتر (252 - 255 هـ/866 - 869 م) طلباً بتخفيف العبء عن الطائفة والبطريركية، وقد استجاب الخليفة للطلب الذي أكدته خلفه المهدي (255 - 256 هـ/869 - 870 م). لكن السلطة العباسية المباشرة على مصر توقفت عندها، إذ أنشأ الطولونيون دولتهم (254 - 292 هـ/868 - 905 م) وتبعهم الإخشيديون (323 - 358 هـ/935 - 969 م). وقد تولى الأقباط مناصب متنوعة، كبيرة وصغيرة، في العهدين.

ولما وصل الفاطميون مصر وأقاموا عاصمتهم هناك (362 - 567 هـ/973 - 1171 م) حظي الأقباط بكثير من العناية. فقد كان في حاشية المعز الفاطمي القاهري (341 - 365 هـ/952 - 975 م) قبطي اسمه قزمان بن مينا (ولقب أبا اليمن) الذي احتفظ بمسيحيته مع أنه كان نائب الخليفة في سورية. وقد توفي عزباً فخلف ثروته بأكملها، وكانت كبيرة، للبطريركية القبطية كي تنفق لمصلحة الكنيسة والفقراء.

وكان الخليفة العزيز (365 - 386 هـ/975 - 996 م) أمعن من أبيه في استخدام المسيحيين وإظهار التسامح لهم. فمن ذلك أنه أزال جميع مظاهر التمايز الاجتماعي بين المسلمين وأهل الذمة، وعين مسيحيين في وظائف رفيعة ومهمة، وأعفى الأقباط من جميع الضرائب الإضافية، وسمح

للبطريرك أن يعمر الكنائس المتداعية إلى الخراب، وحتى أن يبنى كنائس جديدة. ولما احتج بعض المسلمين على ذلك وهاجموا الكنائس زود الخليفة البطريرك بحراسة شديدة وطلب منه أن يتم العمل مع عرض تقديم المال اللازم لذلك، أي تعويضاً عما فعله المعترضون. وقد شكر له البطريرك سعيه واعتذر عن قبول المال!

وقد شجع الأقباط في جميع مجالات العمل فكان منهم، فضلاً عن نماذج الموظفين الذين أشرنا إليهم، مهرة الصنائع في جميع الفنون والصناعات العادية والهندسية وخبراء الزجاجين. وظهر بينهم مهرة الأطباء وطبقة من المؤلفين والكتاب، ولو أن هؤلاء نبغوا، على نحو أوضح، أيام الأيوبيين. لكنهم وضعوا أيام الفاطميين، تواريخ الكنيسة القبطية وبطاركتها. وكل هذا وغيره كان ممكناً لأن الخلفاء الفاطميين منحوا المسيحيين والأقباط خاصة (وهم الأكثرية بين المسيحيين) حرية العمل وشمولهم بعطفهم.

والصفحة السوداء في تاريخ الفاطميين جاءت على عهد الحاكم بأمر الله (386 - 411 هـ / 996 - 1021 م). فقد لقي المسيحيون، كما لقي المسلمون، الكثير من الظلم والحيف والاضطهاد والقتل والمصادرة على يديه. وهو الذي هدم كنيسة القيامة في القدس. وقد أعاد بناءها فيما بعد خليفته الظاهر (411 - 427 هـ / 1021 - 1036 م). وفي عهد هذا الخليفة نقل مركز الكرسي البطريركي (القبطي) من الإسكندرية إلى دمرو (وهي مدينة قديمة في محافظة الغربية في الدلتا). لكن البطريركية عادت فاستقرت في القاهرة حيث أصبحت أقرب إلى بلاط الخليفة وصارت تحت حمايته.

(3) المسيحيون في دولة الخلافة

(ب) من القدس إلى بغداد:

كان صفرونيوس بطريرك بيت المقدس (أورشليم) لما دخل العرب القدس (638 م) وقد كان تولى السدة البطريركية قبل ذلك بأربع سنوات. ولما توفي السنة نفسها التي سلم فيها بيت المقدس لعمر بن الخطاب، لم يُخْتَر خليفة له. وظلت الكنيسة دون بطريرك إلى سنة (706 م). وقد كان يديرها في هذه الأثناء نواب بطريركيون هم مدبرون اغتصب بعضهم العمل مثل أسقف يافا (وكان من أتباع المشيئة الواحدة) كما عُيِّن الباكون (أسقفا دورا وفيلادلفيا) ثم جاء اثنان آخران، وبعد ذلك انتخب يوحنا الخامس سنة (706 م) وظل أربعين سنة وخلفه تاودوسيوس الأول سنة (745 م) وتولى البطريركية اثنتين وعشرين سنة. وفي أيام هذين عاد إلى البطريركية بعض التنظيم.

وكان الأثر المباشر لدخول العرب القدس أن أعطى عمر بن الخطاب عهده المشهورة التي أصبحت القاعدة الأصلية للتعامل مع سكان البلاد من المسيحيين، خاصة أن الوضع هنا كان مثل الوضع في ما تبقى من بلاد الشام ومصر، أي خروج عدد كبير من اليونان من جهة، وانقطاع الأثر اليوناني الرسمي الخلقيدوني الذي كان يقف حجر عثرة في طريق التقدم.

والمهم أن بطريركية بيت المقدس عادت إليها الحياة الطبيعية (بعد سنة 706 م) وتحسنت أحوالها يومها وكانت الدولة الأموية قد نشرت سلطانها، وأصبحت العاصمة أقرب إلى بيت المقدس منها في أي وقت آخر.

وقد ظهر في البطريركية المقدسية عدد من كبار رجال الفكر المسيحي

في الفترة الأولى من حياتها. منهم يوحنا السلمي (نسبة إلى السلم الروحي الذي تخيله وترقى عن طريقه إلى العلو السماوي). ولد في فلسطين، لكننا لا ندري أين. وتنسك في دير سيناء وولي رئاسته لكنه هرب من المسؤولية. وقد توفي في سيناء سنة (649 م). فهو من رجال ما قبل الفتح العربي الإسلامي.

ومن المشهورين من أهل المنطقة أندراوس (660 - 740 م). دمشقي المولد وكان من رجال الإكليروس في القدس. أرسل إلى القسطنطينية في مهمة وظل هناك. وقد تولى أسقفية كريت.

ولعل أكبر الكنسيين شهرة يوحنا الدمشقي المسمى مجرى الذهب. ولد في دمشق سنة (675 م) وكان أبوه، سرجون بن منصور، عين أعيان المسيحيين في بلده وكان يشرف على شئون المال في دولة الأمويين. ولما كبر خلف أباه في منصبه. لكنه هجر هذا كله وذهب إلى دير مار سابا (شرقي القدس في جنوب) وسيم كاهناً. وقد وضع التسايح الكنسية ومنها «قانون الفصح المجيد الذي لم تنطق شفاه بشرية بأبدع منه». وكتب يوحنا في اللاهوت. وتوفي نحو سنة (749 م).

وكان القديس قزما ربيب سرجون بن منصور ورفيق يوحنا الدمشقي ومتنسكاً في دير مار سابا مثله. وقد انتخب أسقفاً لمدينة مايو ما قرب غزة نحو سنة (743 م) فكان راعياً حازماً حريصاً على الجماعة والكنيسة. وله قوانين ومدائح رفيعة المستوى وتوفي حوالي سنة (760 م).

والذي نود أن نسجله هنا أنه اعتباراً من القرن الرابع كان كل بطريرك تولى سدة المدينة المقدسة عربياً. وظل الأمر على ذلك حتى سنة (1534 م) لما تحايل جرमतوس اليوناني على تولي البطريركية، فغير وبدل فيها، على ما سنأتي على ذكره في المكان المناسب.

وقد روي أن جماعة من رهبان البندكتيين جاءت القدس في أيام

البطريك جاورجيوس (797 - 807 م). هذه الجماعة بنت لها ديراً على جبل الزيتون المقابل للمدينة المقدسة. ويبدو أن هذا البطريك هو الذي أرسل إلى شارلمان (742 - 814 م) مفاتيح كنيسة القيامة، أي كنيسة القبر المقدس ومحل الجلجلة وراية من بيت المقدس (أورشليم) على سبيل التبرك.

وإذا تذكرنا أن شارلمان تُوِّج سنة (800 م) إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وإن البابا هو الذي تُوِّجه، أدركنا المغزى الذي رمى إليه بطريك القدس من هذه الهدية. فهناك أولاً رهبان بندكتيون غربيون جاءوا القدس. ومع أن الرهبنات لم تكن تابعة للبابوية تماماً فإنها كانت قرية منها. ويروى أن شارلمان أرسل إلى بطريك القدس صدقات لتوزع على المسيحيين. وهذا هو الشيء الثاني. وهنا نسأل أنفسنا أيهما سبق الآخر - تبرعات شارلمان أم هدية البطريك؟ وعلى كل فإن مثل هذه الرواية أقرب إلى الصحة من الرواية الأخرى وهي أن هارون الرشيد هو الذي أرسل الهدية.

يمكن تلخيص الوضع الذي كان سائداً في منطقة الكنيسة اليقونية، قبيل دخول البلاد تحت الحكم العربي الإسلامي في الأمور التالية:

(1) كانت هذه الكنيسة (واسمها مأخوذ، كما ذكرنا من اسم الأسقف يعقوب البردعي) مثل الكنيسة النسطورية، قد أصبحت، غير شرعية في نظر البطريك الأنطاكي اليوناني أو الملكي أو الأرثوذكسي (يمكن اختيار أي اسم) وفي نظر الإمبراطور. وكان البطريك والكهنة، على اختلاف درجاتهم، يعدّون خارجين على القانون. ويذكر القراء أن الكنيسة النسطورية قد كانت طردت خارج حدود الإمبراطورية البيزنطية، لذلك لم تتعرض لما تعرضت له الكنيسة اليقونية.

(2) كان المونوفيسيون هم أكثرية السكان في سورية أو على الأصح في

حدود بطريركية أنطاكية. إذ انهم كانوا سكان الريف وسكان البادية وسكان المناطق التي كانت بين الريف المزدرع والبادية الجافة. وقد اقتصر المسيحيون الرسميون المليون على سكان المدن فقط. ولكن هؤلاء هم الذين كانوا المعترف بهم رسمياً.

ولما تم للعرب فتح بلاد الشام كان عدد كبير من أتباع الخلقيدونية أو المشيئة الواحدة من السكان الأجانب - اليونان - قد خرجوا مع الجيوش البيزنطية. ولذلك فاکثر الذين ظلوا في البلاد هم عرب أو آراميون متعربون أو على شك أو بعض اليونان الذين فضلوا بيوتهم على البيوت غير المعروفة.

وحرى بالذكر انه لم يعد الآن من حاجة خاصة إلى البحوث اللاهوتية الخالصة. تلك كانت لازمة في محاولة للرد على المخالف للرأي - بقطع النظر عن أي هو على صواب أو خطأ، وكانت المجادلات اللاهوتية ضرورية أحياناً بالنسبة إلى المجامع. الآن زال الموجب لذلك. ومن ثم فإننا نجد أمرين مهمين بالنسبة إلى النتاج الفكري، اليعقوبي والنسطوري على السواء. الأول أن المبرزين من أهل الفكر اليعقوبي لم يكونوا من البطارقة أو الأساقفة؛ والثاني هو الانصراف إلى محاولة لدرس الحضارة والفكر الهلينستين (أو الهلينين إذا كان الأصل هو المقصود).

وقد ظلت بطريركية أنطاكية الملكية الرسمية دون بطريرك من سنة (609 م) لما قتل اليهود في ثورتهم على البيزنطيين البطريرك الأنطاكي حتى سنة (742 م). والمقصود: البطريركي العملي. صحيح أن إمبراطور القسطنطينية قد سمى بعض البطارقة هناك، لكنهم لم ينتقلوا إلى السكنى بأنطاكية (على الأقل منذ سنة 637 م) بل عاشوا وماتوا في الغربية. وعلى كل فالمهم انهم كانوا بطارقة رسميين بيزنطيين وكان الزمان قد تغير. لكن الأنكى من ذلك هو أن أصحاب البطريركية

الوطنيين أي اليعاقبة، لم ينتخبوا بطارقة أيضاً. وكان من الطبيعي أن تسود الفوضى بشكل عام.

لما دخل العرب بلاد الشام كان بطريك أنطاكية هو أثناسيوس الجمال بطريك اليعاقبة المونوفيسيين (القائلين بالطبيعة الواحدة). وكان الملكيون (ومؤرخوهم فيما بعد) يعدّون هذا البطريك أنه شبيه بالرسمي.

على كل أفاد اليعاقبة من ذلك فأعانوا الفاتحين. وكان هذا الموقف طبيعياً لأن الكثيرين من المونوفيسيين كانوا إخوانا بالدم واللغة للعرب الفاتحين - مثل الغسانيين ومن سار مسيرتهم.

وبسبب ميل اليعاقبة للعرب الذين اعتبروهم محررين لهم، بسبب الغباء البيزنطي الرسمي، جعل الدولة الجديدة تتكرم على اليعاقبة بأمر كثيرة. فكانت هذه الحرية التي تمتع بها المسيحيون في تصرفاتهم - من مثل منصور (يوحنا الدمشقي) وغيره.

ومما يجب ملاحظته هو أنه لما عاد اليعاقبة إلى انتخاب بطارقة لهم (منذ انتخاب إسطفان (إستفانوس) الثالث سنة (742 م) (وكان هذا صديقاً للخليفة هشام الأموي 105 - 125 هـ/743 - 744 م) لم يقم هؤلاء البطارقة في أنطاكية. لقد ظلوا يعيشون بعيداً عن أنطاكية في مدن سورية الشمالية تارة، وتارة في ملطية من مدن أرمينيا الصغرى، وحيناً في ديار بكر.

ومن هنا فإن الامتيازات التي حصل عليها اليعاقبة في بلاد الشام كانت أقل مما ناله أقباط مصر بسبب تماسكهم.

على أن المؤرخين من الفريقين والجهتين متفقون على أن تصرف أهل الحكم من المسلمين كان، خاصة في الفترات الأولى، يتصف بالتسامح والعدل. إلى هذا فقد كان العرب تواقين للإفادة مما كانت الجماعات والشعوب المتحضرة والسابقة في ميادين المعرفة تكتنزه من الخبرات. وهذا يفسر المركز المرموق الذي شغله العلماء اليعاقبة والنساطرة في بلاط الخلفاء.

وحري بنا أن نتنبه لأمر كان على غاية الأهمية بالنسبة إلى اليعاقبة. كانت نتيجة الفتوح العربية أن أصبحت بلاد الشام وأرض الرافدين وفارس تحت حكم عربي واحد. ومن ثم فقد زالت الحدود التي كانت تفصل بين البلد الواحد والآخر (وكانت حدوداً حارة في أكثر الأحيان). والتنقل الذي أصبح الآن متاحاً للجميع أفاد منه اليعاقبة في انهم نشطوا للتبشير بآرائهم ومذهبهم في تلك المناطق النائية في الشرق حيث كان للنساطرة ما يشبه العمل الاحتكاري قبلاً. من الواضح أن اليعاقبة ما كان باستطاعتهم أن يزاحموا النساطرة في أواسط آسية والشرق القصبي. إلا أنهم الآن انفتحت أمامهم الأبواب المغلقة فانطلقوا بالنشاط الكبير. ويجب أن نتذكر أن اليعاقبة كان لهم موطن قدم في تلك الأصقاع من قبل.

وكان من كبار العاملين في هذا الحقل الراهب اليعقوبي ماروتا (629 - 649 م) الذي تولى، بعد نهاية الدولة الساسانية، متروبوليتية تكريت، والذي كان يتبعه خمسة عشر أسقفاً في أرض الرافدين وفارس. وقد ظل للكنيسة مكانتها واحترام الحكام لها حتى أيام الصليبيين، إذ أن مجيئهم قلب الأوضاع على ما سنرى في حينه.

وماروتا كان، فضلاً عما ذكر، (مافريان الشرق) أي وكيل البطريك هناك، وهو عمل يقتضي الكثير من الجهد. وكان العالم النسطوري المشهور يومها بار صوما، وقد كان كل منهما نداءً للآخر.

كان المركز الكبير لليعاقبة دير كَنْشَرَه، الواقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات. هناك درّس ماروتا، وفيه علّم الأسقف سفيروس (المتوفى سنة 667 م) وكان ضليعاً في المعارف الهلينستية من فلسفة ورياضيات وفلك. فضلاً عن ذلك فقد كان لاهوتياً كبيراً. وقد كان، ولا شك، واحداً من الطلائع في تسويق العلوم الهلينستية - السريانية، دراسة وتأليفاً وصناعة (الإسطرلاب). وكان سفيروس من كبار المدرسين والمنظمين والمنظرين هناك.

وكان من خريجي دير كَنْشَرَه يعقوب الرهاوي (633 - 708 م) - الذي كان أسقفًا ولاهوتياً ومفسراً (للكتاب المقدس وما إليه) ونحويًا وفيلسوفًا ومؤرخًا. ويعتبر واحداً من كبار المؤلفين - عدداً ونوعاً. وهو، فضلاً عن مؤلفاته التوراتية المتعددة والمتنوعة، عمل على وضع الأسس الثابتة للصلوات السريانية والتقويم الكنسي. وكان مولعاً بالتصوف، وقد كتب طويلاً وصف فيها العالم كما يريده ويتأمله.

كان يعقوب ميالاً لإصلاح الاعوجاج حيث وجدته. لذلك فإنه أراد أن يتشدد مع الرهبان في أبرشيته. فثاروا ضده. وأيدهم البطريك يوليان. فترك كرسيه وانتقل من دير إلى دير معلماً كاتباً واعظاً حتى سنة (708 م). ولم يكد يحط قدمه في إديشا، عائداً إلى بلده، حتى تلقفه الموت.

وكان جورج (جاورجيوس) أسقف العرب (686 - 724 م) خريج كَنْشَرَه وخليفة يعقوب في مهماته العلمية. كان مركزه في ألولا (الكوفة) وكان كاتباً قديراً ومكثراً في اللاهوت والفلسفة.

وقد استطاع المبشرون اليعاقبة أن يقنصوا صيداً جيداً من الحقل النسطوري. فقد ربحوا إلياس، الذي كان من أتباع الطبيعتين فاعتنق المونوفيسية على أيديهم. وكان ذلك بعد قراءته أعمال سفيروس. وقد انتخب فيما بعد بطريكاً لليعاقبة (709 - 724 م). وكان بين العاملين في الحقل التبشيري كريالكوس التكريتي، البطريرط اليعقوبي (793 - 817 م).

نكتفي بهذا؛ فنحن لا نريد أن نتابع هؤلاء الأفراد، ولكننا أردنا أن نمثل على أمرين: الأول أن مجال الدراسة على اختلاف أنواعها كان متيسراً لمن يريد، ولم يكن ثمة ما يمنع أيًا كان من متابعة دروسه في دير هنا أو دير هناك. والأمر الثاني هو أن أصحاب السلطان كانوا يحتضنون العلماء ويسمحون لهم بالعمل ويكرمونه في البلاط. فهؤلاء العلماء الذين

ذكرناهم، ولهم زملاء كثر، هم الذين أتيح لهم وشجعوا على نقل الآثار القديمة إلى العرب :- والعربية.

«إن المسيحيين تمتعوا، بشكل عام، بحرية التفكير والعمل في ظل الخلفاء العباسيين الأوائل؛ والبطريرك اليعقوبي أصبح يكثر الزيارة للبلاط. هذا مع العلم أن مافريان تكريت هو الذي كان يتولى شؤون اليعاقبة في ذلك الجزء من أرض الرافدين وما تلاه من الشرق الأوسط». (عزيز سريال عطية).

أما جاثليق النساطرة (أو بطريركهم) فقد سمح له أن يقيم في بغداد (العاصمة) فهو كان منموحاً له أن يقيم في كتيشفون عاصمة الساسانيين من قبل.

وبسبب اهتمام المسيحيين بالنواحي التجارية، فقد كانوا أثرياء. وهذا كان له أثر كبير على مؤسساتهم من كنائس وأديرة ومدارس ومكاتب.

(ج) النساطرة:

تحمل النساطرة شيئاً من الاضطهاد على أيدي بعض الملوك الساسانيين، لما كان هؤلاء ينظرون إليهم على أنهم يتبعون ديناً يقبله أباطرة بيزنطية. ولعلّ شر ما ابتلي به القوم هو تغريمهم مالياً. فقد ضاعف شابور الثاني مطالبه المالية، وحملهم خسرو الأول على دفع جزية، مثل غيرهم من المسيحيين المقيمين في دولته، وذلك مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية.

على أن المهم هو أن مجمعاً محلياً عقد سنة (410 م) في سلوقية - دجلة (كتيشفون). عاصمة الدولة الساسانية. في هذا المجمع انتظم أمر الكنيسة النسطورية، واعترف بها يزدجرد أنها كنيسة ذات كيان خاص. وقد أكد مجمع مركبتا (424 م) هذا الأمر. واعترف برئيسها دديشوع على أنه بطريرك المشرق (421 - 456 م) وسمح له بأن يتخذ من العاصمة الساسانية

نفسها مقرأ له. وقد اعتبر هذا البطريك مسؤولاً عن تصرف جماعته. وقد كان هذا يؤدي أحياناً إلى تدخل الدولة في اختيار الأساقفة وقد ينتج عن ذلك اختيار الأشخاص غير المناسبين لهذه المناصب.

ولما احتل العرب الدولة الفارسية، ووصلوا إلى حدود الهند ظل للنساطرة وضعهم الخاص، وفرضت عليهم الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة، وهم في تلك المناطق يشملون، فضلاً عن المسيحيين واليهود الزرواستريين. ومن هنا فقد ازدهرت شؤون النساطرة في العهد الإسلامي المبكر. ومن الواضح أن المسيحيين كانوا يتمتعون، في دولة الخلافة، بمنزلة خاصة بالنسبة إلى غيرهم من أهل الذمة، وحتى الكتايون منهم. ولعل ما كان هؤلاء يتمتعون به من المعرفة العلمية ساعد على هذه النظرة.

فقد كان للنساطرة مراكز علمية هامة في نصيبين وجنديشاپور ومرو مثلاً. وقد زودت هذه المدارس دوائر الدولة بالموظفين والمحاسبين والكتاب اللازمين لتيسير الأمور والأعمال. وقد وقعت عليهم اضطهادات بين الآن والآخر. وقد يكون هذا نتيجة وشايات مثلاً. ولعل من اطرف ما روي أن أحد أفراد حاشية هارون الرشيد (170 - 193 هـ/ 786 - 809 م) واسمه حمدون أنبأ الخليفة بأن بعض المسيحيين يعبدون عظام الموتى في كنائسهم في البصرة والأهله؛ فأمر الرشيد بهدم هذه الكنائس. لكن لما اتضح للخليفة أن التهمة باطلة أمر بإعادة بنائها (عزيز سريال عطية).

أما وضع المسيحيين في المجتمع فقد كان فيه ما يدعو إلى الفخر. ولسنا ننوي أن نؤرخ هنا للدور الذي قام به علماء النساطرة في بيت الحكمة في بغداد وغيرها. ولن نقدم للقراء هنا حتى ولا نماذج لأسماء كبار العلماء، فهذه أمور أصبحت بديهية بالنسبة إلى القارئ العربي. فقد نقل هؤلاء العلماء والكتاب خير ما وصل إلى أيديهم من علم اليونان ومعرفتهم وهذا كان واحداً من العوامل التي أدت إلى تعرف العرب إلى التراث

الكلاسيكي، وبذلك استطاعوا هضمه والإضافة إليه. وإنجازات العرب في هذا المجال معروفة مشهورة.

والذي يجب أن لا يغرب عن البال أن النساطرة والكنيسة النسطورية تمتعت خلال القرون الثلاثة الأولى بكثير من الحرية والامتيازات. ولعل من خير ما يمكن أن يقدم مثلاً على ذلك هو أن الخليفة المعتضد (279 - 289 هـ/892 - 902 م) عين نسطورياً والياً على الأنبار، الواقعة شمالي العاصمة العباسية. وقد بنى النساطرة كنائس جديدة مثل تلك التي بناها كبريانوس أسقف نصيبين والتي أنفق عليها (56.000) دينار وكان ذلك في سنة (759 م) في أيام المنصور (136 - 158 هـ/754 - 775 م).

صحيح أن مثل هذه التصرفات لم تفت عدداً من الناقدين واللائمين والمعترضين. ومع ذلك فإن الكنيسة النسطورية ومعها الجماعة النسطورية كانت تنمو وتتقدم وتتمتع بالثروة الطائلة بسبب النشاط التجاري الكبير.

د - الموارنة:

مر بنا أن دير مار مارون الذي قام على مقربة من افامية قد أصبح مدرسة كبيرة بالنسبة إلى الجماعة المارونية التي عمرت المنطقة التي تشمل سهول حمص وحماة. ومع الوقت ازداد عدد هؤلاء الرهبان وقاموا بنشر المارونية في مرتفعات لبنان. ولما اشتد الضغط عليهم ازداد إعمارهم لبنان والاستيطان فيه وبناء الاديعة. ويبدو أنه في أوائل القرن السادس كان لهم انتشار في منطقة تمتد من كورش ومنبج شمالاً حتى الجبال جنوباً ومن شواطئ المتوسط وجبال الامانوس غرباً حتى دمشق والبادية شرقاً.

والموارنة تمثلوا الحضارة والثقافة السوريتين وعبروا عنها باللغة السريانية. ومن هنا كانوا خصوماً للعنصر اليوناني لغة، أما العقيدة فإنهم بعد سنة (451 م) أصبحوا خلقيدونيين أي من القائلين بالطبيعتين، ولذلك فهم كانوا، من هذه الناحية، يتفقون مع الفئات اليونانية. لكن عناصر الخلاف

كانت أقوى وافعل في النفوس. لكن أهم ما يجب أن يذكر عن هذه الجماعة أنها كانت ذات نزعة استقلالية. فهي (متمترسة) في محيطها الجغرافي الحصين والقاسي على غيرها. وهي تستعمل، في مجملها، لغة واحدة. وهي تقبل مذهباً عقائدياً واحداً. ولم يكن بينها وبين الدولة البيزنطية أي شيء يمكن أن يربط بينهما.

هذا الانقسام بين مسيحيي سورية، بين المذاهب المختلفة، يدل عليه ظهور وتكاثر سريعان في الكتابات الموضوعة باللغة السريانية في القرن السادس. وتدل على اهتمام المونوفيسيين للاتصال بالشعب السوري عن طريق لغة العبادة ذاتها، ولاستخدام الميول الاستقلالية السياسية في دعوتهم كما فعل الأقباط. وهذا الذي نلمسه من التراجع الهلينستي هو علامة واضحة تشير إلى ضعف الدولة البيزنطية ومقدمة لانحلالها. وينم بطبيعة الحال عن رفض للحكم الملكي الغريب. ولعله يدل حتى على رفض للحكم الملكي من حيث أنه نظام حكم أصلاً. وهناك ما يؤكد أن تشدد يوستنيان وخلفائه في جمع الضرائب، وموقف الإمبراطور من الشؤون اللاهوتية ومحاولته فرضها، كانت جميعها مما قوى موقف الموارنة العدائي (شارل ديل).

وقد ظل الكرسي البطريركي الأنطاكي شاغراً لمدة طويلة بعد الفتح العربي. فبقدر ما كان العداء مستحكماً بين العرب والروم. فبقدر ما كان الذي يشغل هذا الكرسي يجب أن يكون يونانياً، لذلك فإن الوضع كان يحول دون وجود بطريرك. وقد تخطى القصر الحدود فعين بين سنتي (645 و 702 م) بطاركة اسميين لأنطاكية لكنهم لم يدخلوا المدينة أو البلاد قط.

وحسب القانون والشرع المقرر في المجامع والتقاليد الكنسية فقد كان انتخاب البطريرك يتم على يد أساقفة البطريركية ومطارنتها بالأكثرية. ويشترط أن يكونوا مجتمعين في نطاق البطريركية اجتماعياً قانونياً. ولم

يكن للملك حق في التدخل في الانتخاب إلا في تثبيته بعد أن يكون قد وقع يمنتهى الحرية.

ولذلك فهؤلاء البطارقة لم يكونوا شرعيين. والمهم أنهم لم يمارسوا واجباتهم عملياً.

وهنا تقدم الموارنة وانتخبوا سنة (685 م) أو سنة (686 م) أحد رهبان مار مارون بطريركا، وكان أول بطريرك ماروني وعندها ظهر للمارونية كنيسة مستقلة لها بطريرك، ولها إطار وظائف إداري. وترتب على هذا أن البيزنطيين توقفوا، بدءاً من سنة (702 م) عن تعيين بطريرك لأنطاكية يقيم في القسطنطينية.

والبطريرك الماروني الأول هو مار يوحنا مارون. ويبدو أن تقبل الموارنة المونوتيلية واختيار بطريرك للطائفة جاءا متقاربين في الزمن.

وبسبب من استقلال الموارنة استقلالاً تاماً بوصفها طائفة وكنيسة تامة كان بإمكانها أن تتصرف في السبيل الذي تمليه عليها واجباتها.

(4) الحروب الصليبية

الإسلام، بقطع النظر عن طبيعة الدعوة وآمالها ومآلها وأهدافها، دين عربي. أنزل بالعربية وحياً، وشرح بها حديثاً، ووضع بها تطبيقاً أيام الرسول (ص) ثم في عهد خلفائه الأدين، وفسر بها كتابة، ووعظ الناس بها، واستنبطت عبرها الأحكام. ومن ثم فقد كان فهم الإسلام بإبعاده الإنسانية وأحكامه الأخلاقية فضلاً عن قواعده وأصوله، وطرقه وسبيله، على العرب أهون، وكان إلى قلوبهم أقرب. فإذا سمعوا خشعوا لأن الكلمات كانت تنفذ إلى القلب والمعاني تملأ شباب الروح.

لذلك لما قامت دولة الخلافة - راشدة أو أموية أو عباسية أولى - وحكمت على أسس الإسلام كما فهمتها، وعى العاملون في الحكم والمسирون شؤون الدولة، الأحكام وعدلها، ونزعوا في تطبيقها إلى ما هو أيسر، بدل العسر. وإلى ما هو ادعى إلى الترابط والتكاتف في سبيل المصلحة. لقد فرضت دولة الخلافة على المسيحيين الجزية التي أقر الحاكم بها، وطلبتها من الرجال القادرين. أما الخراج فقد فرض على الأرض فدفعه كل مستفيد من أرض مسلماً كان أم ذمياً من أهل الكتاب. وكان الولاة والحكام والعاملون في الإدارة عرباً، فكانت نظرهم أو ولاؤهم للقبيلة واللغة والثقافة تتميز بالأصالة.

وتبدلت الحال منذ أيام المعتصم (218 - 227 هـ / 833 - 842 م) فأدخل العنصر التركي جنداً في الدولة، لكنهم كانوا في الواقع رجال الأمن الداخلي، ولعلنا إذا استعرنا التعبير الروماني فقلنا كانوا الحرس البريتوري

للخليفة، لم نكن قد انحرفنا عن جادة الصواب كثيراً. ولم يكتف الخليفة بأن جعلهم بطانته، بل انتقل بهم من بغداد إلى سر من رأى (سامراء) ليحموه في ظنه، وليبعد شرهم عن سكان بغداد. ولكن الذي حدث أن هؤلاء الجند لم يحموه ولم يحموا خلفاءه، ولم ينج منهم لا أهل بغداد ولا سواهم، لما عادوا إلى العاصمة الأولى.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهانت المصيبة. ولكن الذي حدث بعد ذلك أن ألف هؤلاء الأجانب الضعف عند الخلفاء، فاستمرأوا السلطة والنفوذ، وانتقلوا من التسلط الشخصي إلى التسلط الجماعي، أي إلى انتزاع السلطة من الخليفة وإدارة الأمر نيابة عنه كما حدث لبني بويه (320 - 454 هـ/ 932 - 1062 م) ثم التسلط الأوسع والأقوى على نحو ما حكم السلاجقة (470 - 707 هـ/ 1077 - 1307 م). فقد كان الناس - أمراء وحكاماً وتجاراً وفلاحين ومدنيين وريفين - يعيشون، أيام دولة الخلافة الأولى، في ظلها فتحكمهم بالعدل، وقد تجور لكن الجور لم يكن عاماً، ولم يكن أمراً مخططاً له؛ بل كان يحدث في الغالب بسبب مزاج صاحب أمر أو نهى.

أما الآن فقد أصبح رمز دولة الخلافة - الخليفة نفسه ومن يمت إليه بصلة، وسكان المدن والريف في رقعة من الأرض معينة - كل أولئك أصبحوا يعيشون في ظل سيف يسلطه صاحب قول ونهى من هؤلاء الطامعين. فإذا فتك به فاتك من أهله أو جماعته، حل سيف محل سيف، ونزل (ساطور) منزل (ساطور) وكل يقطع كما يوجهه الضارب. والضارب يوجه الأمر لمصلحته.

وثمة ملاحظة ونحن نشير إلى - ولا نتحدث عن - هذا الوضع الجديد. أولها الانتقام والفتك بالخاسرين، وهم يومها المغضوب عليهم إن لم يكونوا من الضالين. وهذا الفتك وذاك الانتقام يصيب جميع من لهم علاقة من قريب أو بعيد بالقوم الخاسرين. ولن يعدم أن يكون بينهم مسيحيون أو

سواهم من أهل الكتاب. وعندها يأتي من يتبرع بالقول بأن الإسلام يضطهد المسيحيين وأنا استعملت الإسلام (بدل المسلمين) عامداً متعمداً لأن هذه الطريقة التي تكال بها التهم جزافاً.

وهؤلاء الأجانب لم يكن يعينهم، في الدرجة الأولى، إلا الاستيلاء على موارد الرزق ومصادر الثروة الرسمية. ومعنى هذا تكالب قبلي أو عشائري أو حتى أسري. فنحن يكفي أن نمر بأي من الدول أو الدويلات التي قامت - نظرياً - في ظل الخلافة (وكانت الخلافة في الواقع هي التي تقوم في ظلها) فنرى كيف كان الحاكم يقسم دولته بين ورثائه مهما كان عددهم: البويهيون والسلاجقة والزنكيون والأيوبيون وغير ذلك. وفي غمرة الفوضى التي تتلو ذلك كان لا بد أن يقع ظلم على فئات من الناس، بقطع النظر عن معتقدها، وعندئذ تكال التهم لا للقائمين على الأمر، بل على الإسلام.

ولست أزعم أن الاضطهاد والظلم والنهب والسلب والقتل الذي عرفته هذه الدول كان حصّة جماعة دون جماعة. لكن أود أن أشير هنا إلى نقطة تعمّدت تأخيرها وهي أن هؤلاء القوم القادمين إلى ديار الإسلام الصحيح أساساً: معرفة وتطبيقاً قد دخلوا دار الإسلام وقبلوا بهذا الذي يفيد (السلاجقة أسلموا قبل أن يدخلوا دار الإسلام، ولذلك لعلمهم كانوا بيتوا التية على الإفادة من الوضع المتردي). ومن ثم لم يكن لهم للإسلام احترام كاف. لعلمهم كانوا أكثر تعصباً له، لا فهماً ولكن نفعا.

من هنا أحس الذين استمتعوا بكثير من الحرية في دولة الخلافة الأصبيلة بالظلم والاضطهاد، وحسبوا هذا تعصباً من الإسلام وهو تعصب لكن من المسلمين المحدثين.

كان الغالب على الفترة التي نسميها دولة الخلافة الأولى أن الذين كانوا مسلمين كانوا مسلمين على قاعدة واحدة وأساس واحد. وقد يختلف فقيه عن فقيه، وقد يتنافر أصحاب مذهب فقهي مع أصحاب مذهب آخر.

فباب الاجتهاد في مجال توضيح الأحكام مفتوح. وكذلك كان أمر التفسير والحديث. لكن كان الجميع (وقد يكون كلامنا يحوي من التعميم أكثر من الواقع لكنه كان أقرب إلى الواقع). يرون رأياً واحداً أو آراء متقاربة. ولما انتهى الأمر إلى المذاهب الأربعة عرف الناس مكانهم ومكان المذاهب. لكن الأمر اختلف لما بدأت الفرق المختلفة تظهر بين المسلمين. فبدأ التشيع يطالب ببعض ما يعتبره من حقه. وهذا معناه الانتقاض على سلطة الدولة. وهذه لا بد أن تدافع عن وجودها. وتنوعت الفرق حتى في الميدان الواحد.

ولأن هذه الفرق كان يدخل في مناهجها، على ما أشرنا، زحزحة القائمين بالأمر عن أمكنتهم، فقد دخل إلى الخلاف الديني الطمع السياسي. وهذا يجعل الأمور مرتبطة بالمصالح ومن الراجح أن يؤدي ارتباط المصالح بالشؤون الدينية إلى تعصب ديني بسبب التعصب للمصلحة. وعندما يقوم تعصب ديني بين أبناء الدين الواحد، فليس غريباً أن ينتقل هذا التعصب إلى أبناء دينين مختلفين ويحدث في المجتمع الشرخ الذي يمكن أن يكون بلاء مستحكماً.

وهذا الذي حدث. فالخلاف السني الشيعي، ثم الخلاف الفرقي في الجانبين، أدى إلى خلق تعصب هنا انتقل تعصباً نحو المسيحيين، لا لأنهم مسيحيون بل لأنهم مختلفون. ولست أزعم أن الأمر نفسه لم يحصل من ناحية المسيحيين إلى المسلمين، فالجو كان يدعو إلى ذلك. لكن المسيحيين لم يكن باستطاعتهم الإيذاء والظلم، لكن كان عليهم أن يتلقوه فيما إذا أراد زعيم أو حاكم مسلم أو جماعة مسلمة.

ولما أصبح للشيعة دولة خلافية بدأت في تونس حوالي سنة (300 هـ/ 900 م) وانتقلت إلى القاهرة (العاصمة الجديدة القوية القرية من مواطن السنة) في أواسط القرن الرابع/ العاشر، زاد الأمل في القضاء على الخصوم -

نعم فقد أصبح الفريقان خصمين - ومن هنا زاد هذا التعصب وترسخ وأصاب ما نجم عنه الآخرين. فصرخوا ألماً، وقد يكون بعضهم قد تظلم شططاً، ولكن كان ثمة لهذا التظلم بعض العلل والأسباب الصحيحة.

ولا يجوز لنا أن ننسى أن المسيحيين كانوا قد انقسموا شيعاً وملاً ونحلاً وفرقاً ومذاهب، وكانت الخصومة قد بلغت فيما بينها درجة مرتفعة من التشاكس والتنابد، إما لجر مصلحة أو لدفع عدوان أو لإيقاع أذى. وكانت الوسائل متنوعة: فإذا جاءت من القصر فقد تشمل النفي والسجن والمصادرة وحتى القتل ولو بالواسطة؛ وإما جاءت من المسؤولين من رجال الدين فقاعدتها القطع (أو الحرمان) الذي يقابله، من المسؤول الآخر، قطع (أو حرمان) مماثل؛ وإذا ارتفع مستوى الخلاف كان حاجة قد يكون لها أول دون أن يكون لها آخر، على نحو ما مر بنا من الاختلاف حول طبيعة المسيح من أولها إلى ما قبل آخرها؛ وقد يأتي الحرمان (أو القطع) من مجمع إقليمي أو مجمع مسكوني وقد يقبل به كثيرون. وما أكثر ما كانت الشؤون الشخصية من خوف أو طمع أو حقد (أو حتى حلم) هي التي تقرر المواقف.

وفي النهاية كان الغرم يقع على الناس. فيمنعون من أن يكون لهم أساقفة (كما حدث للمونوفيسيين قبل أن تنقذهم الإمبراطورة ثيودورا) أو تصدر كنائسهم ومقتنياتهم، أو قد يؤذون حتى في نفوسهم (كما حصل لما قتل مئات من الرهبان الموارنة على أيدي الخصوم).

ثمة أمر لم ينتبه له الذين أرخوا لهذه الفترة بالقدر اللازم. كان عدد الذين اعتنقوا الإسلام من سكان البلاد جميعها يتزايد مع الوقت. ولعله من واقع الأمر أن يكون أكثرية السكان قد أصبحوا مسلمين في القرن الخامس أو السادس للهجرة (الحادي عشر أو الثاني عشر للميلاد). ومعنى هذا أن المسيحيين ظلوا الآن أقلية نسبياً. إلى هذا يمكن القول بأن مجالات المعرفة على اختلاف أنواعها قد أصبحت ملكاً للجميع لأنها كانت قد نقلت إلى

العربية وكتب الجديد منها بالعربية. فلم تعد، كما كان الأمر في مطلع الفترة العربية الإسلامية، حكراً على المسيحيين. وإذن فعلماء البلاط الخلفي وأطبائهم وندماؤه وسماره أصبحوا الآن مسلمين أو على الأقل أصبحت الأكثرية بينهم من المسلمين. ومعنى هذا إن ما كان يبدو من سيطرة للمسيحيين في البلاط قد اختفت على الأقل.

فضلاً عن ذلك فنحن يجب أن نتذكر دوماً أن أواخر القرن الخامس/الحادي عشر شهد تبديلاً كبيراً في حياة بلاد الشام ومصر. في أواخر هذا القرن طرأ على المنطقة جنس جديد جاء غازياً محارباً محتلاً غاصباً. جاء من الغرب. إذ أن الصليبيين وصلوا بيت المقدس واحتلوها في (15 تموز/ يوليو 1099 م).

فما الذي كان هذا يعنيه بالنسبة إلى المنطقة وسكانها عامة، وللمسيحيين خاصة؟

ومع أننا لا نؤرخ هنا للحملات الصليبية أو لحملات الفرنجة كما يحلو للبعض تسميتها (كأن التسمية تغير من نوعيتها) فلا بد لنا من الإشارة إلى بضعة أمور قد تيسر لنا فهم علاقة هذه الحروب بما أصاب المسيحيين في المشرق.

يجب أن نذكر أن الحملات الصليبية، مثل أمور كثيرة كبيرة من أحداث التاريخ، لا يؤدي إليها سبب واحد أو حال واحدة طارئة. أمور كهذه هي نتيجة مجموعة من العوامل والبواعث التي قد تكون نتيجة تطورات وتبدلات في الحياة ثم هي تظهر أو تطفو على السطح وتحدث ما تحدث. ولذلك فإننا هنا نلفت النظر إلى أمور لعلها كلها مجتمعة - فضلاً عن غيرها لم نشر إليه - هي التي أدت إلى الحملات. ونحن في النهاية سنعنى بهذه الحملات من حيث أثرها في المنطقة العربية وبالنسبة إلى المسيحيين بشكل خاص.

شهد القرن العاشر تقهقراً في قيادة رجال الدين لشؤون المسيحية في الغرب والشرق. ففي الغرب طغى أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على نفوذ الباباوات، خاصة لما ازداد العنصر الجرمني في المجتمع المسيحي. أما في الشرق فقد كانت بيزنطية معقل المسيحية السياسي تشكو من الخلافات المستحكمة أولاً، وكان من الطبيعي أن تتخلف القيادة الكهنوتية عندما يكون أباطرة أقوياء، لو نسبياً، يحكمون في العاصمة، خاصة أن الإمبراطور البيزنطي كان قد فرض نفسه من قبل سيداً في الكنيسة.

فلما تولى البابوية غريغوريوس السابع (1073 - 1085 م) أنعشها وأحيا كيائها اللاهوتي والرئاسي حيث أصبحت محط الأنظار في القيادة. فلما دعا أرويان الثاني إلى حملة إلى الشرق في كليرمون (6109 م) كان لصوته صدى.

وكان للمسيحية انتصار في الغرب في إسبانيا. فقد استعاد أمراء البلاد هناك معاقل قد كان استولي عليها وكانت مدناً عربية إسلامية مهمة. لعل أهمها طليطلة التي استعادها الأسبان سنة (1085 م). وإذن لماذا لا تسترد فلسطين من حكامها يومها؟

كانت الكنيسة في أوروبا، قوية كانت أم ضعيفة، واحدة. لها رأس واحد هو البابا وكانت، على العموم، كنيسة واحدة. مقابل ذلك كان المشرق يتمتع بعدد كبير من الكنائس المتناحرة المتغاضبة. فكان الغرب اللاتيني - ممثلاً بالبابا ومن إلى جانبه - يرى أنه يجب عليه أن ينفذ إلى الشرق، وأن يستولي على الشرق لينقذ المسيحيين مما كانوا فيه من الضلالة. وهو بذلك يقوم بعمل آخر. في سنة (1054 م) حدث الانشقاق الكبير بين الشرق والغرب دينياً. (المؤرخون اللاتين يشيرون إلى هذا بأنه انفصال الكنيسة الشرقية عن الأم وهو نوع من التمرد إن لم يكن كفرًا. وأحسب أن بعض المؤرخين من المسيحيين الشرقيين يعتبرونه انفصال الكنيسة الغربية عن

الأم. فالذنب هو نفسه. لكن الذين ينظرون إلى الأمور نظرة أدق - ولا أقول بعيدة عن التعصب - يرون أن هذا الانشقاق (وليس الانفصال) الكبير هو نتيجة طبيعية للتطور التاريخي الطويل الأمد).

فالباپا كان يحلم في فرض سلطته على الكنيسة الشرقية أو كما كان هو يرى، استعادة سلطته على الكنيسة المنفصلة.

فضلاً عن ذلك، وكما وصفها الدعاة يومها، كان المسيحيون في الشرق يلقون الأذى ويتلقون الظلم، لذلك يجب إنقاذهم مما هم فيه.

ويمكن الواحد منا أن يضم عاملاً آخر كان في غاية الأهمية، ولو أنه اختفى في الضجة التي قامت يومها، وهو العامل الاقتصادي. فالجبهة التي فتحتها الجيوش الصليبية الأولى، والمدن والموانئ التي تم الاستيلاء عليها بين سنة سقوط القدس (1099 م) وسنة (1110 م) المنطقة الساحلية الشرقية من البحر المتوسط هي منافذ التجارة وأبوابها وبواباتها إلى الماوراء المباشر والأسواق القصية.

احتل الصليبيون القدس سنة (1099 م) وخلال عقدين أو ثلاثة من الزمان استولوا على كل ميناء شامي إلى الشمال من عسقلان. وتوسعوا في المناطق الجنوبية من الأردن، وأقاموا مملكة (هي مملكة بيت المقدس) وثلاث إمارات أو كونتيات هي: طرابلس وأنطاكية والرها (إديسّا) وكانت هذه أول واحدة انتهى أمرها سنة (1144 م) فظلت الوحدات الباقية. وفي سنة (1187 م) استرجع صلاح الدين القدس من المحتلين (بعد معركة حطين). وفيما تبقى من الزمن، حتى سنة (1291 م) كانت الحروب أولاً سجالاً بين الأيوبيين والفرنجة ثم أكثر من سجال بين المماليك والصليبيين لما انتهى أمرهم بإخراجهم من بلاد الشام (فاستقروا في قبرص رداً من الزمن).

وضعنا هذه الخلاصة القصيرة لتذكير القراء بهذا الذي مر على هذه

الديار في مدة قرنين من الزمان من أحداث. لكن ما الذي تركته هذه التطورات في البلاد والعباد، وخاصة في العباد؟

يجدر بنا أن نبدأ بالنظر إلى موقف المسيحي الغربي اللاتيني للمسيحي الشرقي - كائناً ما كان انتماءه. وهنا يبدو لنا الصلف الغربي على أشده. المسيحي الغربي اللاتيني التابع للباباوية هو القيم على تراث المسيح، وهو المفروض فيه أن يكون على صواب. وبقية المسيحيين على خطأ. ومن هنا جاء تصرفه العسكري والديني. وإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان قادماً للاستفادة الاقتصادية في الدرجة الأولى، أدركنا كيف يمكن أن يكون موقفه. دعوى حماية المسيحيين من الحيف الواقع عليهم والظلم الذي يحيق بهم كان فيها الكثير من التلفيق.

ولننظر إلى هذه القضية نظرة واقعية. في القرن العاشر اعتنق سكان المجر (هنغاريا) المسيحية. وعندها أصبحت إمكانات القدوم إلى فلسطين للحج ووفاء النذور أكبر وأيسر. فالانتقال براً لم يكن يكلف نفقات سفر على نحو ما كان يتطلبه سفر البحر. وكذلك ازداد عدد الحجاج. ولعل الكثيرين من الحجاج، الذين كانوا يحتاجون إلى السلاح دفاعاً عن أنفسهم في الطريق، أو لأنهم أصلاً من الفرسان حملة السلاح بطبيعة الحال، كانوا يصلون إلى الأماكن المقدسة مع هذه الأسلحة. ومن ثم فقد كان تجمع عدد كبير - نسبياً - أمراً مزعجاً للسلطات. فكان عليها، في نظرها، أن تضيق الأمر دفاعاً عن مصالحها.

فضلاً عن ذلك فقد كان القائمون على الأمر في بلاد الشام في القرن الرابع/ العاشر مثلاً فئات كانت حديثة عهد بالوصول إلى البلاد، ولعل بعضها كان حتى حديث عهد بالإسلام. لذلك فالاهتمام بالشعائر المسيحية من زيارة وحج وتبرك لم يكن لها المعنى نفسه الذي كان لها يوم كان الحاكم والوالي والأمير - أي أصحاب النفوذ - عرباً ممن كان الإسلام جزءاً

عزيزاً من حياتهم وأصيلاً في نفوسهم، لذلك كانوا يدركون معنى هذه الشعائر عند المسيحيين.

فإذا نظرنا إلى الأمر من هاتين الزاويتين أدركنا أنه من الطبيعي أن تكون المعاملة العامة للحجاج المسيحيين الكثر تختلف عنها للعدد الصغير.

هذا من ناحية؛ وهناك ناحية أخرى حرية يامعان النظر وهي أن العامة من المسلمين لم يكن كبح جماحهم متيسراً دائماً. خاصة عندما تستشري الدولة في طلب المال من الناس ويكون جباة وجمّاعه من المسيحيين، على نحو ما كانت عليه الحال في مصر في أيام الفاطميين الأخيرة. ذلك بأن الفئات التي جاءت مع الفاطميين والسودان وغيرهم الذين ضمّهم الفاطميون إلى جيشهم وحرسهم، والمحاولات التي قام بها الفاطميون في سبيل الدعوة لأنفسهم في بلاد الشام واليمن والعراق وحتى في خراسان كل هذه الأمور كانت تقتضي نفقات باهظة؛ وكان على السكان أن يقوموا بدفعها كي تسير الآلة الحكومية وتؤدي وظيفتها. وكان الجباة والحسابون، في كثير من الحالات، من الأقباط. ومن ثم فقد نقم الناس على جابي الضرائب لا على فارضها أو منفقها.

والذي أريد أن أقوله هو أن الحابل اختلط بالنابل، فلم يعد باستطاعة الباحث الاهتداء لا إلى السبب ولا إلى المسبب ولا إلى المسؤول أو السائل. وقد تبدو بعض التفسيرات كأنها تسويغ لتصرف خاطئ بقطع النظر عن بدأ وعمن ثنى.

والذي يمكن أن يقال عن الجروب الصليبية أنها أوقعت ببلاد الشام وما جاورها من الضر والأذى ما لم توقعه حروب أخرى قبلها. فقد جاء حملة الصليب من الغرب فاثاروا، بتصرفهم السياسي والتجاري والديني والشخصي، النفور بين المسلمين والمؤمنين المحليين من المسيحيين، الذين كانوا قد عاشوا في البلاد مدة طويلة في ظل دولة الخلافة أولاً ثم في ظلال

أخرى. ولعلمهم كانوا يتعرضون للأذى هنا وهناك، لا لأن ثمة سياسة مرسومة لذلك بل لأن المزاج الرسمي - الملكي أو الأميري - اقتضى ذلك. أما الآن فقد دخل في روع أكثر المسلمين - أمراء وحكاماً ومواطنين - أن المسيحي شخص يصعب الوثوق به، فهو مرتبط بهذا الذي يعيش في الخارج. الواقع الذي يؤكد التاريخ أن المسيحيين المشاركة، في غالبيتهم، لم يقفوا إلى جانب المسيحي اللاتيني الغربي لأنهم لم يكونوا يقبلون بوجهة نظره اللاهوتية، حتى إن عرفها. والذين وقفوا إلى جانب القادمين من الخارج فئة صغيرة - نسبياً - وكانت لهم ظروف فيها فائدة، وأحوال فيها نفع.

■ اقتضى قتال الصليبيين بالنسبة إلى الدولة الفاطمية زيادة في النفقات. وتبع ذلك وجوب الحصول على أموال أكثر من الشعب. وقد قيل يومها إن الدولة تدافع عن البلاد ضد غزاة من المسيحيين، لذلك يجب أن تجمع الأموال الإضافية من الأقباط وغيرهم من المسيحيين. ومعنى هذا مص دم عدد كبير من الأقباط. وكان ذلك مصيبة على الكنيسة وعلى الطائفة. فقد حدث بعد مدة أن الطائفة ظلت مدة دون بطريرك لأنها لم تستطع أن تجمع ستة آلاف دينار وهو المبلغ الذي كان يلزم دفعه للدولة كي يقر الخليفة الانتخاب!

وكان الصليبيون القادمون يحاولون جهدهم جذب المسيحيين الوطنيين إلى صفوفهم. ولكن هذا لم يتم لهم إلا بالقدر الضئيل. فمن الثابت مثلاً أن المسيحيين كانوا يقاتلون إلى جانب صلاح الدين في فتح القدس وفي حصار عكا.

ونحن إذا تصفحنا ما فعلته القيادات الصليبية العسكرية والدينية بالبطريركية المقدسية والأنطاكية، أدركنا لماذا لم يلب من المسيحيين إلا قلة التعاون مع المهاجمين.

1 - أبدلت بالبطيركية الأرثوذكسية المقدسية (الأورشليمية) بطيركية لاتينية. وبذلك زالت البطيركية الأصلية ولو مؤقتاً، وقد التجأ البطيرك سمعان الثاني إلى جزيرة قبرص. وبعد وفاته انتخب بطيرك لاتيني (هو أرنول دي روهيز الذي كان كاهناً في خدمة دوق نورمانديا).

وأقام الصليبيون بعد ذلك مطارنة لاتين على المتروبوليتات التالية: صور وقيسارية (قيصرية) فلسطين والناصرية والبتراء. وأعيد تنظيم البطيركية على النسق اللاتيني (فلتئينوا) كل شيء من أكبر مدينة إلى أصغر قرية.

2 - وبدلوا الطقوس والعوائد حيث أصبح كل شيء لاتينياً. ولكن هذه المحاولة ولدت كراهية لللاتين في نفوس (الروم) الأرثوذكس، حيث أصبحوا ينتظرون زوال هذا الملك المسيحي.

صحيح أنه كان ثمة بطيرك لبيت المقدس للأرثوذكس يسمى في القسطنطينية، لكنه لم يكن يصل إلى القدس. ولما استرجع صلاح الدين القدس سنة (1187 م) أخذ البطيرك الأرثوذكسي يقيم في المدينة المقدسة. (أما بطيرك اللاتين فقد أقام بعدها في عكا التي أصبحت عاصمة مملكة بيت المقدس اللاتينية، وذلك حتى سنة 1291 م).

3 - على أن الأمر لم يقتصر على منصب البطيرك. إن البطيركية اللاتينية استولت على جميع الأوقاف الأرثوذكسية وضمتها إليها. وهذه، بالمناسبة، لم تعد جميعها إلى الطائفة الأرثوذكسية لما فتح صلاح الدين القدس، بل ظلت بيد البطيركية اللاتينية (التي استمرت وما تزال إلى اليوم) بعض الوقت وقد أعيدت بالفرق.

والأمر نفسه حدث بالنسبة إلى الكنيسة الأنطاكية. إذ لما أنشئت إمارة أنطاكية الصليبية سنة (1098 م) (فقد احتلت قبل القدس) هرب بطيركها يوحنا الخامس إلى القسطنطينية لأنه رأى أن الصليبيين أخذوا بتنظيم شؤون الكنيسة على الطريقة اللاتينية.

وقد عين أصحاب الشأن بطريركاً أرثوذكسياً لأنطاكية، ولو أن ذلك لم يكن باستمرار، لكنه كان يقيم في العاصمة البيزنطية. وقد يزور كرسيه الشرعي لمأماً. لكن البطريرك اللاتيني كان هو الأصل.

وقد يقال، في تسويغ ما أحدثه الصليبيون في بطريركيتي بيت المقدس وأنطاكية، أن مثل هذا التدبير كان طبيعياً. ذلك لأن السلطة كانت بيد الصليبيين وهم من اللاتين، وإذن فمن الضروري أن يكون البطريرك لاتينياً. أي من جنس الحكام ومذهبهم. ومعنى هذا أن الإدارة كانت سياسية دينية من وتيرة واحدة. وقد يكون هذا مسوغاً للأمر. ولكن المهم هو ما ترتب على ذلك من ضياع الطائفة الأرثوذكسية نسبياً (لا عددياً فقط) بسبب هذا الهجوم الأجنبي.

وكان من الطبيعي أن يرسم البطريرك اللاتيني متروبوليتين لاتين وأساقفة لاتين وأن يكون بقية العاملين في الكنيسة من اللاتين. هذا مع العلم بأن بعض الأساقفة كانوا من الأرثوذكس لكن مكانتهم كانت دون مرتبة أمثالهم من اللاتين.

الفصل السادس وكانت المشكلة

(1) غبار العصور الوسطى

■ في سنة (1054 م) تم ما عرف بالانقسام الكبير في الكنيسة المسيحية. انقسمت فيه نهائياً ورسمياً الكنيسة إلى كنيسة غربية هي التي يقوم على رأسها البابا، وكنيسة شرقية. والفرق الأساسي هو أن الغرب كان فيه كنيسة واحدة لها عاصمة واحدة (هي رومة) ولها رأس واحد (هو البابا). أما في الشرق فقد كانت هناك كنائس متعددة، لكل منها رأس هو بطريرك أو جاثليق ولكل كنيسة عاصمتها. وحتى الكنائس التي كانت تتبع تفسيراً واحداً للمسيحية (سواء في ذلك القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح أم التي قبلت مبدأ الطبيعتين) كان لها أكثر من رئيس وأكثر من عاصمة. فالكنيسة القبطية والكنيسة اليعقوبية، وقد قبلتا الطبيعة الواحدة، كان لكل بطريرك وعاصمة؛ والكنيسة الأرثوذكسية (الخلقدونية) كان لها بطريركية في الإسكندرية (لليونان خاصة) وأخرى في أنطاكية وثالثة (أصبحت سنة 381 م الثانية) في القسطنطينية ورابعة (منذ سنة 451) في القدس.

وهذا الانقسام - ونحن لا نقبل كلمة انفصال التي يصر المؤرخون الكاثوليك، والبابويون خاصة، على استعمالها - إذ لم يكن هناك انفصال كنيسة عن كنيسة. كان هناك انقسام؛ بدأت طلائعه لما بدأ المسيحيون يختلفون في تفسير الأناجيل والرسائل واستمر ينمو حتى اتخذ الشكل الرسمي سنة (1054 م).

ولسنا بحاجة إلى التحدث عن الخلاف هنا، فقد أشرنا إلى هذا في أكثر من مناسبة في ما مر بنا من حديث. لكننا نرى من المناسب أن نذكر القراء

بأن الخلفيات هي التي أدت إلى هذا الانقسام: الخلفيات العنصرية واللغوية والثقافية والاجتماعية والفكرية. لذلك فإن هذا الذي تم سنة (1054 م) لم يعد أن يكون نتيجة طبيعية لانتشار المسيحية في منطقة واسعة، متباينة العنصر ومختلفة الثقافة والفكر واللغة ومتنوعة في البيئة الاجتماعية. والواقع أن المسيحية لم تكن الشيء الوحيد الذي أصابه هذا الاختلاف والخلاف بسبب ما ذكر. فالإسلام الذي انتشر أيضاً في بقاع متباعدة وأنحاء مختلفة وبين شعوب متنوعة الخلفيات، أصابه شيء من هذا أيضاً. ولو أن الخلاف بين الكنائس المسيحية كان أكبر من الفرق بين الجماعات الإسلامية.

وحري بالذكر أن البابوية كانت دوماً تحاول أن تتخذ من نفسها رئاسة للمسيحية في كل مكان. وقد نسي الباباوات ومن لف لفهم وضرب بسهمهم أن التنظيم الذي سارت عليه المسيحية إدارة (فضلاً عن الأساس العقائدي) كان لا يتلاءم مع رغبة بابا رومة. فقد كانت الكنائس الشرقية (منذ أن اعترف بكبير أساقفة - بطريرك لكل منها) مستقلة حتى عن جارتها، ولو إنها كانت جميعها تقريباً جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية، وهذا وحده كان كافياً لأن يحول دون التوحيد. فإذا كان ثمة خلاف في نواح من العقيدة والطقوس، فإن التوحيد يصبح أمراً بعيد المنال.

وقد عنيت الباباوية بالتشدد بحققها في رئاسة العالم المسيحي في الأوقات التي كانت تدعمها قوة سياسية ذات وزن في الغرب، أو عندما كان الشرق يتعرض لهزات وخضبات سياسية. فالقرن السادس مثلاً، بعد أيام يوستينيان، كان فترة اضطراب في بيزنطة. ولم يكن الأمر أفضل كثيراً في مطلع القرن السابع. هنا كانت أبواق البابوية تطالب بخضوع الكنائس الشرقية لها، مع أنها لم تكن هي في وضع تحسد عليه في الغرب. ولما توج البابا شارلمان إمبراطوراً رومانياً (800 في عيد الميلاد في رومة) عادت البابوية إلى المطالبة بخضوع الكنائس الشرقية، ولو أن هذه الكنائس (الإسكندرية وأنطاكية والقدس وتفرعاتها) كانت قد أصبحت جزءاً من دولة الخلافة.

والذي نود أن نشير إليه هو أن مثل هذا التصرف من قبل البابوية لم يكن له الأثر الطيب بالنسبة إلى مسيحيي الشرق. ذلك بأن مثل هذه المطالبة كانت تنعكس سلباً على المسيحيين.

ولما قام الغرب بحملاته الصليبية على بلاد الشام ومصر (1009 - 1291 م) كانت لهذه الحملات أيضاً آثار ضارة. فمع أن الكثيرين من المسيحيين لم يقاتلوا في صفوف المهاجمين، ومع أن الكثيرين منهم حاربوا ضد الصليبيين - باعتبارهم غرباء معتدين - فإن المسلم العادي أولاً والحاكم المسلم الأجنبي ثانياً، لم يستطع أن يدرك هذا الأمر الدقيق. فالمهاجم مسيحي، وإذن فالمسيحي المقيم في البلد المسلم هو موضع شبهة وشك. وقد يكتفي بمراقبته، لكن قد تكون نتيجة هذه الشبهة شيئاً آخر، أذى يصيبه في ماله وفي نفسه وأهله.

كانت هناك جماعات في مناطق مختلفة انضمت إلى الجيوش المهاجمة لا بسبب الرابطة المسيحية، ولكن بسبب ما يمكن أن يحدث في كل حروب - من حيث الإفادة من القتال قتلاً أو بيعاً أو شراء أو تقديم خدمات متنوعة. والذي نعرفه من روايات متعددة أن مثل هذا التعامل مع الصليبيين الغزاة لم يقتصر على فئات مسيحية - إذ أن الحاجة لم تحمل المسيحيين فقط على الإفادة، كما أن تأخر الفترة، هو أن الحروب الصليبية كانت وبالأعلى على المسيحيين في البلاد الساحلية خصوصاً.

على أن أموراً أخرى كان من أثرها أن أوغرت صدور الحكام المسلمين ضد المسيحيين من أهل بلاد الشام ومصر. ذلك بأن خسارة آخر معقل من معاقل الصليبيين في الشام (عكا/ 1291 م) لم يضع حداً للمحاولات الأوروبية للاستيلاء على مناطق في المنطقة. وحرى بالذكر أن هذه الحملات، مثل عدد من الحملات الصليبية الأصلية، لم تكن حملات دينية. إن الروح الدينية، على افتراض وجودها إلى درجة ما في الفترة

الصليبية الأولى، وضعت على الرف في سبيل الناحية الاقتصادية (خاصة منذ حملة (1204 م) التي توجهت إلى القسطنطينية بدل الأراضي المقدسة، واحتلتها وأقامت فيها دولة لاتينية استمرت حتى سنة 1261 م). وهذه الناحية التي كانت موجودة من قبل هي التي حملت الأوروبيين على محاولة الاستيلاء على مصر (حملة الإسكندرية سنة 1365 م) ومحاولة الاستيلاء على أماكن أخرى، ولو بحملات صغيرة. هذه المحاولات لم تكن دينية/مسيحية قط. كانت اقتصادية في الأصل (سبباً) في التصرف (أسلوباً) وفي المقصود (غاية). لكن بعض حكام المماليك ثارت حفيظتهم على التجار المسيحيين المصريين متهمين إياهم بالتعاون مع المهاجمين ولعل هذا الموقف الرسمي (غير المعلن) شجع بعض السكان على مهاجمة المسيحيين، هنا وهناك.

على أنه يجب علينا أن نتذكر أيضاً أنه فضلاً عن الحملات (وكان آخرها حملة نيكوبوليس سنة 1396 م) كان هناك الدعاة الأجانب الذين كانوا يزورون البلاد مندوبين عن أصحاب النفوذ لدرس خير السبل لاحتلال البلاد المقدسة. وهل الأفضل أن يكون الهجوم عن طريق مصر رأساً أم حتى عن طريق تونس تمهيداً للوصول إلى مصر. أم لعل العودة إلى الهجوم المباشر على بلاد الشام، وخاصة فلسطين هو السبيل الأوفر حظاً.

واستولى المماليك على الحكم في مصر وبلاد الشام (كانت بلاد أخرى تحت نفوذهم). ولندكر بادئ بدء أن المماليك كانوا، مثل السلاجقة، غرباء عن البلاد. ولعلمهم كانوا مسلمين بسبب نشأتهم ووجودهم في المنطقة. وكان الإسلام يقبله كل جيل قادم من الخارج، فلم يصبح جزءاً من نسيجهم الاجتماعي على نحو ما عرفه العرب أيام الأمويين والعباسيين الأوائل.

لذلك مع أنهم كانوا يظهرون كل أمارات التكريم للإسلام بناء جوامع

وإقامة مدارس ووقف الأملاك على المؤسسات المختلفة من مستشفيات وسبل وغيرها، فإنهم لم يكونوا دوماً يتقيدون بالقواعد الأساسية في تصرفهم نحو الرعايا.

والممالك كانوا مسرفين في إنفاقهم، ومع أن وارداتهم من الجمارك والإتاوات والتجار كانت كبيرة، فقد كانوا يحتاجون دوماً إلى المال للإنفاق على حياتهم الخاصة وعلى الجند الذي يحميهم. نقول يحميهم ونقصد الحماية الخاصة لكل أمير لا حماية الدولة من حيث أنها دولة!

هذه الحاجة الماسة والمستمرة للمال كانت تحملهم على مصادرة أموال الأغنياء الكبار، وخاصة التجار. كانوا يصادرون - كما صادر سواهم في دولة الخلافة أو دولها - الأموال من الجميع، بقطع النظر عن العقيدة الدينية. لكن لعل نسبة ما كان يصادر من التجار المسيحيين كان أكبر لأنهم كانوا أكثر عناية بالتجارة من المسلمين. وقد ينزل الحاكم عقوبة بالمسيحيين تكون شديدة لأنها تطال كنيسة أو أكثر بالهدم. وهو نوع من العقوبة لم يكن يوقعه الحاكم المسلم على جماعة إسلامية بان يهدم جامعها (وقد حدث هذا عندما كانت الفروق بين الحاكم والجماعة الإسلامية كبيرة في شؤون العقيدة). والهدم يظهر للعيان، ويتضح ويذكر. ومن هنا نعر في كتب التاريخ على شكاوى من مثل هذا التصرف.

فلما احتل الممالك جزءاً من أرمينيا هدموا بعض كنائسها الكبيرة، مع أن الإسلام لا يسمح بذلك. ولكن الذين أرخوا لهذا الفتح قالوا إن المسلمين هدموا الكنائس وهو صحيح. لكنه لا مسوغ له من حيث القواعد الشرعية.

وعندنا خبر يتعلق ببلبان يعود إلى سنة (1303 م). في تلك السنة هاجم سكان كسروان جيشاً مملوكياً وقتلوا منه فئة لا يستهان بها. فهاجم الممالك المنطقة ومثلوا بأهلها فضلاً عن أنهم قتلوا منهم الكثيرين. والذي

يقرأ هذا الخبر اليوم، وهو يعرف أن سكان كسروان من المسيحيين، يحسب أن الممالك فعلوا ذلك بالمسيحيين. مع أن الواقع هو أن الأغلبية الساحقة من سكان كسروان كانت يومها من الشيعة. والهجوم إذا أردنا أن نصنفه في خانة القتال الديني، فهو هجوم سني ضد الجماعة الشيعية!

لا نقصد من هذا أن ننكر أن فئات مسيحية ظلمت وهضمت حقوقها ونهبت أموالها وقتل أفرادها. لكن يخيل إلينا أن هذا الأمر فيه شيء لا يستهان به من المبالغة والتعميم.

ولعل من آثار الحملات الصليبية هو أن اتفاقاً عقد في سنة (1142 م) بين بطريرك القسطنطينية وملك القدس اللاتيني، كان يقضي بتعيين بطريرك (مقدس) للجماعة المسيحية المحلية التي ظلت على عقيدتها ولكنها قبلت بالسلطة البابوية. وكان من بنود هذا الاتفاق أن يذهب هذا البطريرك (لعله في الواقع كان من نوع رئيس الأساقفة أو الأسقف الكبير) إلى القسطنطينية كي يثبت هناك أمام بطريركها الأرثوذكسي والملك. ويبدو أن هذا استمر أيام الممالك مع أن البطريركية اللاتينية (التي أنشئت أيام الصليبيين) قد انتهى أمرها. وما يروى أنه في النصف الأول من القرن الرابع عشر انتخب بطريرك (أرثوذكسي طبعاً) اسمه إلغازر وكان غائباً وقت انتخابه فاغتصب جراسيموس المنصب. وذهب الاثنان إلى القسطنطينية، وهناك أدلى كل بحجته أمام البطريرك القسطنطيني. فاحتجز هذا الاثنان وكتب إلى السلطان المملوكي يطلب منه رأيه؛ وحقق السلطان بالأمر، ووجد أن إلغازر هو صاحب الحق، فكتب بذلك إلى البطريرك الذي ثبت إلغازر في منصبه. (تولى إلغازر البطريركية 1335 - 1360 م).

وما روي أن سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة (1453 م) أدخل السرور على السلطان المملوكي فاحتفل بذلك بمصادرة أملاك بعض المسيحيين وسجن آخرين وهدم بعض الكنائس.

كان الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر سنتي (1516 و 1517) للميلاد، وإتمام احتلال العراق وشمال إفريقيا في العقود التالية من القرن السادس عشر حدود التبديل المهم في تاريخ المنطقة بأكملها. لذلك فإننا قبل أن ننتقل إلى العصر العثماني نرى أن نتناول المسيحيين الذين كانت مراكزهم الأصلية خارج مصر وبلاد الشام، ولو أنهم كانوا مع ذلك في حدود الدول الإسلامية في العراق وما جاوره.

وأول هذه الجماعة هم اليعاقبة الذين كانوا قد تقدموا في أيام الخلفاء الأوائل وكانت لهم مراكز مهمة في بلاد الخلافة الشرقية على ما مر بنا. ولما توغل المغول غرباً في فتوحهم، شملوا اليعاقبة الذين كانوا قد انتشروا شرقاً بالكثير من العطف. أما أنه قد أصابهم الكثير من الضرر في أثناء الزحف نفسه، فأمر طبيعي، إذ أنه لم يكن في حسابان الغواة أن يفرقوا بين الناس. إلا أن الأمر تبدل بعد سنة (1295 م). ففي تلك السنة اعتنق غازان الإسلام. وهنا تعيد القصة نفسها. هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام مجدداً لم يفهموا روحه، وتعلقوا بالقشور، فظنوا أن الإساءة إلى أتباع الأديان الأخرى شيء مشروع. لذلك تعرض المسيحيون اليعاقبة، كما تعرض المسيحيون النساطرة، على ما سنرى، لاضطهاد شديد وقمع أشد. وجاءت حملات تيمور لتزيد الأمر ضغطاً على إبالة. ذلك بأن جنوده جعلوا المراكز اليعقوبية الأصلية قاعاً صفصفاً، فدمروا آمد (ديار بكر) وماردين والموصل وطور عابدين وتكريت؛ وقتلوا الكثيرين من المسيحيين. ومن هنا فان تدمير العدد الكبير من الديارات (الأديرة) اليعقوبية يعود إلى هذه الفترة.

وهكذا فان الأتراك العثمانيين لما دخلوا المناطق التي كان لليعاقبة فيها ازدهار، كانت قد أصبحت خربة، ولم يكن عدد اليعاقبة، حتى في القرن الثامن عشر، يزيد عن (150.000). (وقد قدر العدد بنحو 200.000، واعتبر البعض هذا مبالغاً).

والكنيسة الثانية التي تعيننا، مما كانت قد ازدهرت أيام دولة الخلافة الأولى هي الكنيسة النسطورية. وقد أخرج النساطرة من الدولة البيزنطية على ما مر بنا، فوجدوا ملجأ في دولة الساسانيين. وقد احتضنهم الخلفاء الأوائل من الدولة العباسية، فكانوا بناء العلم والمعرفة فيها.

وقد كان بطريرك النساطرة الوحيد الذي اتخذ من بغداد، عاصمة الخلافة، مركزاً له بسماع من الخليفة طبعاً.

وإذ كانت الكنيسة على درجة كبيرة من الثراء أصبح مركز البطريرك كبيراً بالنسبة إلى الإدارة المركزية. إلا أن هذا لم يلبث أن عكس الأمر تماماً. أصبح البطريرك ينظر إليه كأنه واحد من موظفي الدولة الكبار، ومن ثم كان الخلفاء ومن حولهم يستفيدون من ذلك بانتدابه للقيام بمهام دبلوماسية إلى عواصم المسيحية مثل القسطنطينية ورومة.

وبسبب هذا المقام الذي اعتبره الكثيرون أمراً مهماً أصبح كرسي البطريركية مما يطمع فيه. ومما يروى أن ثيموتاوس الأول (779 - 824 م) وضع أمام ناخبيه أكياساً ثقيلة على أن تفتح بعد انتخابه؛ وقد حسب الكل أنها مملوءة بالنقود. فلما تم انتخابه وفتحت وجدت مملوءة بالحجارة. ومع أن الأساقفة الحاقدين جربوا أن يقترحوا لبطريرك آخر، فإن محاولتهم ذهبت أدراج الرياح، لأن انتخابه كان قد نال موافقة الخليفة، وهذا أمر كان دوماً ضرورياً لتثبيت الانتخاب وتولي المنصب. وقد دفع ألف دينار ثمناً للبطريركية سنة (1148 م).

ومع تأخر الخلافة وتضعفها ضعفت الكنيسة النسطورية. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر أصبحت الكنيسة، والبطريركية بطبيعة الحال، نهبا مقسما بين الدويلات التي قامت في ظلال الدولة العباسية.

لكن الكنيسة النسطورية تأثرت بالاتجاه المغولي غرباً وخاصة على أيدي تيمور، حيث أنها انحصرت - طائفة وكنيسة وبطريركية (بالنسبة إلى العالم

العربي وجواره) - في منطقة مرتفعات هاكياري الواقعة بين بحيرتي أورمية وفان.

وهكذا فقد تم انعزال النساطرة عن الحياة الثقافية والفكرية انعزالاً تاماً، وأصابهم ما يمكن أن يشار إليه بأنه تحجر اجتماعي.

■ حري بنا، قبل أن نتقل إلى العصر العثماني الذي كان له اتجاهه الخاص نحو الإدارة والرعايا، أن نودع الفترة المملوكية في الشرق وما يقابلها في أوروبا زمناً، يوضع ملاحظات أساسية.

أولاً: كان المسيحيون، بالنسبة إلى الإسلام، أهل ذمة، مثل بقية أهل الكتاب. لهم أوضاع خاصة في الدولة الإسلامية ولعلنا لا نعدو الصواب كثيراً إذا لجأنا إلى تعبير حديث وقلنا إنهم كانوا مواطنين من الدرجة الثانية. لهم حق الحماية والرعاية، وعليهم الطاعة والأمانة للدولة. على أننا لا نستطيع أن ننسى أن حكم الشرع هذا لم يطبق دائماً بالدقة الواجبة؛ وقد أشرنا إلى هذا قبلاً فلا نريد العودة إليه.

ثانياً: في أيام المماليك تطورت الأمور حيث أن جمع الجزية من أهل الكتاب (أهل الذمة) عهد به إلى رؤسائهم الروحيين. فكان البطريرك مثلاً أو من ينوب مكانه محلياً، هو الذي يحتفظ بالسجلات المتعلقة بأفراد طائفته، فيدون أخبار المواليد والمتوفين، كي يتمكن من جمع الجزية ممن يتوجب عليه وينقلها إلى خزينة الدولة. وسرى أن هذا النظام ورثه العثمانيون وعملوا به.

ثالثاً: هناك الموقف الغربي من المسيحية والمسيحيين بقطع النظر عن الكنيسة التي يتبعون أو الطائفة التي إليها ينتمون. هذا الموقف هو الذي اتخذته البابوية أساساً لتصرفها. وقد وضع القواعد الرئيسية له البابا إنوسنت الرابع (1243 - 1254 م) وتطور بعض الشيء، لكن الأسس ظلت على ما كانت عليه. والأسس التي اعتمدها الموقف (الأصل

والمتطور) يمكن تلخيصها فيما يلي:

- 1 - البابوية هي المسؤولة عن المسيحية والمسيحيين بقطع النظر عن طوائفهم ومذاهبهم ومكان إقامتهم. ومعنى هذا ان البابوية كانت تضع المسيحيين (المشاركة) سواء كانوا مقيمين في دولة (دول) الخلافة أم في الدولة البيزنطية على مستوى واحد. فجميعهم - سواء أدانوا للبابوية أم لا - هم هم البابوية، وعلى البابا أن يبذل جهده في سبيل تبشيرهم بالكثلكة والدفاع عنهم.
- 2 - والدفاع عن المسيحيين سبيله إما الحرب، ومعنى هذا أن الحرب الصليبية لا يمكن الاستغناء عنها. وأن هذه الحرب (أو الحروب) يمكن أن تشن اما ضد الدول الإسلامية أو الدول التي تؤوي الكنائس غير التابعة للبابا مباشرة.
- 3 - وان لم يكن ثمة سبيل لشن الحرب - ولو مؤقتاً - فلتعلن حرب تبشير لاستعادة هؤلاء المسيحيين الذين ضلّوا (وهم لم يضلّوا. وكل ما هناك أن خلافاً جوهرياً دخل في جسم المسيحية فجعل من أتباع الدين الواحد مذاهب مختلفة وطوائف متعددة). والتبشير يمكن أن يتم بأي واسطة متيسرة.
- 4 - في الوقت الذي كان فيه إنوسنت الرابع يحتل العرش البابوي، كانت القيادة الصليبية تهتز أمورها في الأرض المقدسة اهتزازاً كبيراً. وقد كانت مملكة القدس اللاتينية (وقد أصبحت عكا عاصمتها) تقلصت مساحتها؛ والحملة التي أمل الكثيرون من مسيحيي أوروبا (في فلسطين وفي أوروبا) الخير على يديها، حملة سنة (1204 م) اتجهت نحو القسطنطينية (استراتيجياً وتجارياً). فلم تنفع المملكة في شيء. وكان الكثيرون من الافرنجة قد تبلدوا، على حد تعبير أسامة بن منقذ، واستكانوا إلى حياة فيها من الدعة

الكثير، فآثروا العافية. فضلاً عن ذلك فقد كثرت الخلافات بين الفرق والفئات المسيحية المختلفة حول المنافع التي تجنى والفوائد التي يتوقعها المحاربون. واتخذت الخلافات شكل قتال بين الجماعات المتعددة حتى داخل المدينة الواحدة. وقد حدث، غير مرة، أن بعض نبلاء الاقطاع اللاتيني تحالفوا حتى مع أمراء من المسلمين ضد خصومهم من أبناء جلدتهم. ومن هنا كان إصرار إنوسنت الرابع، في قواعده المذكورة، إنه لا يجوز التخلي عن الأرض المقدسة (أو الأماكن المقدسة) ولا بشكل من الأشكال، حتى شرعاً (كانت القدس وبيت لحم قد خرجت عن النفوذ الصليبي الافرنجي منذ أن احتلها صلاح الدين سنة (583 هـ/1187 م).

5 - ولعلّ موقف الباباوية هذا هو الذي سمح للروح المقاتلة في أوروبة الفرنجية خاصة حياة في سبيل استرجاع المدينة المقدسة. على أن هذا الشعور، الذي قد يكون دفيناً، لم يكن كله دينياً - كان هناك الكثير الكثير من النظرة التجارية التي تحرك العمل إذ تحركها الاطماع.

رابعاً: هذا كله لم يكن مما يفيد المسيحيين المقيمين في دار الإسلام. ذلك بأن النظرة الرسمية (وشبه الرسمية) لمثل هذه الأمور كانت دوماً يخالطها شيء من الشك في احتمال أن يكون لدى هؤلاء المسيحيين المشاركة ما يقربهم من المسيحية الغربية الرسمية. وهذه كانت مصدر خطر لجميع المسيحيين. ومن هنا فإن تصرف الباباوية لم يكن مما ينفع المسيحيين، بل لاشك أنه أساء إليهم، أمام السلطات والشعب. وقد نالهم الأذى بسبب ذلك.

ولعله مما يجب ذكره هنا، ونحن نودع الفترة المملوكية هو أن كرسي البطريركية الأنطاكية نقل إلى دمشق في أواسط القرن الرابع عشر الميلاد أو

بعد ذلك. فهناك أربعة تواريخ تعطى لهذه النقلة ولعل الخلاف بينها ليس سببه الخلاف في الرواية، ولكن الخلاف في النقل الموقت أو المستقر (التواريخ الأربعة).

(2) وجاء العثمانيون والمبشرون

في القرن السادس عشر انتقلت بلاد الشام ومصر والعراق وشمال إفريقيا إلى الحكم العثماني. ففي سنتي (1516 و1517 م) استولى سليم السلطان العثماني على بلاد الشام ومصر، وفيما تلا ذلك من العقود ضمت شمال إفريقيا والعراق.

ورث العثمانيون التنظيم المملوكي المتعلق بالجوالي وترئيس البطريرك أو الكاثوليكوس (الجالتيق) عليها (فيما يتعلق بالمسيحيين). وقد طور العثمانيون هذا الأمر بأن أصبح عندهم نظام الملة (جمعها: ملل). فكانت كل طائفة، عندما تعترف الدولة العثمانية بها، تصبح وحدة اجتماعية علاقتها الرسمية بالدولة تتم عن طريق هذا الرئيس الروحي.

على أن السلطان سليم لما احتل بلاد الشام ومصر اعتما تنظيماً غريباً مع الطوائف المسيحية. فقد جعل الكنائس التي تقبل الطبيعة الواحدة تحت نفوذ الجاثليق أو البطريرك الأرمني. فكان الأقباط واليعاقبة والسريان والنساطرة والغريغوريون تابعين للبطريرك الأرمني. أما بطريركية أنطاكية الأرثوذكسية ومثلها بطريركية أورشليم (القدس) فكانت تحت نفوذ بطريرك القسطنطينية. وكان من أثر هذا أن هذا البطريرك اغتتم الفرصة وبسط سيطرته على سورية وفلسطين، أي على البطريركيتين الأنطاكية والمقدسية. وكان أن تولى سدة البطريركية المقدسية جرمانوس اليوناني (1534 - 1579 م) فأفاد من سلطة البطريرك القسطنطيني اليوناني وتأييد الدولة، فأقصى الوطنيين عن المناصب الكنسية وحصر البطريركية

والأسقفية بالعنصر اليوناني. ولعلّ جرمانوس هذا تستحق بطريركيته إشارة خاصة. فهو كان يوناني الأصل، ولكنه اختلط بالعرب إلى حد أن أحداً لم يشتبه به أو يشك في صميم عروبه. وقد ترقى في السلم الكهنوتي حتى تسنم الكرسي البطريركي. وكان كلما توفي أحد الأساقفة العرب سام مكانه يونانياً. حتى أصبح جميع الأساقفة (المطارنة) من العنصر اليوناني. لكن أهم ما فعله هو تنظيم (أخوية القبر المقدس) التي قصر عضويتها على اليونان، حيث أن أي عربي لا يمكن أن ينضم إليها، ومن ثم أن يكون راهباً. إنه إذا دخل الأخوية تقدم في المناصب الكنسية العالية. ومن هنا فقد ظلت عضوية الأخوية لليونان، وما يزال الأمر إلى الآن وهو أن جميع المطارنة وكل بطريرك هنا يوناني (سيم مؤخراً عربي أسقفياً في البطريركية، لكن من المؤكد أنه لن يسمح له بالتقدم أكثر من ذلك).

ومثل هذا فرض على البطريركية الأنطاكية لكن ذلك انتهى أمره سنة (1898 م) إذ ثار الكهنة العرب السوريون (أتباع البطريركية الأنطاكية الأرثوذكسية) وفرضوا وجودهم. ومن ذلك الوقت أصبح جميع الأساقفة وكل بطريرك من العرب.

وليس من شك في أن اتباع هؤلاء الأرثوذكس بطريرك إستانبول وتقوية نفوذه هو الذي مكن لجرمانوس وغيره من التصرف على نحو المذكور.

وكان الباب العالي حريصاً على الحصول على المال، وكانت تنظيمات (الملة) تنفعه في ذلك. من هنا كان حرص الباب العالي على زيادة عدد الملل المسيحية. ومن الجماعات التي أصبحت تعتبر ملة الكنيسة اليعقوبية. وبهذه المناسبة فإن مقر البطريركية (الأرثوذكسية) الآن هو حمص ويتبعها ست عشرة أسقفية أو ما إلى ذلك: منها سبع في جنوب الهند وثلاث في

سورية واثنان في العراق واثنان في تركيا وواحدة في مصر وواحدة للولايات المتحدة وكندا.

ونحن إذا أخذنا المسيحيين ومنظماتهم قطراً قطراً في الفترة العثمانية الأولى وجدنا أن الأمر الذي كان أساسياً في مصر هو أن العثمانيين لم يحكموا القطر حكماً عثمانياً قط. فقد كان الباشا العثماني (وهو تركي) والمماليك الذين ظل لهم نفوذ قوي والجيش يسعون جميعاً للحصول على المال من البلد. كل يسعى منفرداً وكأنه هو الوحيد الذي يحق له أن يجمع الضرائب والإتاوات، لذلك كان العبء على كاهل الشعب ثقيلاً.

وقد كان للأقباط دور كبير في الشؤون المالية والإدارية في هذا التنظيم. وأتيح للبعض منهم أن يجمعوا ثروة كبيرة مثل الأخوين جوهري.

كانت الدولة العثمانية تنظر إلى الأقباط نظرة فيها الكثير من العدل والإنصاف. فقد سمحت إستانبول ببناء كاتدرائية الأرمينية، كما عمرت كنائس قديمة قد كانت هدمت في عهود سابقة. وأعيدت الدراسات القبطية إلى الكثير من مكانتها.

وكان عصر محمد علي عصراً مشجعاً على تطوير الشؤون الكنسية القبطية في أيام بطرس السابع الذي تولى الزعامة القبطية من سنة (1809 م إلى 1852 م). ففي أيامه سيم أول أسقف للسودان وأرسلت بعثة قبطية دينية إلى إثيوبيا.

واستمر الأمر في أيام كريستس الرابع الذي اهتم بالتعليم الابتدائي وأنشأ الكلية القبطية الأرثوذكسية (التي كلفت 600.000 قرش وهو مبلغ ضخم). وقد وهب الخديوي إسماعيل هذه الكلية (1500) فدان من الأرض لضمان المصاريف لها. وفتح بطرس هذا، الذي تولى شؤون البطريركية من سنة (1854 إلى 1861 م) أول كلية للبنات في مصر، وأتم بناء الكاتدرائية السابقة الذكر.

■ إن أكثر ما أساء إلى المسيحيين العرب في العصور الحديثة هو تدخل المبشرين في حياتهم. ذلك أن هذه الاتصالات التي تمت على يد المبشرين كانت أحياناً ترتبط بالدبلوماسيين الأوروبيين، لذلك كانت، أحياناً كثيرة، قد تلقي ظلالاً من الشك لا مسوغ لها على تصرف المسيحيين العرب، وتحمل جيرانهم وأبناء وطنهم من المسلمين على أن ينظروا إلى القضية نظرة فيها شيء من الشك والريبة.

والمهم هو أن المحاولات التبشيرية الكاثوليكية كانت تنظر إلى المسيحيين العرب التابعين للكنائس الأرثوذكسية الأصلية على أنهم خوارج عن المسيحية لأنهم لا يقبلون بسلطة البابا. فالقضية لم تكن محض محاولة لإرشادهم بل الأصل فيها أنها محاولة لإخضاعهم.

ولنبداً باليعاقبة الذين أخذ المبشرون الكاثوليك يعملون بينهم منذ القرن السادس عشر (هذا الخبر المدون). فقد زارت بعثة يعقوبية رومة سنة (1552 م). ولسنا نعرف شيئاً مؤكداً عن نتيجة عملها المباشرة. لكن (ثمار العمل التبشيري الروماني بدأت بالظهور في أواسط القرن السابع عشر. فقد اعتنق عبد العال أخيجان المارديني اليعقوبي الكثلركة وهرب إلى لبنان. وهنا سيم مطراناً سريانياً كاثوليكياً على حلب على يد البطريرك الماروني، لكن بطلب من القنصل الفرنسي في حلب. وقد تسمى أندراوس وأصبحت له رعية مكونة من عدد صغير (سنة 1656 م). ولما توفي البطريرك اليعقوبي في ماردين، عمل القنصل الفرنسي في حلب ودبلوماسي فرنسي آخر على أن يصل أندراوس إلى السدة البطريركية. وقد وافق السلطان العثماني على ذلك وأمر جميع الموظفين والقضاة بأن يعتبروا أندراوس الرئيس لجميع المسيحيين اليعاقبة في سورية. وقد بعث البابا له بدرع التثبيت سنة (1667 م). هنا ولدت بطريركية السريان الكاثوليك. وقد نمت الكنيسة الجديدة وأنفقت الأموال الطائلة على كنائسها وفتحت أبواب كلية القديس يوسف أمام أبناء الطائفة الجديدة (أنشئت الكلية سنة 1875 م).

وكانت ثمة محاولة ثانية في أواخر القرن الثامن عشر على يد المطران جروه لانتزاع البطريركية، لكن المحاولة أخفقت وهرب جروه إلى لبنان. وقد قام البطريرك (السرياني الكاثوليكي) أغناطيوس أفرام الرحماني (1898 - 1929 م) بنقل مركز البطريركية إلى بيروت.

ولنتحدث عن التبشير الكاثوليكي في الكنيسة الأرمنية، لان أتباعها، ولو أنهم ليسو عرباً، فهم مشاركة وجيران. فقد بدأ العمل التبشيري الكاثوليكي في القرن الثامن عشر وبحماية فرنسة والتدخل الفعلي للسفير الفرنسي في إستانبول. وقد أغري مطرانا ماردين وحلب على الانضواء تحت راية البابا، لكن رجال الدين من أتباعهما لم يقبلوا بتصرفهما.

وقد تم اختراق الكنيسة الأرمنية عن طريق إنشاء رهبنة أرمنية كاثوليكية (1717 م). وأخيراً أنشأ الكاثوليك المركز الرئيسي للتبشير في لبنان. وأصبح هناك بطريركية أرمنية كاثوليكية وقد انتقل كثير من الأرمن إلى الكتلركة، حيث انهم اعتبروا ملة رسمية سنة (1830 م).

كانت فكرة توحيد الكنائس المسيحية تحت قيادة البابا ورئاسته تبرز بين فترة وأخرى، على ما أشرنا. وقد كان هناك محاولات لعقد مجامع أشير إليها على أنها مسكونية ولم تكن كذلك. على كل في سنة (1630 م) أسس في القاهرة مركز كاثوليكي على يد راهب كبوشي. لكن ذلك لم يكن له أثر.

وفي سنة (1675 م) عاودت المؤسسات الكاثوليكية محاولتها. فأنشأ الفرنسيون مركزاً في مصر العليا كما أقام اليسوعيون مركزاً في القاهرة. في سنة (1741 م) اعتنق أناستاسيوس مطران القدس القبطي الكتلركة كما تكثلرك قبطي آخر وهرب إلى رومة. وهذان المثالان لم يؤثرا على الأقباط، إذ اعتبروهما مارقين وطنياً.

من الأمور العجيبة أن الحملة الفرنسية في مصر يسرت للمبشرين

الكاثوليك سبل العمل في القاهرة فانحاز بعض الأقباط إلى الكثلكة. وقد كان يوسف أكبر خصم للعمل الكاثوليكي. وقد تم قيام طائفة أقباط كاثوليك كما ظهر سريان كاثوليك وروم كاثوليك وكلدان (كاثوليك) من النساطرة. ويبدو أن هذه الفئة من النساطرة قبلت بالكثلكة على أساس أنها خيط أمل للحياة الجديدة، بعد ما أصاب الكنيسة النسطورية من تقهقر.

ولسنا بحاجة إلى التحدث عن البعثات الكاثوليكية للموارنة. فالموارنة كانوا منذ القرن الثاني عشر قد قبلوا بالسيادة البابوية. لكن الكنيسة المارونية لم تقبل الطقوس الكاثوليكية الرومانية (اللاتينية) بل ظلت محافظة على شخصيتها الأصلية.

■ دخل المبشرون البروتستانت (الإنجيليون) ميدان التبشير في العالم العربي في أوائل القرن التاسع عشر. (باستثناء محاولة كلفينية مبكرة تعود إلى سنة (1634 م) وكانت في فلسطين، لكنها لم تترك أثراً).

والمبشرون كانوا من بريطانية ومن الولايات المتحدة. وقد كانت بلاد الشام من أوائل المناطق التي وُجد هؤلاء اهتمامهم نحوها ويمكن القول بأن المبشرين الأميركيين جاءوا، من أول الأمر، بقصد التبشير. أما المبشرون الأنجليكان فقد اهتموا بالنواحي التعليمية والاجتماعية تاركين لهذه الأشياء أن تحمل الناس على قبول آرائهم ووجهة نظرهم.

ولسنا ننوي التحدث عن تاريخ الإرساليات والأعمال التي قامت والجماعات التي انتزعتها من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية بشكل خاص. فلا شك أن الأعمال الجيدة كثيرة ولكن الذي نريد أن نقوله هنا، وقد ذكرناه من قبل، هو أن مجيء المبشرين، خاصة عندما كان العمل يرتبط بالسياسيين والدبلوماسيين، كان يسيء إلى المسيحيين العرب من نواح مختلفة.

ونضع هنا ملاحظة مختصرة سنعود إليها في الفصل التالي لتوضيحها وهي أن عدداً من المفكرين المسلمين لما دعا المسيحيون العرب إلى القومية العربية، اعتبروا هذا العمل موجهاً ضد المسلمين والإسلام.

ومع أن هذا الأمر عمل على توضيحه كتاب مسلمون منصفون، فإن عدداً من الكتاب المسلمين المحدثين عادوا إلى الضرب على هذا الوتر.

والسؤال هو لماذا؟ وهل في هذا العمل إنصاف للقومية العربية ودعاتها؟

(3) ترابط وتقاطع

أشرنا قبلا إلى الترابط الذي ظهر بين الأعمال التبشيرية، خاصة الكاثوليكية، والنشاط الدبلوماسي والسياسي الذي كان يؤيدها. ولعلّ من المفيد الإشارة هنا إلى الامتيازات الأجنبية التي بدأت لما منح السلطان سليمان القانوني الرعايا الفرنسيين حقوقاً وامتيازات تجارية خاصة، بناء على اتفاق عقده مع فرنسوا الأول ملك فرنسا سنة (1536 م). هذه الامتيازات التجارية أصلاً أخذت دائرتها تتسع وامتيازاتها تتعمق وتقوى حيث شملت دولاً كثيرة من أوروبا، كما أنها أصبحت سبيلاً لحماية أفراد من رعايا الدولة العثمانية عن طريق منحهم جنسية البلاد الأجنبية. ولسنا نود هنا أن نفصل هذه القضية لأن الذي يهمنا هو استغلال الدول الأوروبية هذه الامتيازات لبسط حمايتها على طوائف معينة لأنها كانت تحاول الانتقال إلى مذهب جديد هو مذهب تلك الدولة العلمانية في أوروبا. وكانت فرنسا السباقة وتلتها النمسا. أما بريطانيا فكانت تتصرف بكثير من اللباقة في هذه الأمور. ولكن عملها كان ذا أثر كبير.

ونرى أن نضع أمام القارئ ملاحظات تساعد في تتبع ما سيأتي فيما بعد.

- 1 - كانت ثمة محاولة من قبل أتباع كلفن، المصلح البروتستانتي السويسري، في اتجاه الطائفة الأرثوذكسية في البطريركية الأورشليمية (المقدسية). ويبدو أن أحد الأساقفة واسمه كيرس أو كاريس قيل بعض هذه التعاليم سنة (1634 م) فوقف في وجهه

جمهور الأساقفة الأرثوذكسين. وقد كان البطريرك دوسيتاوس الثاني الخصم اللدود لهذه التصرفات (تولى البطريركية في سنة 1669 - 1707 م).

ففي سنة (1672 م) عقد الجمع الأورشليمي (عقد في الواقع في بيت لحم) وفضلاً عن تأييد القرار السابق بتحريم تعاليم كريلس فإن المجتمعين وضعوا كتاباً (مجموع قرارات) في 17 فصلاً بسطت فيها التعاليم الأرثوذكسية الصحيحة.

2 - في سنة (1583 م) أرسل البابا غريغوريوس الثالث مندوباً اسمه ليوناردو هاييل (وهو مالطي الأصل) إلى سورية ودعّمه براهبين يسوعيين. وكان القصد من هذه الرحلة تجديد الدعوة إلى الاتحاد أي قبول السلطة البابوية سلطة تامة على المسيحيين. كما أن الجماعة جربت نشر التقويم الجديد الغريغوري.

زار ليوناردو بيت المقدس ودمشق وطرابلس وحلب. وقد قدم المندوب تقريراً وافياً إلى البابا عن أعماله والوعود التي حصل عليها. ويظهر من التقرير أن الجماعة الوحيدة التي كتبت (بإيعاز المندوب) إلى البابا مظهرة التعظيم والخضوع له هي جماعة من الموارنة من منطقة مجاورة لطرابلس على ما يبدو من التقرير.

وقد قال الأب جوزيف شماس عن هذه الزيارة: «إن مجيء المندوب المذكور (ليوناردو هاييل) إلى هذه البلاد كان فاتحة خير وبدء العصر الحديث، عصر النهضة والإصلاح والتجديد. فإن مهمته وإن لم يتوفق فيها حالاً (كما كان يتمنى) كانت بذاراً صالحاً أتى مع الزمان بأشهى الثمار (الخط من وضعي). أي ثماراً شهية جاءت مع هذه الزيارة؟»

3 - كان رجال الحكم في الدولة العثمانية من الصدر الأعظم حتى

متصرف القدس أو حتى المتسلم المحلي واقعين في حيص بيص حول الأماكن المقدسة في بيت المقدس وبيت لحم. فقد كانت هذه للطائفة والبطريركية الأرثوذكسية حتى زمن الحروب الصليبية. فلما احتل الصليبيون القدس قضوا على البطريركية الأرثوذكسية في بيت المقدس وأقاموا بطريركية لاتينية واستولوا على الأماكن المقدسة وأماكن الزيارات وما يترتب على ذلك من موارد مالية. وبعد فتح صلاح الدين بيت المقدس (1187 م) ثم في أيام المماليك، أعيدت البطريركية الأرثوذكسية إلى القدس (بعد أن كان البطريرك يقيم في القسطنطينية) وعادت أكثر الأماكن المقدسة إلى أصحابها الأصليين. لكن في القرن السادس عشر وفي القرن السابع عشر تقوى اللاتين، وأكثرهم من الأجانب، بسبب التأيد الذي كانوا يحصلون عليه من فرنسا وأخذوا يستولون على الأماكن المقدسة إما استبداداً أو تزويراً حتى للعهدات القديمة الثابتة. وكان أهل الحكم في بيت المقدس والآستانة يؤيدونهم إما بسبب الرشاوى أو بسبب النفوذ القوي في العاصمة.

4 - في أواخر القرن السابع عشر التجأ مطران حلب اليوناني أثناسيوس إلى اليسوعيين، وكان هو مؤسس طائفة الروم الكاثوليك في تلك المدينة. لكن أثناسيوس «كان متردداً حائراً ما بين الأرثوذكسية والكثلكة وظل طول عمره حائراً يعرج بين الجانبين».

5 - بين سنتي (1687 و1724 م) نجحت المحاولات المختلفة، وبكثير من العمل اليسوعي والفرنسيسكاني، في جذب فئات من الطائفة الأرثوذكسية إلى الاتحاد مع البابوية. هذه هي الأصول التاريخية لطائفة الروم الكاثوليك التي كان لها بطريركية واحدة أنطاكية، وكان لها نيابات كاثوليكية في كل من بيت المقدس والقاهرة. وقد كان أفيميوس الصيفي، متروبوليت صور وصيدا ومؤسس الرهبانية

المخلصية (نسبة لدير المخلص قرب صيدا) هو زعيم الكاثوليك في تلك الفترة (1643 - 1723 م) وقد بدأ عمله الكنسي شماساً في سنة (1666 م). وقد أرسل صورة اعترافه بالإيمان الكاثوليكي إلى رومة سنة (1683 م).

6 - في سنة (1724 م) تم انفصال الروم الكاثوليك عن الأرثوذكسية رسمياً.

غريب هذا الموقف الذي اتخذته البابوية والمسيحية الأوروبية من المسيحية الشرقية. موقف بابوي يحتم على جميع المسيحيين القبول بمكانته وبسلطته. صحيح أن هذا الموقف تطور قليلاً مع الزمن على ما سنرى، لكنه لم يكن يقبل أقل من الخضوع التام أصلاً. وإذا كانت هذه الجماعات المسيحية الأرثوذكسية التي تقوم في أنحاء واسعة من المشرق، ترفض قبول الرأس المسيحي الأول، أي البابا، بالإقناع فلتحاول أوروبة القوة والإكراه.

والحملات الصليبية، فضلاً عن ناحيتها العسكرية والاقتصادية، كانت محاولة للسيطرة على الأرثوذكسية عن طريقين الأول: إلغاء البطريكيتين الأرثوذكسيتين في أنطاكية وبيت المقدس (1098 و 1099 م). أما الثاني فضرب القسطنطينية رأس الأرثوذكسية الأقوى سنة (1204 م).

ولما رفض الأرثوذكس قرارات مجمع فلورنسة (1439 م) أصبحوا في نظر البابوية، لا هراطقة فحسب، بل عصاة يجب أن يؤدبوا. ولأن البلاد المشرقية قد أصبحت منذ مطلع القرن السادس عشر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وكانت هذه قوة مخيفة (لأوروبة) ومزعجة للملوك الغربيين بسبب الفتوح المستمرة، فإن حملة لإخضاع المسيحيين المشاركة الأرثوذكس لم تعد ممكنة. لذلك عملت القوى البابوية على تفتيت هذه الطائفة من الداخل.

وقد يشر القائمون على شؤون الطائفة الأرثوذكسية في بطريركية أنطاكية والقدس، وهم من العنصر اليوناني، للفعاليات الكاثوليكية أن يكون لها بعض النجاح (الذي ازداد مع الزمن كما مر بنا). أهمل هؤلاء المتصرفون شؤون الطوائف الأرثوذكسية - تعليمياً واجتماعياً وقسماً وعناية روحية. فلما جاءت تلك البعثات وفتحت المدارس دخلها أبناء الأرثوذكس ومع الوقت أدخلوا في النظام الجديد.

ونحسب أن هناك أمراً لعل الباحثين لم يتنبهوا له من قبل. ذلك أن قيام حركة الإصلاح الديني في أوروبا وخروج جماعات كبيرة ومناطق واسعة عن السلطة البابوية، حمل الفعاليات الكاثوليكية على مضاعفة الجهود للسيطرة على الأرثوذكسين. ومن هنا جاء التطور في الدعوة، فبدلاً من الطلب من الأرثوذكس أن يصبحوا كاثوليكاً في كل شيء - في العقيدة والطقوس - صار العاملون في الحقول التبشيرية يكتفون بالموافقة على العقيدة على أن تحتفظ الجماعة بطقوسها ولغتها الكنسية؛ أي أن البابوية أصبحت تقبل بالانضمام⁽⁸⁾ بدل الانتقال التام. أما هذا فهو الذي حدث نهائياً بعد سنة (1724 م).

صحيح أن الدعاة الكاثوليك نشروا المسيحية الغربية في العالم الجديد؛ وقد يقال إن هذا كان يكفي البابوية بدل أن تعنى بالمسيحيين المشاركة. لكن المهم هو أن البابوية كانت تقول دوماً إن هؤلاء المسيحيين - في الشرق - هم خوارج بالنسبة إلى البابوية. ولذلك فاستعادتهم واجب عليها. ولعل بعض الدعاة كانوا يرون أن استعادة هؤلاء الخوارج قد يؤدي إلى تقوية الوجود البابوي الكاثوليكي في العالم الجديد.

ولعلّ هناك من يعترض على هذا بالقول بأن هؤلاء المسيحيين الجدد لم يكونوا يعرفون شيئاً عن المسيحيين الشرقيين، لذلك لم يدركوا أهمية هذا الموضوع. لكن الذي نعرفه من بعض التقارير التي وضعها اليسوعيون

وغيرهم هو أن هذه المعرفة نقلها الدعاة والمبشرون أنفسهم، إذ أنهم أرادوا أن يظهروا عناية البابا بالمسيحيين جميعهم - المؤمنين والهرطقة والخوارج.

وإذن فلتُفَتَّت الجماعات الأرثوذكسية في الداخل. ونحن نرى أن المجمع (المسكوني) العشرين (وهو المعروف أيضاً باسم مجمع الفاتيكان الأول) الذي عقد في عاصمته البابوية (1869 - 1870 م) اتخذ قراراً مهماً بالنسبة إلى العمل التبشيري الكاثوليكي إذ أنه أكد دون قيد أو شرط عصمة البابا؛ ونرى أن هذا القرار اتخذ يومها لتقوية يد البابا وأعوانه في سبيل دعوة الخوارج والهرطقة إلى العودة إلى الصرح الذي لا يمكن للجالس فيه أن يرتكب خطأ عقائدياً (على الأقل) ومعنى هذا إن كل ما يمكن أن يعتقد به غير ذلك فهو رجس من عمل الشيطان.

ومن المصادفات الغريبة أن يتخذ هذا القرار في أعقاب حرب القرم (1853 - 1856 م) التي وقعت بين روسيا في جهة وفرنسة وبريطانية وتركية وسردينيا في الجهة الأخرى. السبب الأصلي لهذه الحرب توسع روسيا في البلقان وتمسكها في حماية بعض الأماكن المقدسة في فلسطين، دفاعاً عن الأرثوذكس. ومن هنا فقد كان من الطبيعي وقف التقدم الروسي الأرثوذكسي قبل أن يستفحل نفوذه في المناطق التي تكون فيها طوائف أرثوذكسية كبيرة، وعندها يصعب العمل التبشيري. وجاء القرار بالعصمة البابوية ليقوي نفوذ المبشرين.

ولنذكر أن لجنة نشر الإيمان تدرس دراسة دقيقة في سنة (1885 م) مشروعاً أساسه البحث عن أفضل السبل التي يمكن أن تؤدي إلى عودة الروم المنشقين إلى الكنيسة الكاثوليكية.

ويجدر بنا أن نتساءل هنا عن العلاقة الواقعية بين المسيحية في الغرب والمسيحية المشرقية! لنبدأ أصلاً في العقيدة. أليس هناك خلاف؟ أوليس هذا الخلاف كبيراً؟ ألا ترى، أيها القارئ، أن هناك فضلاً عن ذلك خلافاً في

الطقوس الكنسية وأن هذا الفرق ليس أمراً ظاهرياً. إنه نابع من هذه الخلفيات الحضارية التي عرفت هذه المنطقة خلال ستة آلاف سنة، والتي أسهم فيها كل مجتمع - بقطع النظر عن دينه - بجزء - كبير أو صغير - حيث أنها مزيج من العمل المشترك المستمر؟

المسيحية الشرقية هي جزء من أحدث حضارة قامت في المنطقة - الحضارة العربية الإسلامية، التي كان الإسلام يحميها، والعربية وسيلة التعبير عنها، وكان الجميع مسلمين ومسيحيين وصابئة وغير ذلك يضعون لبناتها. ومن هنا فإن كل مسيحي - بدءاً مني وانتهاء بأي رجل دين - هو جزء من هذا المجتمع له ما له وعليه ما عليه. وقد آن للجميع أن يخففوا - إن لم يستطيعوا القضاء عليها - من أي نظرة أخرى.

■ وها أنا أسمح لنفسي أن أنقل هنا صفحتين أو أكثر من كتابي الجديد: أيامي - سيرة ذاتية الذي صدر سنة (1992 م) - الجزء الأول ص 292 - (294) آملاً أن يكون في هذا الذي أضعه أمام القارئ تفسيراً للموقف المسيحي العام (فرداً وجماعة).

هذا الشخص الذي وجد نفسه في لندن في خريف سنة (1935 م) والذي رسم لنفسه أن يكتشف هذه المدينة وما قد يتبعها من مدن وبلاد، ماذا كانت معطياته وأدواته المعنوية والمادية؟

لأعد إلى ذلك الوقت، محاولاً، بقدر الإمكان، أن أرسم لنفسي صورة مستمدة، بطبيعة الحال، من مقومات شخصيتي التي كانت قد تمت ونمت إلى ذلك الوقت؛ على أنني أنوي أن أضيف إليها بضعة أمور كانت قائمة في نفسي لم تبرزها أجواء عكا، إلا أن أجواء لندن فرضت خروجها إلى الضوء. لم تكن هذه الأمور جديدة. هي موجودة، لكن لندن ضغطت عليها فأخرجتها من مكنها، حيث أصبح لها دور في تحديد بعض طرق الاكتشاف هذه.

أنا مسيحي أرثوذكسي عربي؛ وليس لورود هذه الكلمات على هذا النحو أي دلالة خاصة: إذ أن المهم هو المحتوى في مجمله، وخير تصور للإطار الصالح لفهم محتوى هذه الكلمات من حيث «كليته» هو اعتبار الألفاظ الثلاثة خطوطاً تكون أضلاعاً لمثلث، وأكون أنا المساحة التي يحيط بها المثلث، دون الالتفات إلى أي حجم للرقعة أو طول للأضلاع.

ومن هنا فقد لا أتقبل كل مقولة للكنيسة المسيحية، وقد لا أرفض أموراً بعينها رفضاً تاماً، لكنني أظل مسيحياً في إطار الإيمان العام. ولست أدري لو أنني تقدمت - يومها، أي: سنة (1935 م) أو اليوم أي سنة (1989 م) إلى السلطات الكنسية لأجيب إجابة دقيقة عن بعض الأسئلة التي توجه إلي، فيما إذا كنت أنجو من شيء اسمه الحرمان (ولو أن كنيستنا لا تمارسه إلى الحد الواجب عليها). ومع ذلك فأنا مطمئن إلى أن إيماني ينفذ إلى أبعد من أية سلطة كنسية، وأنه إذا بلغ مصدر الإيمان الكلي يظل مقبولاً هناك، لأن هذا المصدر بالذات أوسع أفقاً وأبعد نظرة وأنفذ بصيرة من كل ما حدده به البشر على اختلاف نحلهم وملهم وأيديولوجياتهم ومذاهبهم.

وأنا أرثوذكسي، بمعنى أنني أتبع هذه الكنيسة الشرقية الأصيلة المعتبرة أم الكنائس بسبب أنني ولدت فيها. هذا لا يمنعني من التعبد في أي من الكنائس التي أدخلها؛ وقد تعبدت - بمعنى أنني اتصلت بمصدر الإيمان مباشرة - في أماكن غير الكنائس. فأرثوذكسي، من حيث أنها ضلع من هذا المثلث، تمثل الناحية الاجتماعية من تصرفي في الإطار الكنسي أو الديني.

وأنا المسيحي الأرثوذكسي ماذا كان موقفني من المسيحيين من أتباع الكنائس الأخرى؟ في المجتمعات التي عشتها في فلسطين كان هناك من الكنائس التي اتصلت بها، مجاورة ومعاشة ومصادقة، كنيسة الروم الكاثوليك أو على الأصح جماعة من أبناء هذه الطائفة، وكان هناك جماعة

من أتباع الكنيسة الأسقفية (البروتستانتية) ومن الكنيسة اللاتينية. ولم أكن أشعر أنا بفرق أو خلاف بيني وبينهم، لأنني أنا لم أهتم بنواحي الخلاف بين كنيسة كنيسة وبين الكنائس الأخرى. أما ماذا كان شعورهم نحوي؟ أو نحو كنيسة كنيسة، فليس لي أن أعرف أو أعلم. لكنني أستطيع أن أروي قصة حدثت لي مع القس أسعد منصور، راعي كنيسة الناصرة الأسقفية. جدي لأمي اختلف في وقت من الأوقات مع المطران الأرثوذكسي (أو لعله اختلف مع وكيل المطران) في الناصرة. ولست أدري سبب الخلاف أو نوعه؛ فما كان منه إلا أن (التحق) بالكنيسة الأسقفية لإغاظة خصمه الديني، وأخذ يتردد على الكنيسة للصلاة. في الصيف الذي تخرجت فيه من دار المعلمين (1924 م) وكنت أقضيه في الناصرة، ذهب جدي لزيارة القس أسعد منصور، واصطحبني. وأنا لم يكن لدي ما يمنعني من مثل هذه الزيارة. في أثناء الحديث قال القس أسعد، موجهاً كلامه إلى جدي، لكن كان يريدني أن أسمع كل كلمة: «الآن نقول ضمن مستقبله في الحياة. بقي عليه أن يختار الطريق الروحي الصحيح!» ولم تفتني، بالطبع، ملاحظة القس. فأجبت: «لكنني يا حضرة القس طريقي الروحي معروف خلال كنيسة الأرثوذكسية». وابتسم القس ولم يعلق. ولعله خطر له أن الوقت سيحين. وقد حان الوقت إذ عاد جدي إلى كنيسة الأرثوذكسية؛ فتزوج للمرة الثانية في حضن الكنيسة الأصلية، ولما توفي بعد ذلك بنحو عشرين سنة جُثِرَ ودفن أرثوذكسياً.

وإذن فالضلعان اللذان ذكرت كانا يزوداني بالإيمان المسيحي ضمن أبعاد أرثوذكسية، على شيء كثير من التوسع في هذه الأبعاد تحراً من القيود. أما الضلع الثالث، أي أنني عربي، فقد كان أهم من مجرد ضلع. ولعلي أحسن تعبيراً إذا أنا اعتبرته قاعدة المثلث. عندئذ أستطيع أن اعتمد عليه في توضيح أمور كثيرة. ولترك جانباً قضية القومية العربية ومفاعلاتها، والوحدة العربية ومتناقضاتها التي كنا ندور في جوها في العشرينات

والثلاثينات؛ ولنعد إلى ناحية الشعور العفوي المنبثق من داخل نفوسنا والمتمثل، بشكل خاص، بلغتنا. هذا هو الشعور العربي الذي كانت جذوره، فيما أشعر أنا، مرتبطة بالأرض التي أحيا فوقها، والتي كانت حباله تشدني إلى أولئك الذين أعيش بينهم؛ ولم يساورني قط شك في هذا الانتماء، بل الذي أستطيع أن اسميه ولاء دون قيد أو شرط.

فأنا العربي المسيحي الأرثوذكسي عربي في ثقافتني - البسيط منها والمعقد، الحديث منها والقديم - عربي في نظرتي إلى الأمور أي أنني أراها من منظار عربي أدواته وآلته هي اللغة العربية. ومن هنا كنت أشعر ببعض الفرق بيني أنا المسيحي العربي وبين المسيحي الأوروبي. هذا بقطع النظر عن أي نقاش حول شؤون الدين أو حتى التحدث عن القضايا الدينية حديثاً عادياً. كان الفاصل بيني وبينه أولاً وقبل كل شيء اللغة. فهو يتكلم الإنكليزية أو الألمانية أو الفرنسية أو غيرها وإذاً فهو مختلف عني. في كنيسة القديس بولس الأسقفية (في القدس) وفي الكنيسة المماثلة لها في عكا كانت الرسائل تقرأ بالعربية وكان الإنجيل يتلى بالعربية، وكانت الترانيم عربية كما كانت العظة، بالعربية، فهي، بقطع النظر عن أي فرق في التفسير اللاهوتي بيني وبين أتباع تلك الكنيسة، كانت اللغة العربية تجمع وتربط وتوثق الصلات. وفي كنيسة القديس جورج الأسقفية (في القدس) كانت هذه الأمور جميعها - القراءات والعظة والترنيم - تتم باللغة الإنكليزية. كانت المعاني واضحة وكانت العظة، في أحيان كثيرة، خيراً من بعض العظات بالعربية، لكن يظل هناك فاصل.

هذا النوع من الشعور كان واحداً من العوامل التي أثرت في السبل التي سلكتها في اكتشافي للمجتمع الجديد الذي وجدتني فيه في خريف سنة (1935 م) وما تلا ذلك. أنا لم أخلق هذا الجو؛ ولا أوجده الآخرون. لكنه وُجد، وبشيء من الطبعيّة، وشعرت بوجوده لما قيل لنا إننا نعيش في جو مسيحي. صحيح لكن الذين حولي لم يكونوا مسيحيين عرباً. ولم يقم هذا

حاجزاً بيني وبين الناس الذين أردت أن أتعلم منهم مكتشفاً نواحي الحياة عندهم؛ لكن كنت، مع ذلك، أشعر بوجود هذا الفارق. والواقع إن هذا الفارق قوى شعوري الأصلي الذي كنت أقول به دوماً، والذي ما فتئت أقول به منذ ذلك اليوم وبشكل أقوى، وهو أن المسيحية العربية - مسيحية العرب - بصرف النظر عن المذهب أو المكان والزمان، هي مسيحية لها صورتها وطعمها ونكهتها ومقوماتها الخاصة، وهي، بشكل عام، تختلف عن المسيحية الغربية، حتى ولو كانت الجماعة هنا (أي في دنيا العرب) من المذهب نفسه المنتشر في الغرب.

وما أكثر ما تذكرت، وأنا أدير هذا الأمر - أي قضية المسيحية العربية - على وجوهه قصة رواها لي المرحوم محمود العابدي، صديق العمر من أيام دار المعلمين (1922 - 1924 م).

في العشرينيات قامت في فلسطين حركة أرثوذكسية عربية كانت تؤيد اختراق جدر أخوة القبر المقدس بوجوب تعيين مطران عربي لمدينة الناصرة، بدل كليوبا الذي توفي في ذلك الوقت. وتقوت الحركة بسبب التشجيع العام الذي نالته. وأسست لجان وجمعيات أرثوذكسية (عربية) في أنحاء فلسطين، لبث الفكرة وتوضيحها. وأخيراً انتخبت لجنة عليا في القدس. وهنا تبدأ قصة محمود العابدي.

بما أن شرقي الأردن (كما كان يعرف يومها) تابع للبطريركية الأرشليمية (المقدسية) فقد رُئي أنه من الضروري أن يزور وفد من اللجنة العليا لإطلاع الجماعة الأرثوذكسية في الأردن على الوضع والحركة والمخطط. واختير الوفد واتجه نحو الكرك، فقد كانت يومها من مراكز القوى الكبرى.

كان الوقت أيام الربيع وكان أهل الكرك مربعين، أي أنهم كانوا يتركون المدينة وينصبون خيمهم في البر الواسع. فلما وصل الوفد الفلسطيني إلى

المربع أرشد إلى الخيمة الكبيرة ذات الأعمدة الثلاثة. فاستقبل بما يليق بضيوف. ومن عادة البدو أن لا يسألوا الضيف عن حاجته أو سبب مجيئه، ولا يجوز للضيف أن يذكر غايته قبل أن يتناول أول وقعة طعام على الأقل. ونحرت الذبائح، وأعد الطعام، وتناول الضيوف منه شبعهم، ودار الحديث؛ فتولى كبير الوفد الفلسطيني شرح القضية الأرثوذكسية الوطنية من أولها حتى يومها، وطلب من الجماعة العون والمساهمة بكل وسيلة. ولم يقاطع الرجل وهو يتكلم.

بعد ساعة من الحديث قال المضيف: «أهلاً بكم وسهلاً. لكن أنتم نزلتم عند الجماعة الأخرى. (أي المسلمة). فأولاد عمنا النصارى نصبوا خيامهم في الجهة الثانية. لكن أنتم الليلة ضيوفنا، والصباح رباح».

أضاف محمود العابدي أنه كان مع الوفد الفلسطيني شاب حديث العهد بالعمل السياسي، فالتفت إلى جاره، وهو ابن المضيف، وسأله: «ما الفرق بينكم وبينهم؟».

فكان جواب الشاب: «والله ما ندري. لكن أولاد عمنا يصلون في الكنيسة، ونحن نصلي في الجامع!».

الخاتمة

في الصفحات التي دوّنا أشرعنا أبوابنا وفتحنا نوافذنا للتاريخ ننتزع منه من الحقائق والأحداث الأساسي والرئيسي. فنحن لو أننا جارينا ما حمل لنا عبر الأبواب والنوافذ لاضطررنا إلى السير قدما في الكتابة حيث أننا نحتاج إلى الوقت الطويل والورق الكثير. لكننا اعتزمنا أصلاً أن نجتزئ بالقليل كني يقرأ، ونكتفي باليسير كي لا نلعن. واحسب أنني وضعت أمام القراء صورة واضحة المعالم بينة الخطوط. أساسها أن المسيحية، وهي بذرة واحدة أصلاً، انتشرت في رقعة واسعة، كانت لأجزائها الكثيرة خلفيات حضارية - إثنية ثقافية لغوية تنظيمية - متباينة. فكان أن نمت شجيرات صغيرة اختلفت الواحدة عن الأخرى اختلافاً قد يكون يسيراً، وقد يصل إلى أكثر من ذلك. وهذه الشجيرات أصبحت، مع الزمن، أشجاراً عاتية وظلت لها صفاتها المميزة واستمرت واحدها تختلف عن الأخرى. ولم يكن هناك انشقاق شجرة عن شجرة ولا تفرع خروجي في أي من الحالات.

لكن الطبيعة البشرية التي لا تسمح دوماً لوجهات النظر المتباينة أن تسير في طريقها الطبيعي، والتي ترى فئات معينة فيها أن من واجبها رد الجماعة إلى نفسها، باعتبارها هي التي تسير في الطريق الصحيح وأن غيرها مخطئ. هذه الفئات تبدأ باتهام الجماعات الأخرى بالخروج عن الطريق السوي والهرطقة في العقيدة وإفساد الناس. وهذا الضلال الذي تتهم به هو الذي يجب أن يقضى عليه.

ولجأت الفئات المسيحية والمنظمات الأسقفية والبطريركية إلى عقد مجامع مسكونية (أو إقليمية) لرأب الصدع. ولكن الخلاف كان يظل خلافاً، بل قد يزداد الفتق اتساعاً، على نحو ما رأينا في الخلاف حول طبيعة المسيح أو طبيعته.

وقد تتدخل السلطات لنصرة رأي دون الآخر أو جماعة دون الأخرى. فتسوء العقبي إذ قد يكون نتيجة مثل هذا الموقف قيام اضطهاد رسمي ضد الفريق الآخر. وكم حدث هذا.

والذي حدث دوماً هو الزيادة في تعدد الشجرات واختلاف أنواعها. ولو ان الأمر ترك للفئات تقبل ما تقتنع به وتجادل مع الفئات الأخرى، لعل الأمر كان يختلف. لكن هذا الإصرار على ان الغير مخطئ والغير هرطوقي والغير خارجي هو الذي أدى إلى التصادم بين الجماعات المسيحية المختلفة في المشرق.

ولم يقتصر هذا الموقف المسمى بالصحيح على المشاركة أو الكنائس الشرقية فيما بينها، بل انتقل إلى الغرب الذي أصبح رئيسه المسيحي الأعلى يعتبر نفسه مسؤولاً عن نفس كل مسيحي في العالم وروحه، وإذن فواجبه الديني - عقائدياً وسلوكياً وطقسياً - وواجبه الأدبي الأبوي (المدعى) كل ذلك يحتم عليه ان يبذل كل ما في وسعه لإنقاذ النفوس الضالة والأرواح الخاطئة وإعادتها إلى حظيرة الإيمان رحمة بها وشفقة عليها. وبلغ الحماس به، وقد تذرع بالعصمة، أن يوجد الدول والحملات والمنظمات الملكية كي تسانده في مساعيه الحميدة.

وقد أثمرت جهوده وجهود الأعوان، على اختلاف توجهاتهم وتوجيهاتهم، إلى نقل فئات من الطوائف الأرثوذكسية فكانت هناك طوائف: الروم الكاثوليك والأرمن الكاثوليك والأقباط الكاثوليك والسريان الكاثوليك والكلدان. وأنا شخصياً أرى أن كل امرئ حر في اختيار المذهب

الذي يريد، لكن أن يقال عن هذه الجماعات إنها كانت منشقة عن البابوية وإنها كانت تسير في طرق الضلال ومن ثم فإنها عادت إلى الأصل واهتدت (ومعنى هذا أن الباقين ما يزالون في ضلالهم يعمهون) فهذا أمر خاطئ أصلاً. وهو أمر خاطئ في أي دين وفي أي بلد.

إن نقولاً زيادة المسيحي الأرثوذكسي العربي يسير على هدى قديم مثله في ذلك مثل جريس وطنوس وشنودة. فكل من هؤلاء أصيل في جماعته وطائفته. ولم تنشق طائفة عن طائفة ولا خرجت جماعة عن جماعة. وإذن فكلمات الانشقاق والهرطقة والخروج يجب أن تحذف من القاموس المسيحي. وإن يصرف الجهد لا في توجيه اللوم إلى الآخرين، بل إلى توضيح الأمر داخلياً كي تصفى النفوس.

وهذا هو أمر مهم في رأيي. ويجب أن يبدأ أولاً عند الجماعات الأوسع انتشاراً في العالم المسيحي. أن الأوان لأن تنصرف (لجنة نشر الإيمان) إلى توضيح العقيدة الكاثوليكية كما هي دون أن يكون عملها الرئيسي السطو على الطوائف الأخرى الموجودة في المشرق. ومثل ذلك يمكن أن يقال عن المبشرين الإنجيليين أينما كانوا - أقصد في بلادنا. أرى أنه يجب أن يتوقفوا عن محاولة (نتش) فتى هنا و(لم) فتاة هناك. والجميع يدعون أنهم يفعلون ذلك حباً بليلى، وليلى لا تقرر لهم بذاكا.

والمسيحي الذي يعيش في العالم العربي اليوم - ما هو موقفه الشخصي ومن ثم الرسمي؟

مر بالمسيحيين أدوار تاريخية كانوا يعاملون أهل ذمة أي إنهم لم يكونوا يعتبرون مواطنين مثل البقية. وهذا الوضع مر بأدوار مختلفة فمن الجوالي (أيام المماليك) إلى الملل (أيام العثمانيين) إلى الطائفة. (وليسمح لي هنا بالقول إن الطائفية في العالم العربي الحديث لا تقتصر على المسيحيين فهناك طائفية في نواح أخرى كثيرة).

هذه الطائفية هي نتيجة تجارب طويلة انتهت إلى هذا النوع من التنظيم لحماية النفس من جهة، وللمحافظة على مكاسب عند طوائف هي أكثرية. فالمسيحي يرى أنه يعيش في عالم تبدل وتطور ومن حقه أن يكون مواطناً في دولة إسلامية، ولا أن يكون مواطناً من درجة ثانية (كما لو كان عربياً في إسرائيل).

ونحن لا ننكر أن التجارب السياسية المتنوعة التي تعرض لها المسيحيون في شرقنا العربي من أيام الحروب الصليبية إلى اليوم عبر ما تقوم به الدول والمنظمات الغربية قد حملت بعضهم على أن يخطئوا سواء السبيل. ولكن مثل هذا الخطأ لم يقتصر على المسيحيين وحدهم. إن مراجعة دقيقة لتاريخ الوطن العربي منذ القرن السابع عشر تظهر صدق ما ذهبت إليه.

لذلك ليس من العدل في شيء أن يلام الجميع بسبب أغلاط فردية أو أخطاء لفئات صغيرة، وقد لا يكون هؤلاء الأفراد أو تلك الفئات وحدها مسؤولة عنها، بل لعلّ الجو كله كان يدفع الناس إلى مثل هذا التصرف.

كان المسيحيون العرب بين طليعة من دعا إلى القومية العربية. ولم تقتصر الدعوة على المسيحيين العرب، بل دعا إليها مفكرون مسلمون، ولست أحسب أن ساطع الحصري مثلاً كان مسيحياً. والدعوة، في مجملها، وعندما تدرس دراسة دقيقة في الكتب والمقالات الأولى التي تحدثت عنها ودعوت إليها وفسرتها وشرحها بقدر الإمكان، كانت دعوة مخلصية صحيحة وكانت صرخة إيمان بحق العرب. فلماذا كلما «دق الكوز بالجرة» (كما يقول المثل العامي الشامي) نُظِرَ إلى دعاة القومية العربية من المسيحيين نظرة مواربة، واتهموا بأنهم قصدوا هدم الإسلام والقضاء على الدولة الإسلامية (العثمانية)؛ وهذه قصة تعود إلى الظهور بين حين وآخر. والغريب أنها مرتبطة إلى درجة كبيرة بالأصولية، أو ما يسمى كذلك.

أنا وجريس وطنوس وشنودة ورثة حضارة واحدة عربية إسلامية. عملنا

في وقت من الأوقات في بناء صرحها. ونحن أبناء أرض نمت هذه الحضارة فيها. ونحن عرب بقدر ما هو كل مقيم في أرض العرب عربي. وأنا لا أريد أن أذكر دور المفكرين العرب المحدثين في الكشف عن التراث الإسلامي العربي الضخم، فهذا أمر يجب أن يُكف عنه لأننا إنما نحن نقوم بذلك كشفاً عن تراثنا - نعم هذه حضارتنا التي بدأ العمل فيها قبل نحو ستة آلاف سنة على أقل تعديل.

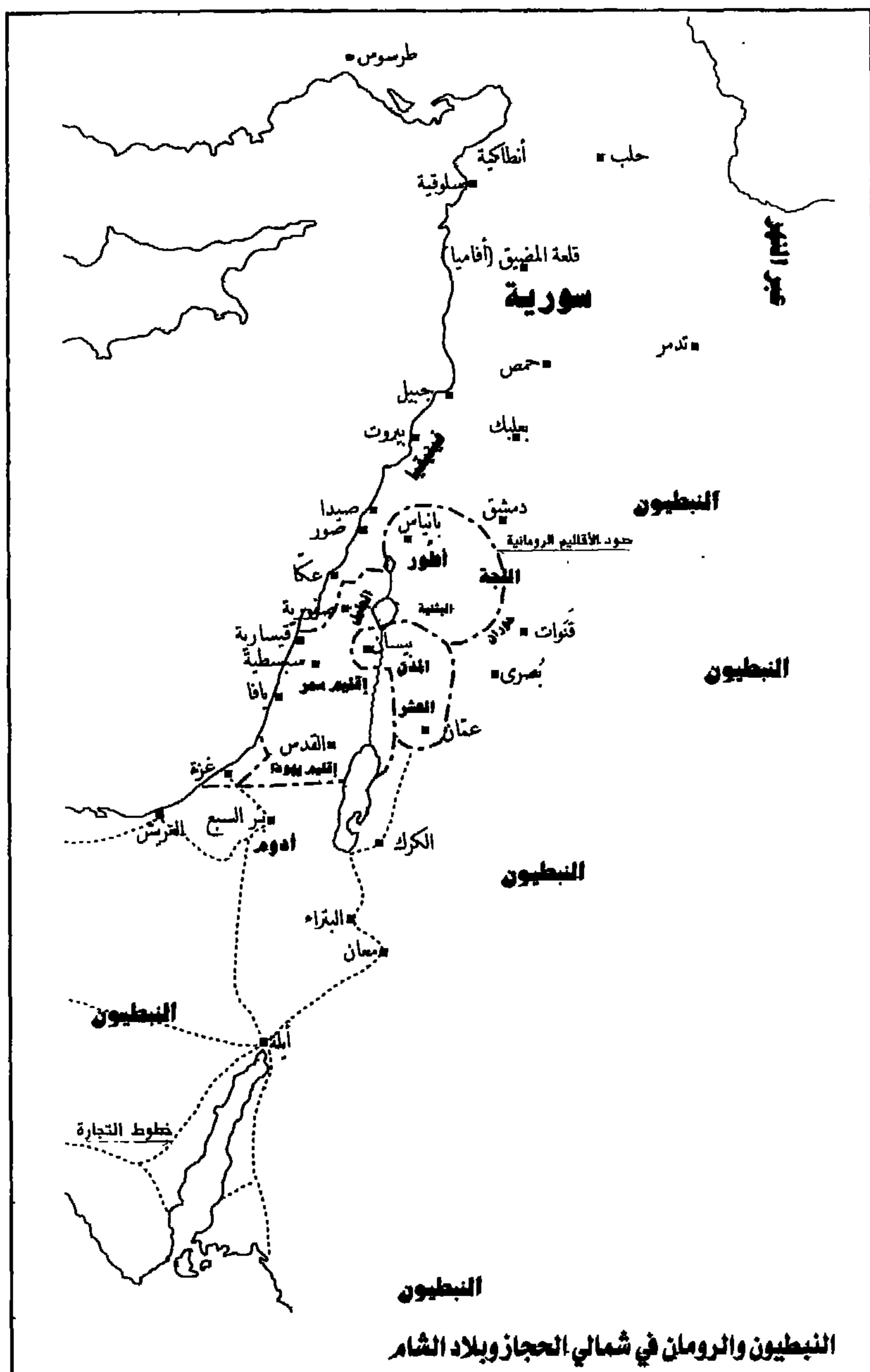
في سنة (1931 م) عقد في القدس مؤتمر تبشيري مسيحي لكنه كان إفرنجياً. وقد نال أحد الأعضاء من النبي محمد. فكتبت يومها (وكنت أعلم في عكا) بضعة سطور في جريدة اليرموك (الحيفاوية) افتتحتها (وأنا أذكر ذلك تماماً) بالقول: «ليس المسلمون بأحق بالعناية بمحمد منا، فقد كان محمد عربياً قبل أن يكون نبياً». وأنا أقول هذا الكلام نفسه بعد سبعة عقود من السنين ونيف. أقول هذا وأنا، مثل كثيرين غربي من المسيحيين، مخلص في ذلك. فلماذا يَشْك بي أي مسلم، مهما كانت طائفته!

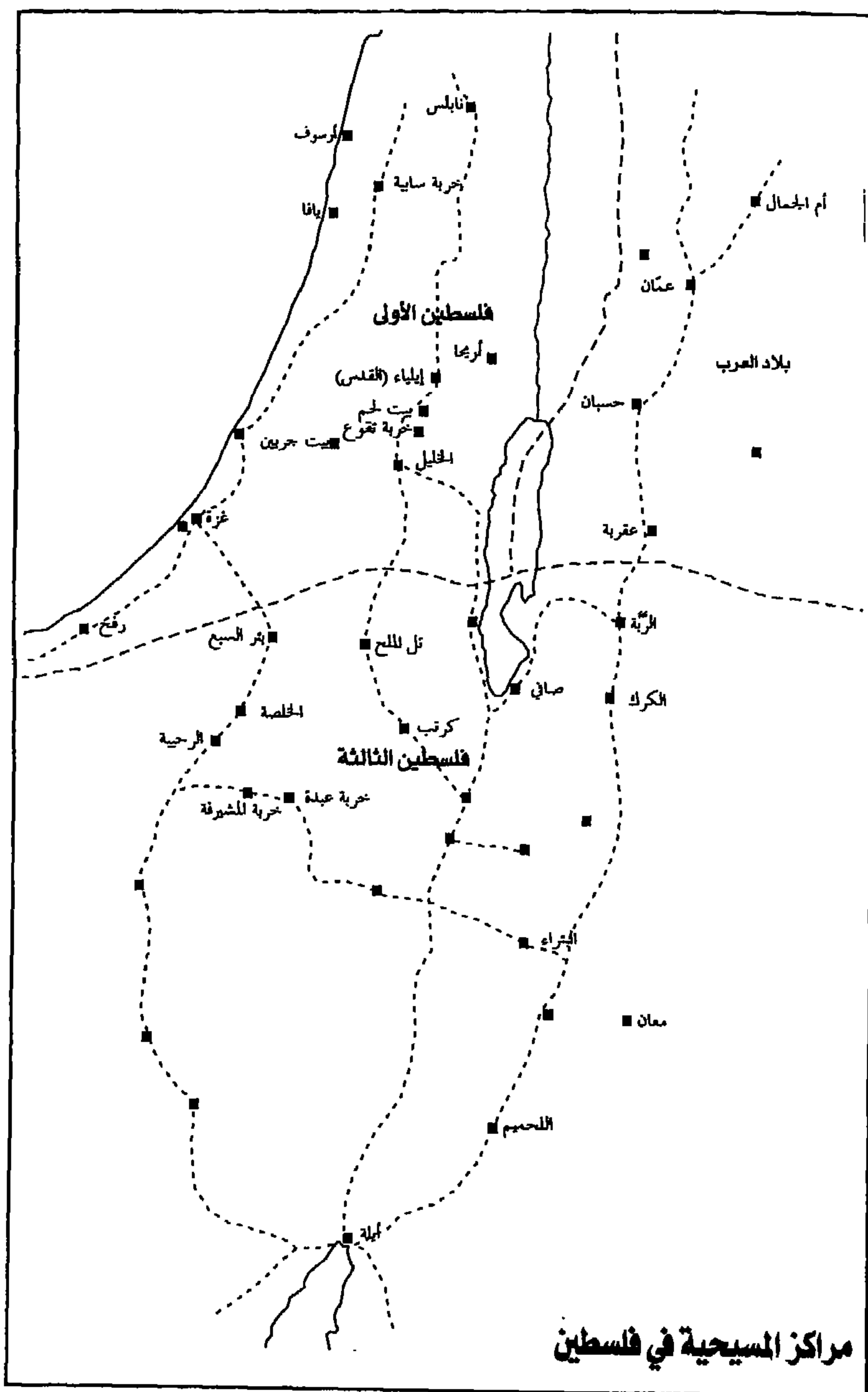
وإذا كان المسيحي يريد أن يُنصف (لا أن يصنّف) وأن يعترف له بحق المواطنة والعمل في سبيل البلد حضارياً (تاريخياً وعملياً) فالذي يجب أن يبدأ بذلك الجماعة التي تكوّن الأكثرية، والأكثرية الساحقة.

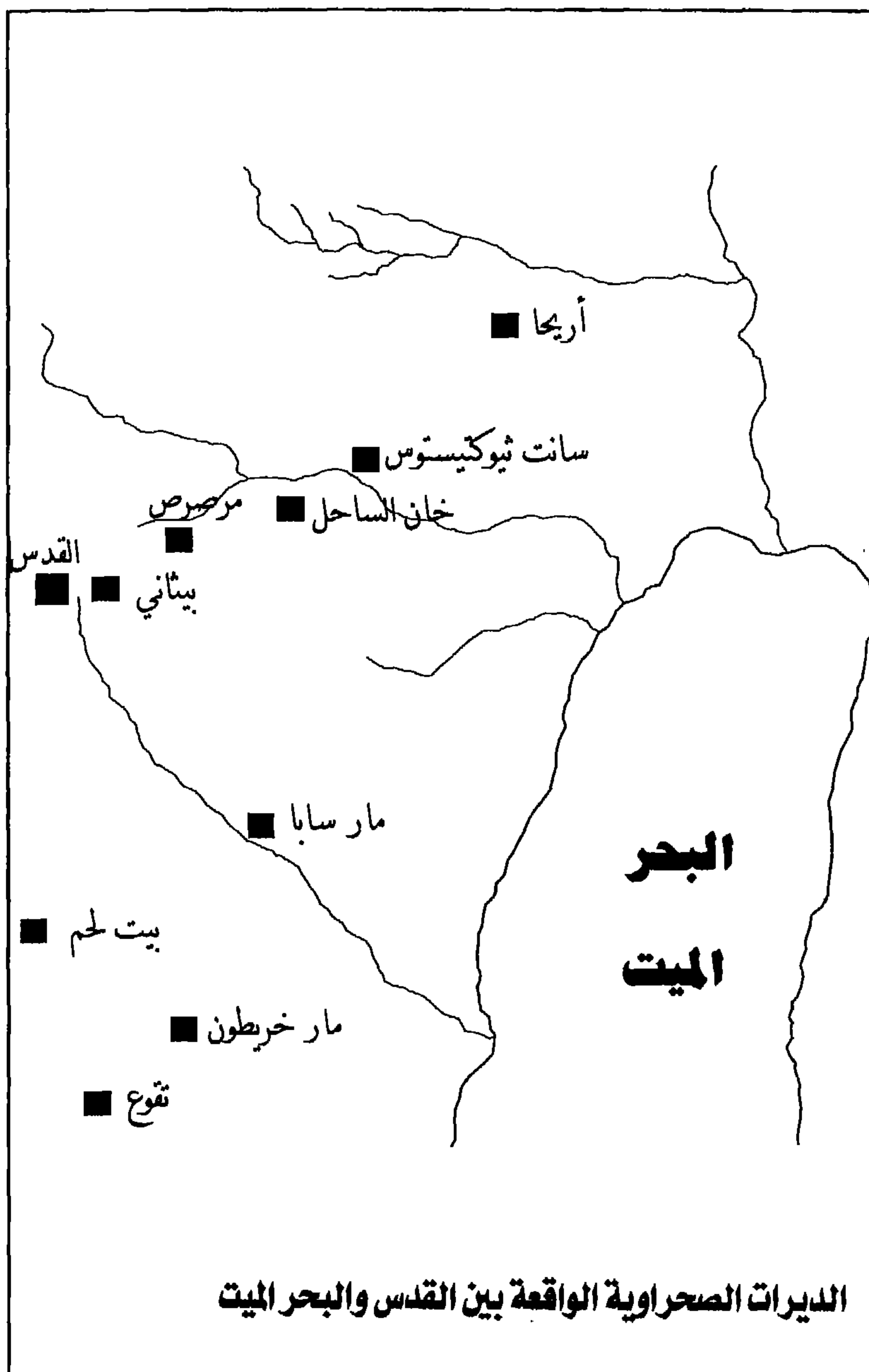
هذه هي نقطة الانطلاق!

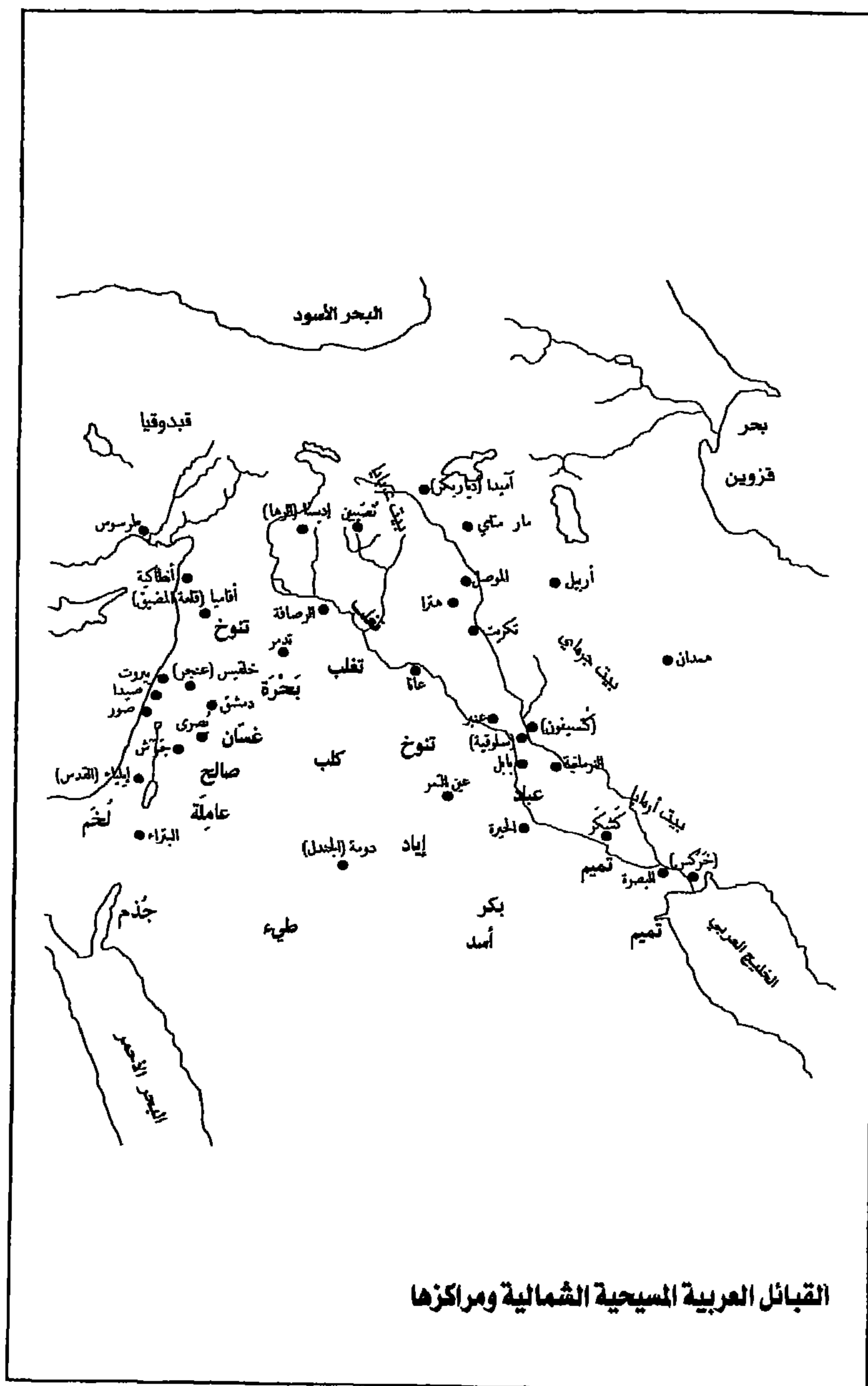
الهوامش:

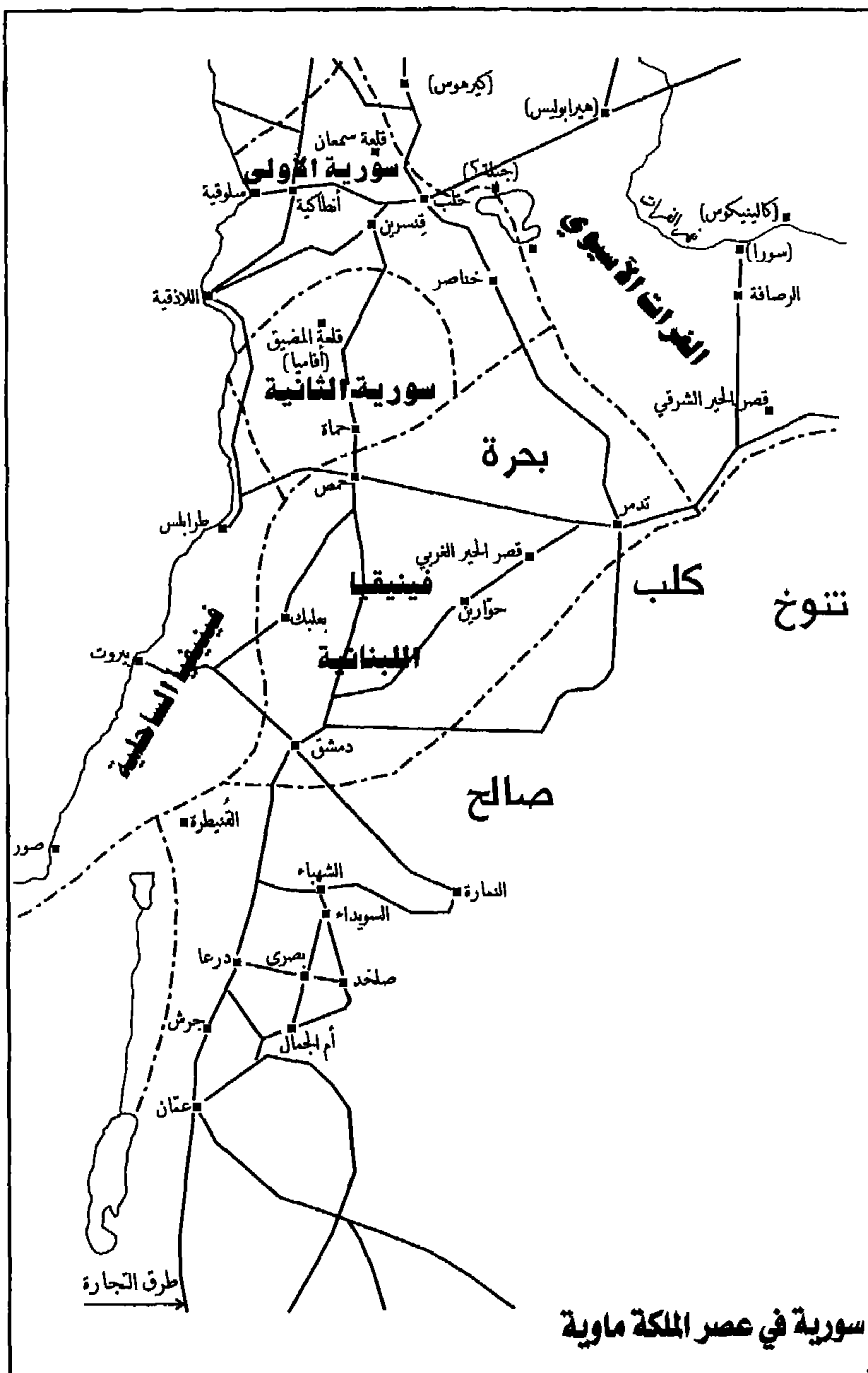
- 1 - أو (الفرتية/البارثية).
- 2 - See Shahid, Irfan, *Rome and the Arabs*. Washington D.C., 1984 (passim).
- 3 - Zernov, Nicolas *Eastern Christianity*. London, 1961.
- 4 - Diatessaron.
- 5 - The Tome.
- 6 - انظر عن هذه الملكة العربية ملحقاً خاصاً بها في كتاب قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب الذي يصدر قريباً عن قَدُوس للنشر والتوزيع (الناشر).
- 7 - Paramboles.
- 8 - Uniates.



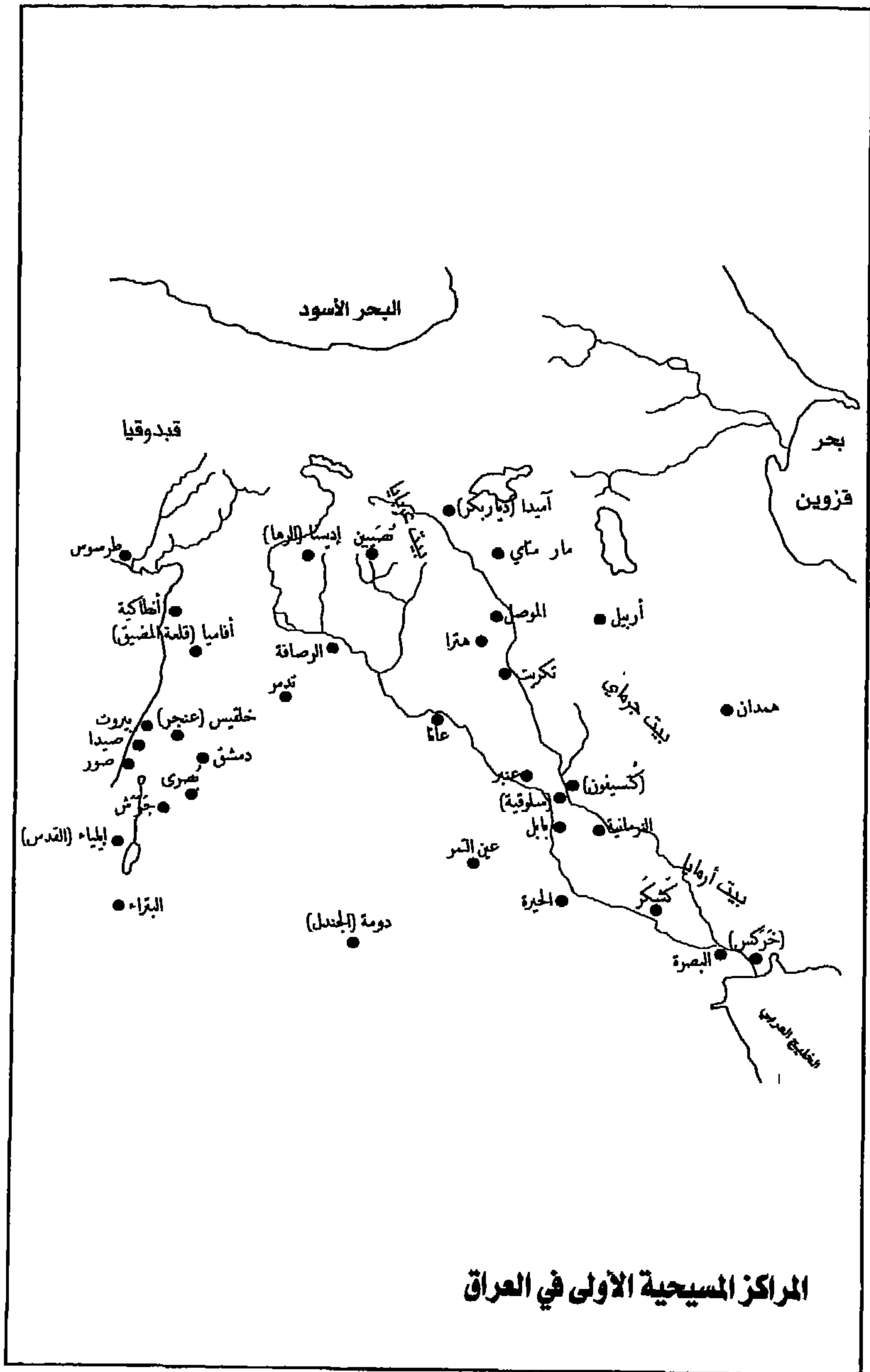




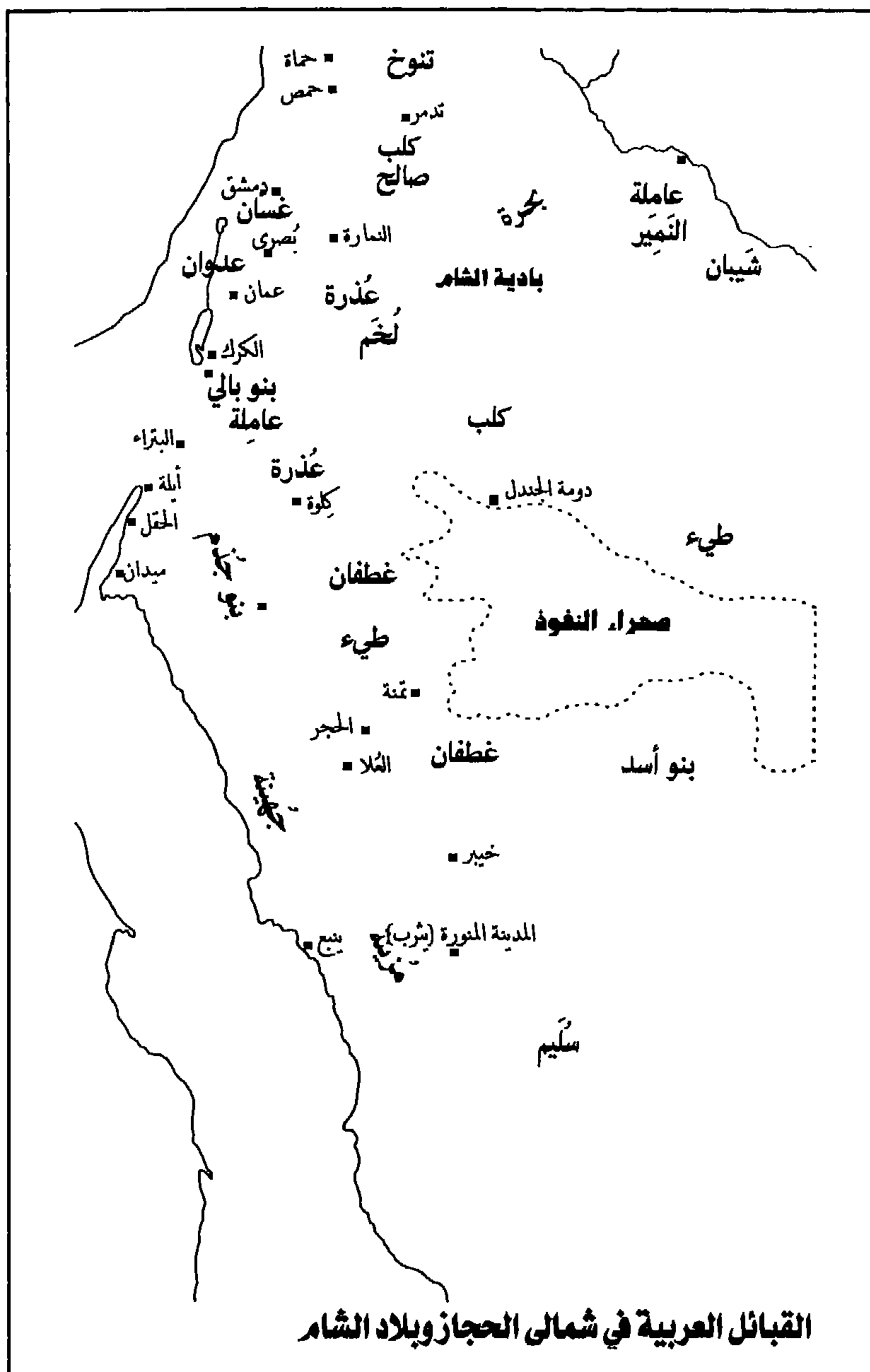


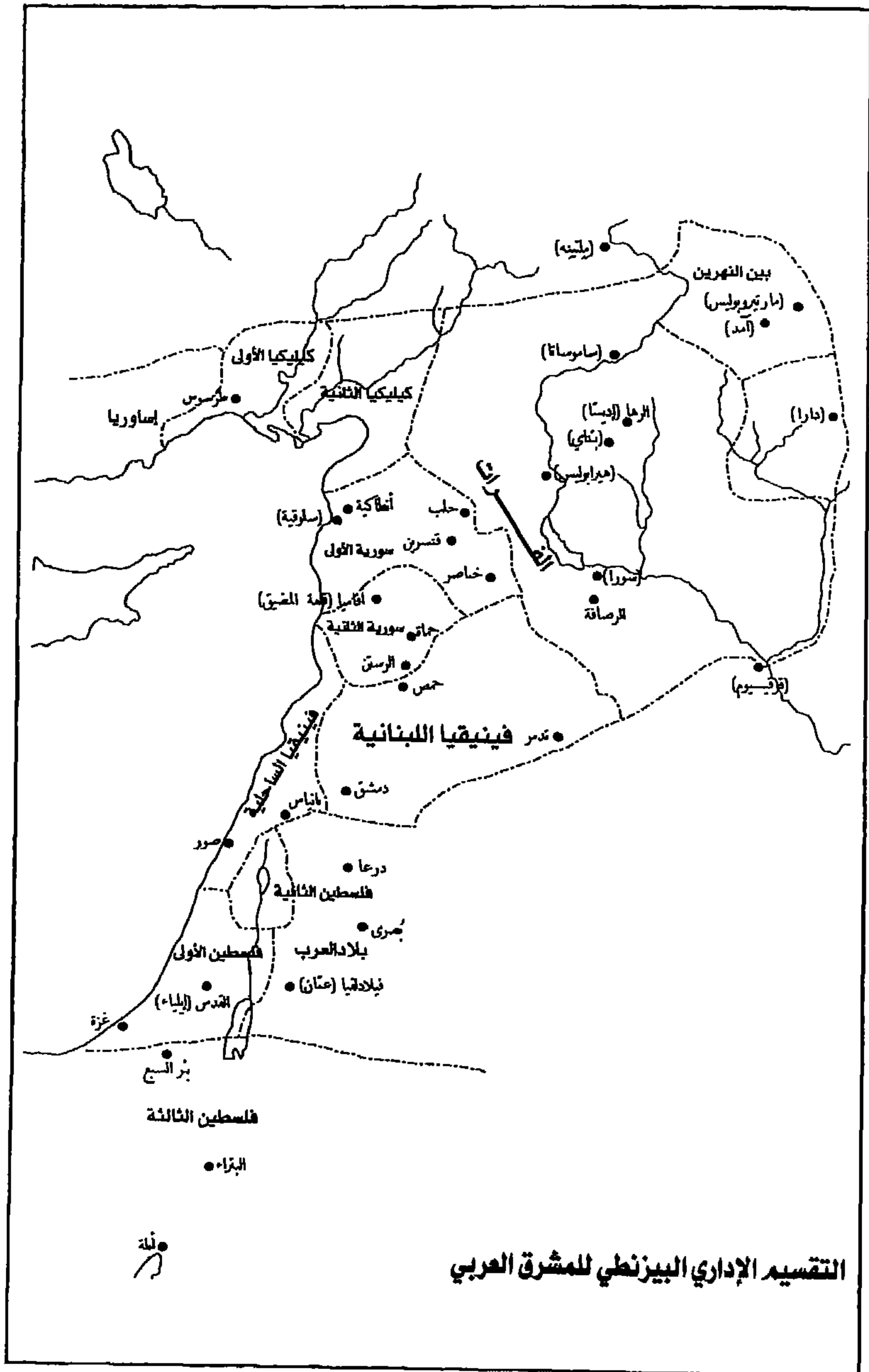


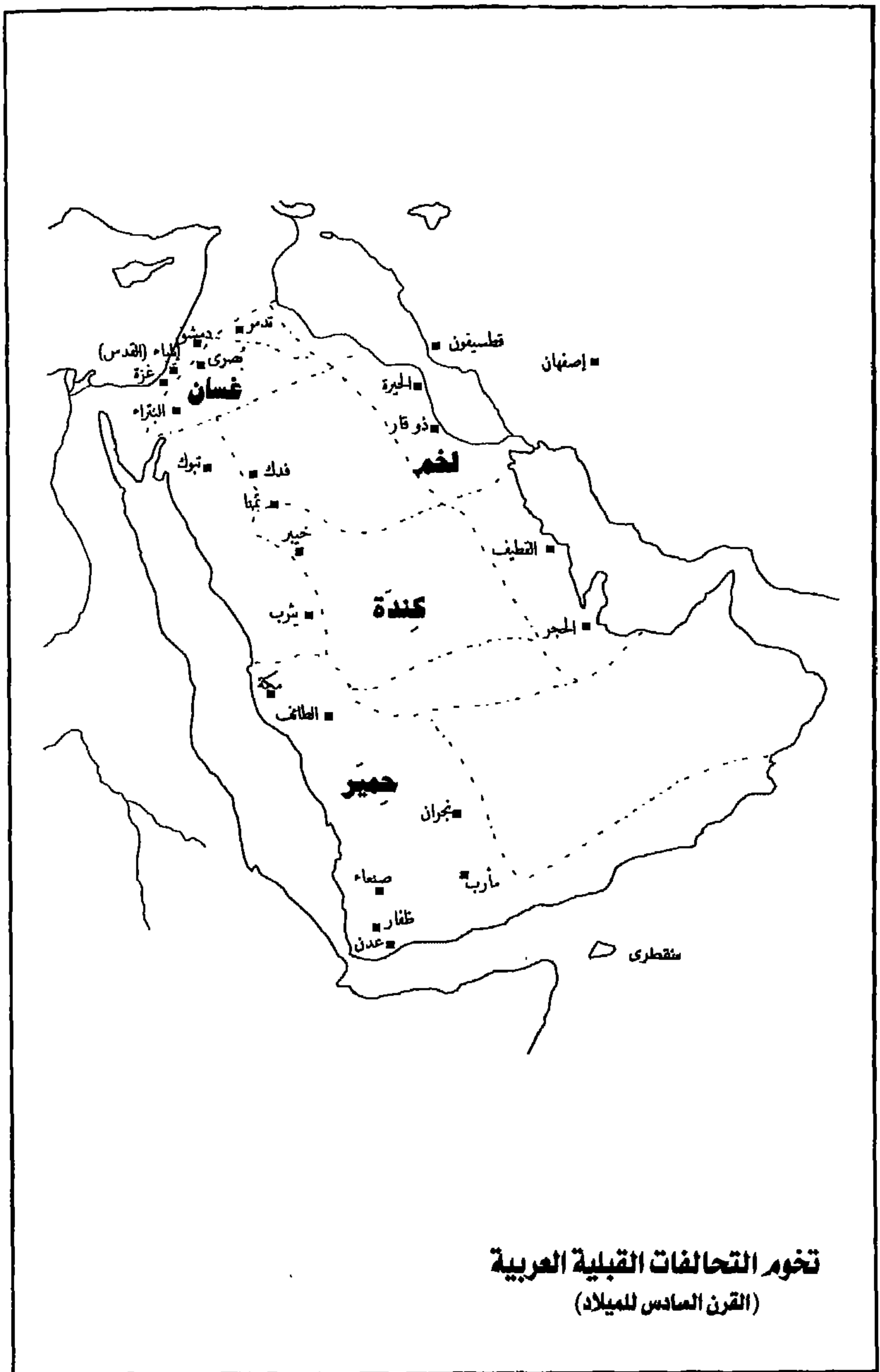
سورية في عصر الملكة ماوية











إصدارات قدمس للنشر والتوزيع

- ماركو بولو: هل وصل إلى الصين؟ تأليف: فرنسيس وود، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تشرين الثاني 1999 م).
- لبنان القديم. تأليف: كارلهاينز برنهدت، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (تشرين الثاني 1999 م).
- النهايات: الهوس القيامي الألفي. تأليف: ديتر تسمرلنخ، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (تشرين الثاني 1999 م).
- تلفيق إسرائيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني. تأليف: كيث وايتلام، ترجمة: ممدوح عدوان؛ مراجعة: زياد منى (آذار 2000 م). (نفد).
- قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب. تأليف: سبستين برّك وسوزان هارفي، وغلن بوزسك ترجمة: فريدة بولس وميسون الحنجري. راجعها وقدم لها: المطران مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس. الطبعة الأولى: (آب 2000 م). (نفد).
- المسيحية والعرب. تأليف: نقولا زيادة (صدر). الطبعة الأولى: (تموز 2000 م). الطبعة الثانية: (آب 2000 م). الطبعة الثالثة: (تشرين الثاني 2001 م).
- النظرية السياسية بين اليونان والإسلام. تأليف الدكتور عبد الوهاب مروان (تشرين الأول 2000 م).
- الشعر العربي المغنى: دراسة تحليلية لموسيقى الشعر. تأليف: المقدم الدكتور إيليا فرنسيس (كانون الثاني 2001 م).
- بحثاً عن إله ووطن: صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799-1917 م). تأليف: نيل سلبرمن، ترجمة: فاضل جتكر، مراجعة: زياد منى (آذار 2001 م).
- شاركت في الخديعة. تأليف: سلوى النعيمي (آذار 2001 م).
- الماضي الخرافي: التوراة والتاريخ. تأليف: توماس طمسُن، ترجمة: عدنان حسن. مراجعة: زياد منى (آذار 2001 م).
- خالد وعمر: بحث نقدي في المصادر عن التأريخ الإسلامي المبكر. تأليف: كلاوس كلير، ترجمة: محمد جديد (حزيران 2001 م).
- بنية المسلسل الدرامي التلفزيوني: نحو درامية جديدة. تأليف: قيس الزبيدي (تشرين الأول 2001 م).
- الكتاب والاستعمار: السطو على الأرض في التوراة. تأليف: مايكل برير، ترجمة: أحمد الجمل (تحت الطبع).

- فلسطين في العقل السياسي الأمريكي. تأليف: كاثلين كريستسن، ترجمة: مفيد عبدوني (قريباً).
- الصهيونية المسيحية. تأليف: بول مركلي. ترجمة: فاضل جتكر. (تحت الطبع).
- بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة. تأليف: ولتر كيغني، ترجمة: نقولا زيادة (تحت الطبع).
- الظاهر بيبرس. تأليف: بيتر ثوراو، ترجمة: محمد جديد (تحت الطبع).
- الحرب البحرية والسياسة البحرية بين الإسلام والغرب. تأليف: إ. آيكوف (قريباً).
- الحمام في العصر العربي - الإسلامي الوسيط: دراسة ثقافية تاريخية. تأليف: هاينز غرتسفلد (قريباً).
- هزيمة المسيحية، خطاب "العودة" واليهود. تأليف: د. أولستر (قريباً).
- الطوائف المسيحية في فلسطين من الحكم البيزنطي إلى الفتح الإسلامي - دراسة تاريخية وأثرية. تأليف: روبرت شك (قريباً).
- غوته والعالم العربي. تأليف: كاتارينا ممزن (قريباً).
- المولوخ - نظرة نقدية لتاريخ الولايات المتحدة. تأليف: كارلهاينز دشنر، ترجمة: محمد جديد (قريباً).
- بحثاً عن بني إسرائيل. تأليف: فيليب ديفس، ترجمة: زياد منى (قريباً).
- إفريقية واكتشاف أمريكا. تأليف: ليو فينر (قريباً).
- الفتوحات الإسلامية الأولى. تأليف: فرد دونر (قريباً).
- حكايات آرامية من معلولا (قريباً).
- الغرب والإسلام - صورة العرب في الغرب وتشكلها في العصر الوسيط المبكر. تأليف: إكهارت روتر (قريباً).
- حكومات المسلمين. تأليف: عزيز العظمة، ترجمة: عدنان حسن (قريباً).
- الجنس استشراقياً - قراءة في خطاب الغرب عن الشرق كآخر. تأليف: إرفين جميل شك، ترجمة: عدنان حسن (قريباً).
- الإسلام في عيون الآخرين. تأليف: بروبورت هويلاند (قريباً).
- الكهانة بين العرب قبل الإسلام. تأليف: توفيق فهد، ترجمة: حسن عودة (قريباً).
- كمال الصليبي وتوماس طمس في حوار مع زياد منى حول "جغرافية التوراة" وتاريخ فلسطين القديم (قريباً).
- طب العيون عند العرب: تاريخ وأعلام. تأليف: نشأت الحمارنة (قريباً).
- عبد الله وشرق الأردن بين بريطانيا والحركة الصهيونية. تأليف: ماري ولسن. ترجمة: فضل الجراح (آب 2000 م). صدر عن: شركة قذموس للنشر والتوزيع (ش.م.م) - بيروت.
- جذور الوصاية الأردنية. تأليف: سليمان بشير. يصدر عن شركة قذموس للنشر والتوزيع (ش.م.م) - بيروت. (تموز 2001 م).

دراسات قَدُمُس

الدراسات الآتي ذكرها مجموعة كتيبات تحوي بمعظمها ترجمة دراسات وأبحاث نشر أكثرها في دوريات متخصصة، تتعلق ببلادنا وقضايانا التاريخية والمعاصرة، منها التالي ذكرها:

دراسات قَدُمُس (1): كمال الصليبي في حوار مع زياد منى عن مقولاته في نصوص التوراة والإنجيل (أيلول 2001 م).

دراسات قَدُمُس (2): الإبيونيون وورقة بن نوفل والإسلام. تأليف: زياد منى (أيلول 2001 م).

دراسات قَدُمُس (3): (1) معركة القادسية. تأليف: س. م. يوسف. (2) معركة اليرموك: إعادة تركيب. تأليف: ج. جندارا. (3) معركة هليوبوليس. تأليف: ألفرد بَتْلَر. (4) تطورات فنون الحرب الإسلامية: الفتوحات الأولى. تأليف: ج. جندارا. (5) دور الجمل والخيال في الفتوحات العربية المبكرة. تأليف: د. ر. هِل. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (أيلول 2001 م).

دراسات قَدُمُس (4): (1) أشكال توظيف الماضي. علم الآثار في خدمة الدولة. تأليف: دون فولر. (2) من الدمار إلى العمار: أثر مفهوم توراتي في علم الآثار الشرق أوسطي. تأليف: نيل سلبرمن. (3) الآثاريات الكتابية والصحافة: صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب. تأليف: لورنس دافسن ترجمة: فاضل جتكر. مراجعة: زياد منى (أيلول 2001 م).

دراسات قَدُمُس (5): "عودة" اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي (1790-1840 م). تأليف: مير فريته، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (أيلول 2001 م).

دراسات قَدُمُس (6): (1) أصل كلمة (سورية). تأليف: ريتشارد فراي. (2) كنعان، فينيقيا، أرجوان. تأليف: ميخائيل أسطور. (3) أصل اسم العرب (Saracens) في اللاتينية. تأليف: ديفيد غرافس، م. أكنر. (4) أباطرة وشيوخ رومان من المشرق العربي. تأليف: غلن بَورسُك. (5) فيليب العربي والمسيحية. تأليف: هانز بولزنتر. ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (أيلول 2001 م).

الألفية والمستوطنات الزراعية في الأرض المقدسة في القرن التاسع عشر. تأليف: ر. كارك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

أورشليم داود: التلفيق والحقيقة. تأليف: مارغريت شتاينر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

- حول نقش "بيت دود (داود)". تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (تحت الطبع).
- جغرافية سفر التكوين (14) في عسير. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
- مشكلة (داود وجليات). تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
- الفرار من "أورشليم". تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
- مسألة "أورشليم". تأليف: كمال الصليبي. ترجمة: زياد منى (قريباً).
- ملاحظات جغرافية ولغوية على التوراة. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
- مقاطع متطابقة من العهد القديم والشعر العربي. تأليف: فراي هر فون غل، ترجمة: زياد منى (قريباً).
- النبي محمد وهرقل. تأليف: أ. شارف (قريباً).
- "بيت داود <حدود>" مبني على الرمال. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).
- بين المنهجية والجنون: عن توظيف التوراة مرجعاً تاريخياً. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).
- (نقق سلوان) هلنستي. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).
- الإسلام في الكتابات البيزنطية. تأليف: فولفغانغ آيشنر (قريباً).
- الحركات الدينية في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام. تأليف: أ. شبرنغر (قريباً).
- البحث عن الحلقة المفقودة: الآثار والرأي العام في لبنان. تأليف: هلفا سيدن (قريباً).
- موقف العرب من بيزنطة: الرسمي، الشعبي، العلمي. تأليف: أحمد شبول (قريباً).
- هل "عبرية" التوراة لغة؟. تأليف: إرنست أكسل كناوف؛ مراجعة: زياد منى (قريباً).
- الحركة الصهيونية والماسونية. تأليف: ميم كمال أكه (قريباً).
- الأتراك والصهيونية وقضية فلسطين. تأليف: ميم كمال أكه (قريباً).
- لبنان المسيحي: موقف البابوية - متطلبات الحماية الفرنسية (1840-1847 م). تأليف: الأب جوزيف حجار. ترجمة: عبدو مصلح (قريباً).
- الزير سالم: البطل بين السيرة والتاريخ والبناء الدرامي. تأليف: ممدوح عدوان (قريباً).
- نحن... دون كيشوت (بحث وقصيلة). تأليف: ممدوح عدوان (قريباً).

أنا وجريس وطنوس وشنودة
ورثة حضارة واحدة عربية
إسلامية. عملنا في وقت من
الأوقات في بناء صرحها. ونحن
أبناء أرض نمت هذه الحضارة
فيها. ونحن عرب بقدر ما هو
كل مقيم في أرض العرب
عربي. وأنا لا أريد أن أذكر
دور المفكرين العرب المحدثين في
الكشف عن التراث الإسلامي
العربي الضخم، فهذا أمر يجب
أن يُكفَّ عنه لأننا إنما نحن نقوم
بذلك كشفاً عن تراثنا - نعم
هذه حضارتنا التي بدأ العمل
فيها قبل نحو ستة آلاف سنة
على أقل تعديل.

نقولاً زيادة

Bibliotheca Alexandrina



0647333

قاعة

الزمن

خبر

